كتاب التعاون

الإسلام وفلسفة الحضارة

دكتور حسين فوزى النجار

الغـــــلاف :

الفنـان : جـميـل شـفيق

سكرتير التحرير التنفيذى :

نـزيه عبـد الغنـى

مؤسسة دار التعاون
للطبع والنشر
كتاب التعاون

رئيس مجلس الإدارة:
محمد رشاد

رئيس التحرير:
سعيد نور الدين

٦ شارع عبد القادر حمزة - جاردن سيتي - القاهرة - تليفون ٣٥٤٣٣١٣

كلمة حق

لئن كان ثمة فضل فى نشر كتابى هذا - الاسلام وفلسفة الحضارة - فان الفضل كله يرجع الى الأستاذ - سعيد نور الدين - وقد تقدمت به اليه على وجل فلم نلتق من قبل الا من خلال مايشرف على نشره من الكتب التى تصدرها دار التعاون وهو خير ماتقوم به فى الواقع احياء لجهد قديم قام به الصديق وزميل الكفاح من مطالع الشباب - طيب الذكر والآثر المرحوم - محمد صبيح ٠

فما كان يصدر كتابا الا ويهدينيه فان قام على اثره الاستاذ سعيد نور الدين ليحيى هذا الجهد الفواح بالمعرفة واليقين ورجاحة العقل والايمان فليس لى ماأقوله الا أن يبارك الله فى جهده وخطواته على درب المعرفة واليقين والارادة الصامتة .. وليؤجره خير الجزاء ٠

وكم يسعدنى أن يقدم لكتابى هذا وقد أدركت من حديثى معه أنه قرأه قراءة علم ومعرفة وصدق ويقين .. وأكتفى باهدائه اليه بقولى :

الى الأخ والصديق الأستاذ سعيد نور الدين
فهو صاحب الفضل الأوفى فى نشر هذا الكتاب

د ٠ حسين فوزى النجار

تقديم

لم التق بالدكتور حسين فوزى النجار من قبل فبينى وبينه جيل من الزمن وان نشأت وأنا أقرأ له وأتابع مايكتب بشغف، وامعان وعلى وجه الخصوص مايتعلق بالدراسات الاسلامية والعربية ومايقوم به من جهد مؤثر وفعال فى هذا المجال .
والتقيت بالدكتور النجار وقدم الى كتابه ـ الاسلام وفلسفة الحضارة ـ وعكفت على قراءته واستولى على مشاعرى ورأيته جديرا بالنشر .

والكتاب يتناول بالشرح والتحليل الحضارة الاسلامية التى تتميز بأنها تجسيد لشريعة الاسلام ومنهاجه فى الحياة وبالتالى تعتمد على القيم الاسلامية من الايمان بالله الواحد القهار ربا وخالقا لهذا الكون وعبادته دون سواه وهذا مايختلف عن الأساس الذى قامت عليه الحضارة الغربية المعاصرة التى قامت على أسس الحضارتين اليونانية والرومانية وكلاهما وثنى ويقدس المعبودات من البشر .. وكيف أن الحضارة الاسلامية تعتمد على القيم الاسلامية من ايثار للحق والعدل والحرية والمساواة ودعوة الى العلم واحترام للعلماء على أساس من شريعة الله وليس على أساس من صنع البشر فهى حضارة تستند الى الواقع التجريبى لا الى الخيال المجرد وتعتمد على الاخلاق أساسا لها وتعمل على خدمة الانسان واحترام كرامته أيا كان دون تفرقة بسبب اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين لأن الاسلام دين الأخوة العالمية .

كما يستعرض المؤلف نشأة الحضارة الانسانية بصفة عامة وتطورها وكيف أن الدين يعتبر الدعامة الأولى فى بناء الحضارة الانسانية وتكوينها واستمرارها ليصوغ للانسان حياته ومعاملاته وسلوكه واخلاقه .. ويشرح الدكتور النجار بالتفصيل المعنى الدقيق لفلسفة الحضارة أو الفلسفة والحضارة وأن الحضارات لاتقوم الا حيث يتسق جهد الانسان ومقومات البيئة وأن الانسان الذكى الدءوب فى بيئة صالحة مواتية يستطيع أن يسخر عطاء البيئة لخيره فيذلل صعابها .. ويتناول بعد ذلك علاقة الفلسفة بالدين وكيف نشأت الفلسفة ومعناها والمسلمون فى ميدان الفلسفة والفلسفة والفرق الضالة وأن العقل اذا استقام على التسليم بقدرة الخالق الاعظم فقد كفى صاحبه البحث عما وراء الطبيعة وانتقل بالفلسفة الى ميدان آخر .. ميدان المعرفة العلمية أو القانون الاخلاقى الذى يحكم

مسار الحياة ونمط العلاقات الاجتماعية وأنه لم يكن هناك ثمة تناقض بين الدين والعلم فى الحضارة الاسلامية قبل أن تبور فيها النظرة العلمية وتزحف الخرافة على معالم الدين وان الاسلام هو أول من خاطب العقل ودعاه الى النظر فى أسرار هذا الخلق العظيم من حيوان ونبات وجماد ورفع القرآن من شأن العقل فأطلق العنان للفكر ماشاءت قوته عظة واستدلالا .

وحول التصوف والحضارة الاسلامية يتناول المؤلف نشأة المعتزلة وصلتها بالتصوف الاسلامى من ناحية وآراء أهل السنة من ناحية أخرى فضلا عن دورها فى الفلسفة ودور الفلسفة فيها حين ازدهرت الفلسفة الاسلامية بتراث الفلسفات الأخرى لاسيما فلسفة اليونان .. ويستمر الدكتور النجار فى بحثه القيم الى أن يصل الى بداية الهوان الذى حل بالامة الاسلامية منذ استبد الأمراء بالسلطة فى منتصف القرن الرابع الهجرى حتى سقوط بغداد على أيدى التتار فى منتصف القرن السابع الهجرى ثم كان البلاء الذى ترتب على انقسام المسلمين الى سنة وشيعة وتدمير وحدتهم .. ثم ينتقل بعد ذلك الى الحروب الصليبية وأسبابها ونتائجها وكيف قدر لمصر أن تحمل العبء الأكبر فى تلك الحقبة الحافلة من تاريخ العصور الوسطى أمام الصليبيين فى البداية ثم أمام التتار فى النهاية وشاء الله سبحانه وتعالى لمصر أن يكون انقاذ العالم الاسلامى والحضارة الاسلامية بل وحضارة العالم المتمدين على يديها .

ويصل المؤلف فى نهاية بحثه الى أن الدعوة الى العالمية واعتبار أهل الكتاب أمة واحدة صاغ لها الاسلام شريعتها التى تقوم على الاخاء والمساواة وتوفير الحياة واعلاء الكرامة الانسانية هى ماينشده العالم فى حاضره التعس مما نوه به فلاسفة الغرب ومفكروه انقاذا للعالم من هاوية يتردى فيها وتوشك أن تطيح بالحضارة القائمة وبالناس معا .

ومؤسسة دار التعاون يسعدها أن تقوم بنشر هذا البحث الممتاز للدكتور حسين فوزى النجار تقديرا للجهد الرائع والمتميز الذى كان ومازال يبذله من اجل الاسهام فى حركة الاستنارة الاسلامية والعربية .

وفقنا الله واياه لخدمة الفكر السليم والرأى الحر .

سعيد نور الدين

رئيس تحرير كتاب التعاون

الباب الأول

الوعاء الحضارى

نشأت الحضارة بنشأة المجتمع الانسانى الكبير مع اكتشاف الانسان للزراعة ، فهى التى حملت الانسان على التجمع والاستقرار ، ومع التجمع والاستقرار وضع النظم والقوانين التى تصون وجوده ، والتى يدرك الفرد من خلالها ذاته فى غيره ، بمعنى ادراكه لواجباته حيال الغير وماله من حقوق لدى الغير وإدراك الغير تماما لتلك الواجبات والحقوق .

وبقيام هذا التجمع تنشأ الجماعة المنظمة ، وهى القوام البشرى للدولة ، وحيث تستقر هذه الجماعة من البشر على ارض معينة تملكها وتنتمى اليها فتصبح أساسا لما يعرف بالمواطنة ، ينمو لديها مايعرف بعاطفة الوطنية ، وهى عاطفة يمتزج فيها الاحساس بالايثار والاحساس بالحب ، فالايثار ، ألا يؤثر على هذا الوطن وطن أخر ، والحب الا يحمل لأرض أخرى من الحب مايحمله لارض وطنه .

ومع نشأة هذه الجماعة المنظمة ، وهى القوام البشرى للدولة ، واستقرارها فوق ارض واضحة المعالم بينة الحدود التى ينتهى اليها مداها من الاستقرار هى الوطن ، تحتاج الى سلطة ترعى شئونها وتدير امورها وتحمى مصالحها ، وتحدد العلاقة بين الافراد بعضهم ببعض ، وعلاقتهم بالسلطة الحاكمة ، وبقيام هذه السلطة يكتمل الاطار السياسى للدولة ويكون ذلك بداية قيامها .

وكان اكتشاف الانسان للزراعة وطرق فلاحة الارض واستنبات الزرع العامل الاول لاستقراره والتصاقه بالارض ، التى تغدو وطنه حيث يجد فيهامصدر حياته ، ورزقه ، وقوام معيشته .

وكانت البداية فى وديان الانهار لاولى الحضارات الانسانية حيث تغزر المياه وتخصب الارض ، وتطيب الحياة ، وقد سادت هذه الحضارات الزراعية أمدا طويلا ، وطبعت الحياة والمجتمع بطابعها لعدة آلاف من السنين ، يردها المؤرخون الى عشرين ألف سنة ، أو الى بداية العصر الحجرى الحديث ، حيث عرف الانسان كيف يستنبت البذر ، ويرعى نموه ، ويرى « هـ . ج . ويلز » أن القمح كان ينمو بريا فى مكان ما من حوض البحر الأبيض المتوسط ، وربما تعلم الانسان كيف يدق حبوبه ، وكيف يطحنها أخيرا ، قبل أن يهتدى الى بذرها واستنباتها ، فكأنه ـ كما يقول : « حتى قبل أن يبذر »

الا أن اهتداء هذا الانسان البدائى ، أو انسان العصر الحجرى الحديث (النيوليتى) الى الزراعة واستنبات البذر ، لايعد فى الواقع بداية تجمع حضارى ، وانما كانت البداية بعد

ذلك بما لايقل عن عشرة ألاف سنة ، حيث أخذت الارض صورتها القريبة من وضعها الحالى ، وتميزت الشعوب والاجناس تميزها السائد فى الوقت الحاضر ، بعد فترة من التقلبات المناخية تركت معالمها بارزة على صفحة العالم من بعد ، فقبل أربعة عشر ألف سنة كانت الثلوج تكسو معظم بقاع آسيا وأوربا حتى هضبة ايران ، فتحول بينها وبين أن تكون موطنا صالحا للحياة ، بينما كانت الامطار الغزيرة تغرق المناطق المتاخمة لها جنوبا ، وهى التى تحولت الى صحارى بعد أن انقطع عنها المطر ، وأصبحت تكون النطاق الصحراوى الاعظم الممتد عبر المنطقة المدارية الشمالية فى افريقيا وآسيا ، ونزح أهلها عنها الى حيث يغزر الماء وتمرع الحياة فى وديان الانهار .

وقد سارت هذه الحضارات الزراعية أمدا طويلا يقرب من بضعة آلاف من السنين منذ بدأ الانسان حياة الاستقرار بعد حياة التنقل والرعى ، وكان الانتقال من حياة الرعى والتجوال الى حياة الزراعة المستقرة تحولا جديدا فى حياة الانسان ، فقد اتاح له الاستقرار والفراغ الذى يعقب المواسم الزراعية فسحة من الوقت للتأمل والتفكير والابداع ، ولا يتأتى التفكير ويخصب مالم تتح للانسان فرصة التأمل والوعى والادراك ، فالتأمل ظئر الادراك ، والادراك وحى المعرفة ، والمعرفة أساس الابداع ، وقد حث القرآن الكريم على النظر والتأمل والتفكير أساسا للايمان ، فان استجلاء اسرار الكون استجلاء لعظمة الخالق وقدرته وخشيته ، وفى قوله تعالى : (انما يخشى الله من عباده العلماء) ورجل العلم أقدر الناس على ادراك عظمة الكون وجلال خلقه .

ولا يتأتى للانسان قدرة الادراك دون النظر والتأمل ، فقد ميز الله الانسان بالعقل ، وحرية الارادة فيما يملك ، ليحاسبه على فعاله ، وهو ماحفلت به آى الذكر الحكيم :

« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وماأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » البقرة آية ١٦٤

وقوله جل شأنه :

« ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما ، فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ، يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » النور : ٤٣ ـ ٤٤

« ومن آياته ان تقوم السماء والأرض بأمره » الروم ٢٥

« ومن آياته خلق السموات والارض ومابث فيهما من دابة وهو على جمعهم اذا يشاء قدير » الشورى : ٢٩

كما أتاحت له حياة الاستقرار بناء المدن والقرى واقامة علاقات اجتماعية يحكمها قانون الجماعة ، ومن ثم قيام حكومة ثابتة مستقرة تسوس الناس رضا أو كرها لصالح المجموع والدولة ، وقد يعلو صالح الدولة على صالح المجموع ، وان قام أصلا على حماية

الكيان العام للمجموع إبقاء على الكيان العام للدولة ، فليس هناك دولة دون مجموع هم رعاياها .

وقد استمرت هذه الحضارات الزراعية أمدا طويلا لايغير من اطارها العام غير المضمون الثقافى الذى تقوم عليه ، فالتباين بين حضارة وحضارة هو تباين فى الثقافة التى تميز جماعة عن جماعة ، وتميز مجتمعا عن آخر ، وان كان من العسير أن نفصل بين الحضارة والثقافة فكلاهما يؤثر ويتأثر بالآخر ، حتى كان من قوة هذا التأثير أننا نخلط بينهما ، وهذا الفصل لاتعرفه المجتمعات القديمة التى نضفى عليها صفة التحضر ، وقد لاتعرفه المجتمعات الحديثة التى حققت اقصى درجة من التقدم الحضارى ، حيث يتوافق الجانب المادى الماثل فى التقدم والارتقاء ، والجانب المعنوى الماثل فى الثقافة حيث يتماثل السلوك الاجتماعى العام بين افراد الجماعة ، فاذا اختل التوافق بينهما كما هو الحال فى الشعوب النامية ، حيث تتعدد انماط السلوك ، بتعدد الفئات الاجتماعية ، كان علينا أن نميز بينها لندرك مدى هذا التباين واسبابه

ولاتعرف المجتمعات الحضارية القديمة مثل هذا الفصل والتمايز حيث يستوى التقدم الحضارى مع السلوك الثقافى ، كما هو فى المجتمعات المتقدمة فى الوقت الحاضر ، وحيث يتسق السلوك مع مستوى التقدم ومؤثراته العامة .

ولانعثر عند ابن خلدون ـ أول من فلسف الحضارات ـ على هذين المترادفين ، فالمجتمع فى دنياه اما بادية أو حضر ، فالحضارة فى تعريفه هى الانتقال من خشونة البادية الى رقة الحضر ، كما كان من هذا الشاعر القادم من البادية فى مدحه للخليفة عندما يقول :

أنت كالكلب فى حفظك الود وكالتيس فى قراع الخطوب

فليس هناك فى قبيلة أوفى من الكلب فى عشرته وتعلقه بصاحبه ، وليس هناك أشد قدرة من التيس ـ وهو ذكر الماعز ـ فى النطاح والاصرار على القتال ـ حتى اذا انتقل الى الحضر حيث بغداد مثوى الحضارة والتقدم ، تكسو شعره رقة بالغة ، فيقول فى غزله :

سهم أصاب راميه بذى سلم من بالعراق لقد أبعدت مرماك

وقد سئل المؤرخ البريطانى « ارنولد توينبى » فى زيارته للقاهرة خلال الستينيات عن معنى الحضارة فقال : « هى الانتقال من القرية الى المدينة » وهو ماعناه المعجم الوسيط ، فى تعريفه » فالحضارة هى حياة الحضر ، وحياة الحضر هى حياة المدن ، والحاضرة هى المدينة التى يكون فيها مقر الحكم ، وان لم تكن المدن جميعا مقرا للحكم ، ولكنها تحيا حياة متحضرة » بمعنى أنها تقوم ـ كما يقول ابن خلدون على « ماينتجه البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر مايحدث فى ذلك العمران » وهو ماندعوه « الوعاء الحضارى »

ولانجد لابن خلدون لمحة او بادرة عن الثقافة كما نعنيها فى حاضرنا ، ولعل العرب لم يدركوا من معنى الثقافة ماندركه من معناها فى عصرنا وفى مجتمعاتنا النامية ، وان

وسعت لغة العرب كلمة الثقافة بمعنى الحذق والفطانة ، فيقال : « ثقف الرمح أى قومه وسواه ، وثقف الولد أى هذبه وعلمه ، والثقيف أى الحاذق جدا »

فالحضارة قد نشأت بنشأة المجتمع الانسانى الكبير ، ومع اكتشاف الانسان للزراعة التى حملته على التجمع والاستقرار ، فالمجتمعات الرعوية لم تنشىء حضارة لانها تتكون فى الغالب من جماعات قبلية تنساح وراء المرعى فلا تستقر فى منتجع ولاتقيم فى مكان ألا حيث يكفى المرعى حاجة الإنسان وماشيته ، فاذا اتيحلهذه الجماعات الرعوية أن تتجمع تحت زعامة قادرة إتجهت نظرتها إلى البقاع المجاورة الآهلة بالعمران

فتغير عليها وتعيث فيها ، وغالبا ماترتد الى منتجعاتها الاولى وقد خلفت وراءها الخراب والدمار ، ومن مأثورات التاريخ ـ وان لم يعد لها وجود فى المجتمع الحديث ـ أن رجل البادية يقتل رجل السهول ، وأن انسان المراعى كثيرا مايغير على رجل المزارع ، فاذا أتيح لهذه الجماعات المغيرة أن تجذبها حياة السهول والاستقرار غلبت عليها ، واقامت فيها دولة يكون لها من فتوة البداوة وعصبيتها ـ كما يقول ابن خلدون ـ مايكفل لها السيطرة والسلطانة ، حتى اذا لانت للحياة ولفحتها طراوة العيش ضمرت خصالها الاولى وفقدت حيويتها ، فغلبت عليها شعوب اكثر منها حيوية وفتوة »

وقد كان من تاريخ مصر القديم ، حين وهنت الدولة اواخر الدولة الوسطى ، أن اغارت عليها قبائل الهكسوس الرعوية واقامت حكما ودولة وان لم تجاوز دلتا النيل ، حتى استطاع احمس (أو احموزا) أن يغير عليها ويجليها عن مصر ، ويتتبع فلولها الى فلسطين ، وتكون بداية الدولة الحديثة فى تاريخ مصر القديم ، وقيام الامبراطورية المصرية الاولى بعد معركة قادس بين رمسيس الثانى والحيثيين ، لتمتد سيادة الامبراطورية المصرية الى ماوراء النهر ، وتصبح لها السيادة على بلدان الشرق الادنى القديم .

فالبيئة المواتية لحياة الانسان اول مقوم للحضارة ، ولكن البيئة وحدها لاتكفى ، فلابد لها من انسان يعمرها ويستثمر خيراتها ، فاذا كانت البيئة الفتية الغنية الموهوبة ، كما كان وادى النيل فى مصر ، وارض الرافدين ، والهلال الخصيب ، ووادى السند ، وسهوب الصين هى المنتجع الاول لقيام الحضارات التاريخية الاولى ، واولى مقوماتها ، فان الانسان هو القوام الثانى الذى تتم على يديه عملية التفاعل المثمر للبناء والتعمير ، فالبيئة بغير الانسان الذكى الموهوب ، لاتثمر ولاتكشف عن مكنونها ، والانسان مهما بلغ ذكاؤه فى بيئة مقفرة لاتملك اسباب الحياة والنمو وجاذبية الاستقرار والاقامة ، يضمر ذكاؤه ، وتغيض مواهبه ، فلا ينمو ولايتقدم ولايستطيع أن يقيم حضارة ، فبقدر ماتعطى البيئة ، يعطى الانسان ، وبقدر ماتشح وتضن عليه بقدر ماتفرغ حياته مما يثير نشاطه وطموحه وقدرته على البناء ، وهو ماعبر عنه « توينبى » بالقدرة على « التحدى والاستجابة » أى قدرة الانسان على أن يجابه حياته فى بيئته ، وأن يتكيف معها ويستجيب لها ، حتى تواتيه القدرة على اخضاعها وتذليلها لخيره ، ولابد للاستجابة من المرونة التى تحمل الانسان على التكيف ليجابه قسوتها ويذللها لطاعته ، فما من شك فى

ان قدماء المصريين قد جابهوا قسوة النهر عند نزولهم بوادى النيل . فلو انهم وقفوا جامدين امامه ، لاجتاحتهم مياهه ، وقضت عليهم ، ولكنهم عرفوا كيف يحايلونه . ويتجنبون طغيانه حتى لان لهم بعد أن اخضعوه لارادتهم ، فاذا كانت مصر « هبة النيل » كما يقول « هيرودوت » فان هناك من يقول ان مصر هدية المصريين للنهر . فاذا حادوا عن ملاينته ، جفاهم وقد يهجرهم ، أو يطغى عليهم ليغرقهم .

فقدرة الانسان على التحدى تبدو فى قدرته على الاستجابة للتحدى الذى يواجهه ، وهذه الاستجابة هى التى تمكنه من التغلب على قسوة البيئة . وتوافيه بالقدرة على تذليلها واخضاعها لتغدو مواتية لحياته ، وهذان العاملان : البيئة المواتية ، والانسان الذكى الطموح الصامد المرن ، هما معا قوام البناء الحضارى .

الا أن استقرار الانسان ، وقدرته على التحدى والاستجابة وتذليل البيئة لخيره لا يقيم بناء حضاريا مالم يصاحبه مايعرف « بالتماسك الاجتماعى » وهو ارتباط افراد الجماعة بعضهم ببعض لهدف مشترك ، وفى علاقات يعرف كل فرد فى الجماعة واجبه حيالها . وواجبها حياله ، وبهذا ينشأ مانسميه « الضمير الاجتماعى » وهو ادراك الفرد لذاته فى علاقته بالآخرين ، فاذا تكون الضمير الاجتماعى ، وهو ثمرة الاستقراروالتماسك الاجتماعى كان ذلك ايذانا بانتقال الانسان من مرحلة الفطرة الى مرحلة الفهم والادراك . ومن المجتمع الغريزى الى المجتمع المنظم الذى يقود دوره الحضارى فى التاريخ بقدر مايفكر ويبدع ويبتكر ، ويكتمل وعاء الحضارة بقيام الدولة صاحبة القدرة والغلبة والسلطان ، ومع استمرارها تؤكد دورها الحضارى على صفحة التاريخ .

الدين والحضارة

واذا كانت البيئة المواتية لحياة الانسان وتقدمه اولى مقومات الحضارة فى اطارها المادى ، فان هذا القوام المادى لايشبع حاجة الانسان الى السكينة وراحة البال ، فالناس فى سلوكهم يصدرون عن اتجاهات ثلاثة كما يرى برتراند رسل وان لم يات فيها بجديد اكثر مما يجمع عليه كثرة الباحثين .

هذه الاتجاهات الثلاثة هى : الاتجاه العقلى ، والاتجاه الغريزى ، والاتجاه الروحى . والاتجاه الروحى من بينها ، هو الاساس الذى يقوم عليه الدين ، أو بعبارة اخرى هو « جوهر الدين »

فاذا كان العقل جريا وراء المعرفة وقوامه الادراك والفهم ، واذا كانت الغريزة هى الاحساس البيلوجى للانسان أو الحيوان للمحافظة على النوع ، والتعبير عن حاجات الجسد ، فان الروح هى الجانب المعنوى الذى يوازن بين الغريزة والعقل ، ويخضعهما معا لقانون الاخلاق « فترد الشارد الى مكانه فى حياة انسانية ـ على حد تعبير ـ برتراندرسل ـ حيث يهدينا الفكر والتأمل الى الايمان المنشود والسلام الروحى وبهجة الحب العالمى » .

وهذا الجانب الروحى هو الذى يغذى الحضارة بالنماء والارتقاء ، وهو حصيلة القيم والاخلاق والسلوك التى تقود الانسان والجماعة الى نهج أثير بيِّن تؤمن به وترعاه . وتصونه وتذود عنه لخيرها وصلاحها .

وغالبا مايكون الدين قوام هذا الجانب الروحى ، فالدين بمعنى الايمان بقوة خفية كان اول ماخالط تفكير الانسان قبل أن تبعث ديانات السماء ، وهو فى حالة المجتمع الغريزى ، وقبل نشأة المجتمع المنظم ، ففى المجتمعات التوتمية ، وهى مجتمعات غريزية ، كان الدين ممتزجا بحياة الجماعة ، متصلا بغرائز الفرد وتفكيره أشد اتصال ، فكان التوتم فى تصور الجماعة وحياتها اصلا لوجودها ، وللصلات التى تربط بينها ، والتى تعد فى المجتمع التوتمى اقوى من صلات الاسرة ، والقرابة فاذا انتقلنا الى مجتمع اكثر تقدما نجد أن رؤساء القبائل ، أو الملوك المؤلهين يمثلون الامتداد الطبيعى لرؤساء العشائر التوتمية ، وكانوا رؤساء دينيين تنتهى اليهم الرئاسة عن طريق خصائصهم الدينية التى يتناقلونها بالوراثة الى الابن أو الأخ أو ابن الأخ ، ان لم يكن للابن من معرفة الاسرار الدينية وطقوسها ومن بلوغه سنا معينا مايؤهله لرئاسة محافل العشيرة وطقوسها .

ثم كان التطور الاجتماعى تطورا فى الدين والاخلاق قبل أن يغدو تطورا فى التركيب الاجتماعى ، وحين نشأت الدولة فى مصر القديمة ، وهى اقدم مجتمع حضارى فى التاريخ نشأت فى رحاب الدين وكانت شعائر الملكية ورسومها شعائر ورسوما دينية ، وكان الملك مؤلها فى حياته والها بعد مماته ، وكانت المجتمعات المجاورة فى الهلال الخصيب وفى ارض الرافدين مجتمعات دينية تمتزج فيها طقوس الدين بالحياة الاجتماعية كما تمتزج فى السلطة السياسية سلطة الملك وسلطة الكاهن الاكبر .

وكان التشابه بالغا بين العبادات والطقوس فيما عرف ببلدان الشرق الادنى فى مصر وسوريا وفلسطين واشور وبابل ويرى برستد أنها تستمد تفكيرها الدينى من اصول واحدة تقوم على المشاهدة والادراك وكان الاساس فيها اصل الحياة وتجددها ، حين رأى الزراع تلك الحبة التى بذرت ونبتت واخضرت وأتت ثمارها ، ثم زرعوا من تلك الثمار حبة أخرى فتكررت معجزة الحياة وادركوا أن الحياة تتجدد وتبعث على الدوام ولايدركها البلى أبدا وأن الروح الكامنة فى الحياة الخضراء النابتة من الارض لابد وأن تكون روحا الهية دعوها « أوزيريس » فى مصر ، وبأسماء اخرى شبيهة فى غرب آسيا (١)

فالدين مما فطرت عليه الطبيعة البشرية تلوذ به النفس من رهبة هذا الوجود ليضفى عليها الراحة والطمأنينة ، استوحاه البشر من خيالهم فى حياتهم القديمة وسكنوا الى ماستوحاه خيالهم القاصر ، والناس فى حاجتهم للدين ينشدون استقامة حياتهم ، وصلاح حالهم ، والانسان بما فضله الله بالعقل والتفكير يتطلع الى اليقين .

وكلما ارتبط يقين الانسان بعقله وفكره نعم بالايمان الخالص ، وكان ايمانه هدى يقينه لذلك كان الدين الدعامة الاولى فى بناء الحضارة الانسانية وتكوينها واستمرارها ليصوغ للانسان حياته ومعاملاته وسلوكه واخلاقه .

وماتباين العقائد وتعددها فى تصور الآلهة قبل أن يبعث الرسل داعين الى عبادة الله الواحد الأحد الا من قبيل العجز عن ادراك وحدة الخالق ، وقديما ادرك الفلاسفة والحكماء

---

١ - جيمس هنرى برستد وترجمة د . احمد فخرى . انتصار الحضارة ف ٢ ص ٩١ - ٩٥

وحدة الخالق ووحدة الوجود ولكنهم اخطأوا القياس ، وضلوا التصور ، فبينما كان الناس - كما يقول هنرى توماس - « يتحدثون عن الآلهة كما نتحدث نحن عن الملائكة تماما ، كان الأكثر حكمة يذكرون الله »

وقد آمن اخناتون وبقى اسمه « المكرس لله » بقوة سماوية واحدة تظل حانية على وجه الارض ، وتتمثل فى كل شىء من خلقه فى الانسان وفى النبات وفى الحيوان وفى الجماد ، وتصورها فى الشمس أو أن الشمس رمز لها ، فتوجه اليها بالدعاء ، ومن قبله كان بتاح حتب حاكم منف ووزير الملك ، اعتزل منصبه فى اخريات حياته وكرس نفسه لتعليم ابنه ورفاقه من الناشئة ، فهو الأب فى الارض ، وعليه : « أن يقلد الأب الحكيم المحب فى سمائه »

وفى « زند أفستا » أو « تفسير الحكمة » فى الزردا شتية، ديانة فارس قبل الاسلام ، أن « أهورامازدا » هو « رب الخليقة والحياة والمادة » وفيه تتجسم العدالة والألفة والأخوة الانسانية .. فالحياة فى نظر زرادشت ان هى « الا رحلة جريئة نقوم فيها بخدمة بعضنا بعضا » فان « أهورا مازدا يضم كل البشر فى حبه الشامل »

وفى فلسفة « بوذا » وتعنى كلمة بوذا فى اللغة السنسكريتية (المستنير) نراه حين طلق الحياة والترف فى كنف اسرته العريقة وهام فى الارض ناسكا ينشد المعرفة ، واتاه الالهام فى ظل شجرة من اشجار التين المقدس فى « بودجايا » بالهند وقيل تلقى (وحى الرسالة الكبرى ، رسالة التنوير) التى صاغ عليها مبادىء البوذية وقدر لها أن تنتشر خارج بلاده وفى فلسفة بوذا اتخذت تعاليم « الأوبانيشاد » طابعها العملى ، وضاعت فيها فكرة الألوهية فى تهويمات اللامتناهى فى « النرفانا » وفى عقيدة العودة والتناسخ كما صورتها النرفانا .

وكانت الكنفوشيه نظاما اخلاقيا اكثر منه دينيا يبشر بحكومة سامية وحكم عادل يجمع البشر جميعا على الحب والتآلف ، وعاش كنفوشيوس نفسه لاأدريا يرى أن العقل اعجز من أن يدرك كنه الحياة ولا يعرف ماوراء الظواهر المادية ، وكان يقول : عامل من تحكمهم كما تحب أن يعاملك من يحكمك ، فالانسان اما حاكم أو محكوم ، وعلى الانسان الاسمى أن يحتذى أربعة قواعد لحياته العلم الغزير ، والسلوك القويم ، وسماحة الخلق ، وقوة العزيمة ، وغدت الكنفوشية شريعة المجتمع الصينى فى الحكم والسياسة والعلاقات الاجتماعية ، وأخذت الصين تطورها فى حاضرها لتتفق مع روح العصر ونهج الحياة فى عالم أمحت فيه المسافات وتقوضت السدود واصبح لكنفوشيوس بعد موته من القداسة لدى الصينيين ماارتفع به الى مصاف الآلهة .

وكانت الفلسفة اليونانية آخر محاولات العقل البشرى لادراك كنه الوجود قبل أن تتصل السماء بالارض وتهل على الدنيا رسالة السماء ، ولكنها اتجهت الى البحث فى طبيعة الوجود دون طبيعة الخالق ، فتحدثت عن « خليقة حية بدون خالق حى » حتى جذبها - اكسونوفان - الى فلسفة الشرق والى فكرة العالم الواحد فى رعاية الاله الواحد ، فقال ان مرد الكون لله ، وبدأ الفكر اليونانى يسلم بالفكرة الشرقية عن التوحيد « الله واحد .

لابداية ولانهاية » فهو العقل الذى يهيمن على العالم والجسم الذى يكون العالم ، ويسخر من تصوير الله على صورة البشر ، وتبعه فيثاغورس فآمن « بالوحدة غير المرئية لله ، أما العالم المرئى فانه صورة شائهة لنور الله ، كما نراها فى سديم حواسنا المعتمة » وان مزج فكرته بالفلسفة الهندية عن تناسخ الأرواح ، وقال بخلود الروح وانتقالها من مخلوق الى آخر ، ومن حياة الى اخرى فى رحلتها الى السماء ، وكل المخلوقات الحية تمت لنا بصلة القرابة ، وعلينا أن نراها ونتكيف معها كلحمنا ودمائنا ، وقيل انه كان يعظ الحيوانات كما يعظ البشر سواء بسواء ، ثم كانت مدرسة سقراط فى الفلسفة وقيل انه انزل الفلسفة من السماء الى الارض ، واتجه باهتمامه الى عقل الانسان دون البحث فى اسرار الله .

وهكذا سبق البحث فى حقيقة الله وخلق الكون أديان السماء ، مما يدل على أن الانسان لايستغنى عن الدين ، فهو يدركه بوجدانه وان كان لايعرف كنهه مادام لم يهتد اليه ، ولم يهده اليه رسول أو نبى ، وكان قوله تعالى :

« وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا » الاسراء ١٥

ويبدو أن التفكير الدينى فيما عرف بمنطقة الشرق الادنى يمتد بجذوره الى رسالات سماوية ترجع الى زمن بعيد لم تشر اليها التوراة فى العهد القديم ولا الأناجيل فى العهد الجديد ، وان أشار اليها القرآن دون تفصيل ، فى قوله تعالى :

« ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ، وماكان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله .. » غافر ٧٨

وقوله تعالى : « وكم أرسلنا من نبى فى الأولين » الزخرف ٦

« ولقد ارسلنا من قبلك فى شيع الأولين » الحجر ١٠

« ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك .. » النساء ١٦٤

وقد يفسر هذا ماقيل من تماثل فى العبادات والروح الدينى فى ديانات الشرق الادنى قبل أن تبعث ديانات السماء ، وان تغيرت صور الأرباب أو الربات أو تغيرت اسماؤها « أشبه ماتكون - كما يقول ويلز - بتغيير الصور المرئية فى الحلم ، ولكن رؤيا الحالم تمضى مستمرة » وحين غزا الساميون - أو العرب كما يجرى المسمى الحديث بتعبير المؤرخ العراقى دكتور جواد على - ارض سومر وغلبوا السومريين عليها ، دانوا بعقيدتهم الدينية ، ولم يدخلوا عليها أى تعديل ، ولم يكن انسياح هذه الشعوب فيما بينها ترحالا أو غزوا ليغير من طبائعها أو عاداتها أو تقاليدها أو عباداتها ، وكثيرا ماكان الانصهار والامتزاج يتم دون عسر ، وتتحد اسماء الارباب فى مسمى واحد ، فتتحد الآلهة أو تتداخل وقبل أن يبشر ابراهيم عليه السلام بعبادة الله الواحد الأحد رب البر والخير والصلاح كان الارباب المحليون يختفون فى صورة اله واحد ، أقرب الى الفناء فيه منها الى الامتزاج أو التداخل ، حتى قيل ان عصر الفتوح العظيمة خلال الألف سنة السابقة على الميلاد ، كان عصر توحيد الآلهة فاذا كان التباين أبعد من أن يسمح بمثل هذا التداخل ، التمسوا له علة مقبولة كأن تتزوج الربة الأنثى من الرب الذكر ، أو أن يتمثل الرب الحيوان أو الرب النجم بشرا ، وكان تحول مصر الى دولة موحدة مثلا ، سببا فى توحيد اربابها ورباتها فى رب واحد وان تباينت رموزه وفضائله تبعا لما ترمز اليه من خير أو شر ، وان بقى جوهر

الديانة يقوم على البعث والخلود بصورة لم تتهيأ لأية ديانة أخرى غير الديانات السماوية ٠

فالتماثل بين ديانات الشرق القديم لابد وأن يوحى بانتمائها جميعا الى مصدر واحد ولا غرابة أن يكون هذا المصدر إلهيا بعث به رسول ، ثم زحفت عليه الاسطورة من بعد وغلفته بوثنيتها ، وحال دون انتشارها فى البداية أنها كانت لقوم بعينهم وفى منتجع لايعدو الترحال منه واليه حدودا معينة ، وقد كان ابراهيم عليه السلام أول رسول ونبى يجوب تلك الساحة من أور الكلدانيين الى حاران ، ومن حاران نزح بأمر الرب الى ارض كنعان ومعه ذخائره وعبيده وماشيته واختار مقامه من شكيم الى بلوطة ممرا حيث تقوم مدينة نابلس الآن ، ثم نقل من هناك الى الجبل شرقى بيت ايل ونصب خيمته وله بيت ايل من المغرب وعاى من المشرق ، ثم كانت مجاعة فارتحل الى مصر وحل بها زمنا ثم حتى آب عائدا الى حيث اقام خيمته بين بيت ايل وعاى ، وانتقل منها جنوبا واقام بين قادش وشور وتغرب فى جرار ، وشاء له الله أن يذهب بهاجر وابنها اسماعيل الى حيث اقاما فى البرية ، وتفجرت بئر زمزم ، وشب اسماعيل وكبر « وكان ينمو رامى قوس » حتى اقام مع ابيه قواعد البيت الحرام ٠

« ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » ال عمران ٩٦ وكان دعاء ابراهيم لذريته من اسماعيل :

« ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » ابراهيم ٣٧

ومن المرجح ، بل من الثابت أن ديانة ابراهيم عليه السلام قد سادت مكة وعمت بواديها ، وبقى البيت الحرام محجا للعرب وبقيت الكعبة محل اكبارهم وتقديسهم تجذب اليها العرب من كافة البوادى مما كان سببا فى حملة أبرهة ليصرفهم عنها الى بيته باليمن وقد اقامه وزينه وجلب له من « فاخر الاثاث ماخيل اليه معه أنه صارف العرب وصارف اهل مكة أنفسهم اليه ، ولكنه بقى عاطلا لايجذب حتى أهل اليمن اليه ، فلم يعد امامه الا أن يهدم البيت العتيق ، ولم ير عبد المطلب بن هاشم سيد مكة لقاءه فى حرب فان للبيت ربا يحميه ، وكان عام الفيل ، أرخ به أهل مكة وقدسه القرآن بذكره » ٠ (١)

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول »

الا أن الوثنية ومعالمها زحفت على أصحاب ديانة أبى الأنبياء فأشركوا مع الله آلهة أخرين ، ونسوا عبادة الله لعبادتهم أصنامهم ، وان بقى ذكر الله على ألسنتهم ، وكانت الاصنام زلفى اليه ٠

ولعل الوهن الذى يصيب العقل البشرى ، والعجز الذى يلم بالنفوس الضعيفة فيحول بينها وبين الاتصال بالوجود فى أسمى صوره لتدرك أن وراء هذا الكون العظيم قوة تعلو

---

١ ـ د ٠ هيكل ، محمد حسين ٠ حياة محمد الفصل الثانى

على كل مافيه وهى اصل وجوده ماثلة فى الله الواحد الاحد ، فتتوسل اليه بما هو دونه ، لتنحدر الى نوع من الشرك مازال يصفع عقول الناس حتى وقتنا هذا ، وهو مانراه الآن فى كثير من بلدان العالم المعاصر ، وكأن العقل البشرى لم يتغير (١)

وقد جاء الاسلام ختاما لرسالات السماء حين استوى العقل على ادراك وحدة الكون واتساق القانون الكونى الذى يحكمه ، فان الاله الواحد معناه قانون واحد ، ويقرر « همايون كبير » الفيلسوف والمفكر الاسلامى الهندى ، أن الاسلام ينكر التمييز بين ماهو طبيعى وماهو من خوارق الطبيعة .. فاذا كان هناك حد فاصل بين ماهو طبيعى وماهو من خوارق الطبيعة ، فان اتساق القانون الكونى يختل ، ومالم يكن خالق الكون ومنشئه من وراء هذا الحدث الخارق للطبيعة ، فانه يغدو خللا لايستقيم معه نظام الكون ، ان لم يكن وجوده الكلى ، ولكنه فى صورته تلك التى بدت فى معجزات الرسل والأنبياء قبيل مبعث نبى الاسلام ، كانت دلالة على قدرة الخالق الاعظم حين كان الناس لايؤمنون بغير مايفوق ادراكهم ، فلما تهيأ العقل لادراك حقيقة الوجود ، لم يعد هناك مجال للمعجزات والخوارق ، فان دلت على قدرة الخالق سبحانه وتعالى فانها خروج على سنته أو قانونه الكونى الذى يحكم كونه الفسيح ، وهو مايعبر عنه الفكر الأوربى بمصطلح « القانون الطبيعى » نسبة الى الطبيعة حين يجردون العلم من الايمان بالله .

« فالاسلام - كما يقول الامام الشيخ محمد عبده - فى الدعوة والمطالبة بالايمان بالله ووحدانيته لايعتمد على شىء سوى الدليل العقلى ، والفكر الانسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى (وهو مانسميه بالنظام الطبيعى) فلايدهشك بخارق العادة ، ولايغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولايخرس لسانك بقارعة سماوية ولايقطع حركة فكرك بصيحة الهية .. » (٢)

وكان القرآن - كما يقول الشيخ محمد مصطفى المراغى - فى التعريف بكتاب « حياة محمد » معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة ، وهى معجزة عقلية ، وما أبدع قول البوصيرى :

لم يمتحنا بما تعيا العقول به   حرصا علينا فلم نرتب ولم نلم (٣)

ويقول الشيخ رشيد رضا : « ان القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ونبوة غيره من الأنبياء وآياتهم بشهادته لايمكن فى عصرنا أثبات آية الا بها ، وان الخوارق الكونية شبهة عند علمائه لا حجة لأنها موجودة فى زماننا ككل زمن مضى ، وان المفتونين بها هم الخرافيون من جميع الملل ، وبينت سبب هذا الافتتان والفروق بين ما يدخل منها فى عموم السنن الكونية والروحية وغيرها »(٤)

---

١ - المصدر السابق : الفصل الاول .

٢ - الاسلام والنصرانية : ص ٤٨ ط ٨ دار المنار ١٣٧٣ هـ .

٣ - حياة محمد : تقديم ط ٢ ص ٥٢

٤ - المنار فى ٣ مايو ١٩٢٥ ص ٧٩٢

فلسفة الحضارة

قد يستوى لدينا القول اذا قلنا الحضارة والفلسفة ، أو الفلسفة والحضارة ، أو قلنا فلسفة الحضارة ، فانها جميعا تصب فى مجرى واحد قد يبدو للنظرة العابرة متقلبا لايستقر على قرار ولايهدأ له موج ، بينما هو فى الواقع ينتهى الى نتيجة واحدة ، هى ظاهرة التقدم والارتقاء ، وقد يغيب عن هذا الظاهر ، أو يختفى فى طياته ـ بمعنى أدق ـ جوهر التقدم وحقيقة الارتقاء ، وقد يغلب احدهما الآخر ، حتى ليبدو هذا الآخر وكأنه قد اختفى ، أو لاوجود له البتة ، وغالبا ماتكون الغلبة لهذا الظاهر المرئى اوالمحسوس ، فاذا كان ذلك فانه نذير بانحلال الحضارة وفنائها فى تلك البقعة أو المحيط الذى ازدهرت فيه ، وان كان لايعنى فناء الحضارة الانسانية ، فالحضارة الانسانية لاتفنى ولايصيبها الذبول أو الضمور ، فانها اذا ضمرت أو ذبلت فى مكان ما ، سيبقى ذلك العقل النير الذى يحمل شعلتها من مكان الى آخر .

واذا قلنا الحضارة الانسانية فاننا نعنى بها أقصى ماحققه مجتمع انسانى من التقدم والارتقاء فى منتجع ما فى عصر من العصور بحيث تتمثل فى حياته أرقى صور التقدم فى عصره ، فالمجتمعات الانسانية كانت ومازالت حتى وقتنا هذا تتفاوت فى درجات تقدمها وارتقائها ويقاس مستواها الحضارى ببعدها أو قربها من أرقى مستوى حضارى فى عصرها ، والى ذلك المنتجع الانسانى الذى حقق هذا الارتقاء والتقدم تنسب حضارة العصر ، فيقال حضارة الغرب الأوربى تلك التى نعيشها اليوم ، أو نعاصرها بمعنى أدق كأرقى مستوى لحضارة عصرنا هذا ، كما يقال حضارة مصر القديمة حيث بزغ فجر الضمير منذ سبعة الاف سنة دلالة على أرقى حضارة وأكثرها تقدما فى عصرها ذاك ، كما نقول حضارة الهند ، أو حضارة الصين ، أو حضارة الشرق الأدنى القديم ، ولانعنى بذلك تميزها بالتقدم على غيرها من حضارات عصرها ، وانما نعنى اما تميزها على غيرها من حضارات عصرها بطابع حضارى معين وثقافة خاصة ، واما استواؤها مع حضارة عصرها فى التقدم والارتقاء أو اقترابها منه الى حد كبير ، كما نقول اليوم حضارة الولايات المتحدة الامريكية وحضارة الاتحاد السوفييتى ، وحضارة اليابان ، أو فرنسا أو انجلترا ، أو المانيا وهى الدول التى نطلق عليها فى حضارتنا هذه : الدول المتقدمة ، كما نطلق على غيرها الدول النامية ، ونضع للتقدم مقاييس تتفاوت بين دولة وأخرى بقدر ما حققت كل منها من نمو يقترب بها أو ينأى عن المستوى الأعلى للتقدم والارتقاء .

وان كان من العبث أن نضع فواصل حادة بين حضارات عصر من العصور ، أو بينها وبين حضارات عصر آخر ، فالعقل البشرى يتشابه ويتفق فى تكوينه البيلوجى وقدراته التى ميزه بها الله على كافة خلقه :

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين » التين : ٤ ،٥
« وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » الأعراف : ١٨١

وغالبا ماتتشابه تلك القدرة العقلية التى ندعوها بالذكاء بين الناس عامة مع تفاوتها فى المستوى من فرد الى آخر ، وليس هناك كبير فرق فى هذه القدرة بين الزنجى ساكن الأدغال الافريقية والانجليزى ساكن الجزيرة البريطانية أو الامريكى ساكن نيوانجلند ، وتخلف الفكر ، وهو مايبدو تخلفا فى الذكاء ، ماهو الا تخلف فى اكتساب الخبرة والمعرفة ، والنمو ماهو الا اكتساب للخبرات القديمة واضافة جديد اليها ، والخبرة الانسانية بناء متكامل ينمى بعضها بعضا ، لتصنع التقدم ، والحضارة هى حصيلة هذه الخبرات المتكاملة ، ونتاجها الماثل فى التقدم ، ولو أننا جئنا بوليد امريكى ينتمى أبواه الى أرقى مستوى اجتماعى ، ويعيشون حياة حضارية متقدمة ، الى أسرة زنجية فى الأدغال لينشأ فى كنفها وأخذنا وليدها ليحل محل هذا الطفل الامريكى وينشأ فى اسرته ، لغدا هذا الزنجى حين يتقدم به السن امريكيا خالصا ، ولغدا بديله الامريكى افريقيا يختلف عن أقرانه السود فى شىء ما .

والخبرة الانسانية لاتنقطع ولاتذوى ، فمازال حتى فى أشد عصور الاظلام والانحلال الحضارى ذلك العقل المستنير الذى يحمل شعلة الحضارة من جيل الى جيل ، ومن مكان الى آخر ، فعندما ذوت حضارة مصر القديمة كان هناك من حمل شعلتها الى العقل اليونانى فنماها واقام على ماستوعبه منها بناء حضاريا يبدو جديدا ومتميزا ، الا أن جدته لم تكن الا فيما أضاف اليها من ابداعه ، وكان تميزها فيما أبدعت لاينتهى بها الى حدود فاصلة بينها وبين حضارة مصر القديمة ، وان لم تكن لها القدرة على تمثل كل ماكان لدى المصريين من خبرة ومعرفة ، فقد حجب المصريون بعض علومهم كالتحنيط ومايتبعه من تشريح الجسم البشرى ، والكيمياء والفلك عن العامة ، وعجز الاغريق عن الالمام بها ، وان كانوا قد تمثلوا ماأدركوه من معالمها فى الفن والعبادات مما ترك معالمه على فنونهم وعباداتهم بل وصور الهتهم فهاتور مصر هى افروديت عند الاغريق بل وهى سميراميس فى آشور ، وفينوس عند الرومان وعشتروت عند الفينيقيين ، وقد جاء هيرودوت - ابو التاريخ - الى مصر وألم بحضارتها وأساطيرها ، ليعود بها الى قومه الاغريق مثالا لفكر عظيم .

وحين ذوت حضارة روما واليونان تلقفها المسلمون فكانت صرحا عظيما فى بناء حضارتهم فى العصور الوسطى حين انتهت اليهم الحضارة الانسانية فأضافوا اليها وطوروها ، فلما بدأت اوربا يقظتها واخذت فى بناء نهضتها الحديثة كان لها من معارف المسلمين وعلومهم زادا لها ، بل استوعبت الفكر اليونانى فى البداية عن المسلمين ، ونمته جميعا لتقيم عليه بناء حضارتها الماثل كما نراه .

ولعلنا نرى فى وقتنا هذا من يسعى وراء صلة مابين حضارة مصر القديمة وحضارة الأزتك فى المكسيك قبل أن تطرقها إقدام الأوربيين وقد حاول « ثور هايردال » الرحالة والمؤرخ النرويجى أن يثبت برحلته التى قام بها عبر الاطلنطى على قارب من البردى عام ١٩٦٩ وصول المصريين القدماء الى امريكا ينم عن وجودهم مابين أثارهم وأثار الفراعنة من تشابه وسواء صح هذا أم لم يصح فان من ثوابت الاشياء أن النمو الحضارى للبشرية يسير فى خطى ثابتة نحو التقدم والارتقاء ، وان اختلفت وتباينت المجتمعات ،

فاذا خبت الحضارة فى مكان ، أضاءت فى مكان آخر واذا ذوت فى مجتمع زهت وازدهرت فى مجتمع آخر .

فاذا قسمنا الحضارة الى نوعيات ، وهوماأخذبه المؤرخ الالمانى « ازفلد شبنجلر .. حين جعل لكل نوعية طابعها الخاص المميز لاصلة لها بغيرها من النوعيات الأخرى ، وان جمع بينها التطور المادى لطبيعة الأشياء فهى اشبه بالكائن الحى يولد وينمو ليبلغ أشده حتى يدركه الهرم فالفناء ، تبدأ بالبداوة فالتنظيم السياسى ، ليضفى الاستقرار فاكتساب المعرفة التى تزدهر بأخانين تؤكد بها وجودها الأثرى من بعد » حين يدركها الوهن فالفناء ، ويحفل بها التاريخ أثرا لماض قد غبر .

ويمضى أرنولد توينبى على طريق شبنجلر فى تحديده لنوعيات الحضارة حين عدها احدى وعشرين نوعية بينما عدها شبنجلر سبع نوعيات ، ولايعنى تباين العدد اختلاف المنهج فقد سلك كلاهما سبيلا واحدا فى النظرة الى مولد الحضارة وتقدمها وازدهارها حتى تنتابها الشيخوخة التى يعقبها الفناء وان اتخذ توينبى من ابتكاره لعاملى التحدى والاستجابة اساسا لقدرة الحضارة على البقاء ، وقد نفترض للتحدى تعبيرا آخر هو الجمود ، فالحضارة حين تجمد عند واقع ثابت يعصف بها البوار الذى يسلمها الى الفناء ، كما يقابل الاستجابة ، لفظ المرونة أو بتعبير آخر قدرة المجتمع على التكيف مع الواقع العارض .

الا أن طابع هذه الحضارات يتباين من واحدة الى الاخرى ، فهى حضارات منعزلة لكل منها سماتها أو طابعها الخاص سواء لدى شبنجلر أو توينبى وان اختلفا فى عدد الوحدات أو المجتمعات الحضارية .

ولا أرى فيما ذهب اليه شبنجلر وتوينبى فى تقسيمهما النمطى للمجتمعات الحضارية الا نوعا من التجاوز العقلى للمعرفة التاريخية ، فاذا سلمنا جدلا بانعدام الصلة بين الانماط الحضارية التى راودت اخيلتهم ، فاننا لانسلم بانعدام التشابه ، لا لتشابه العقل البشرى والتفكير الانسانى فحسب ، ولكن لان الوعاء الذى نمت فيه الحضارات القديمة شأنها شأن الحضارات الحديثة يكاد يتشابه ، فالحضارات القديمة حضارات زراعية نشأت فى وديان الانهار ، أو حيث تغزر المياه وتخصب الارض ، وقد سادت هذه الحضارات أمدا طويلا يقارب آلاف السنين حين بدأ الانسان الاستقرار والاقامة بعد حياة التنقل والرعى ،

وكان تحولا جديدا فى حياة الانسان ، فقد أتاحت له حياة الاستقرار والفراغ الذى يعقب المواسم الزراعية فسحة من الوقت للتأمل والتفكير والابداع ، وليست الحضارة غير نتاج رائع للتفكير والابداع ، ولايكون التفكير ويخصب مالم تواتِ الانسان فرصة للتأمل ، ولاتواتيه هذه الفرصة مالم يتسن له وقت الفراغ الكافى لحركة العقل ، والعقل لايتحرك مالم يجد مايثيره ، والحياة الآلية اليومية المتكررة ، تغدو لديه حياة آلية لاتحرك حتى الوجدان فضلا عن العقل وسرعان ماتتحول هذه الحياة الآلية الى سلوك غريزى خال من التفكير ، فالتفكير وليد التأمل ولايكون التأمل مالم يخل الانسان من رهق الحياة واللغب الدائب سعيا وراء لقمة العيش .

وقد حث القرآن الكريم على النظر والتأمل واستجلاء اسرار الكون استجلاء لجلال الخالق وعظمة المخلوق .

« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ومآأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون » البقرة : ١٦٤

والآية :

« ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الورق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنابرقه يذهب بالابصار ، يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لأولى الابصار » النور : ٤٣،٤٤

ويخاطب القرآن العقل هديا للايمان ، ويورى السمع والبصر بالرؤيا والتذكر لايات الله فى خلقه وقدرته جل جلاله ، آية لقوم يتفكرون ، لقوم يذكرون ، لقوم يسمعون ، لقوم يعقلون ، لقوم يعلمون .

و « ان الذين لايؤمنون بآيات الله لايهديهم الله .. » النحل : ١٠٤ فاذا كان النظر والتأمل هدى العقل الى الايمان فهما هديه الى الرشاد ورشاد العقل فى معرفة محيطه لتهديه المعرفة الى ادراك ماخفى عليه ليطوره لصالحه ، فالتقدم العلمى الذى ذلل به الانسان الطبيعة لراحته ، ماهو الا نتاج الكشف عن القوانين التى تحكم الكون ، والتى يجرى التعبير عنها باسم « القانون الطبيعى » وهى قوانين ازلية لاندرك مداها ولن ندرك ابعادها مهما أوتينا من العلم :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ومآأوتيتم من العلم الا قليلا » الاسراء : ٨٥

ومازال العلم يكشف كل يوم عن جديد من قوانين الكون ، وكلما يجد منها يدير عقل الانسان بهرا واحساسا بالعجز امام قدرة الخالق الاعظم ، ولم يكشف العلم فيما حقق من تقدم هائل فى الوقت الحاضر مايمكن أن يكون نقيضا لما جاء فى القرآن ، بل انه ليزيد الانسان معرفة بما عجم على المسلمين من بعض آياته فى تفسيرهم لها .

وان كنت لا أحب أن استشهد بالعلم على صدق القرآن وانه كلام الله المنزل « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » فالعلم متغير والقرآن ثابت لايتغير ، وانما استطيع أن اتخذ من القرآن دليلا على جلال العلم اذ يفسر لى كيف ابدو ضئيلا فى هذا الكون الهائل الى عظمة الله جل جلاله وعظمة خلقه فى هذا الكون الهائل العريض فما الارض التى اعيش فوقها بصخبها وعجيجها وضجيجها الا ذرة فى محيط لاتدركه الابصار والله وحده الذى يدرك الابصار .

وقد استمرت هذه الحضارات الزراعية أمدا طويلا لايغير من اطارها العام غير المضمون الثقافى الذى تقوم عليه ، فالتباين بين حضارة وحضارة هو تباين فى الثقافة

التى تميز جماعة عن جماعة ، وتفصل بين مجتمع وأخر . وقد يؤدى التقارب الثقافى بين مجتمع وآخر الى نوع من التشابه يمكن أن يؤدى الى نوع من العلاقات الاجتماعية او التجاوب الفكرى ، وقد يؤدى الى قيام علاقات سياسية ، ولعل علاقة الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا أو المملكة المتحدة ـ كما أصبحت تعرف ـ خير مثال على ذلك .

وظلت الحضارات الزراعية قائمة حتى اخترع الانسان الآلة وبدا الانقلاب الصناعى ، ليبدأ دورة حضارية جديدة هى التى تحكم حضارتنا الحديثة ، فالحضارات لاتقوم الا حيث يتسق جهد الانسان ومقومات البيئة ، فالانسان الذكى الدءوب فى بيئة صالحة معطاء يستطيع أن يسخر عطاء البيئة لخيره ، فيذلل صعابها ويسلس قيادها لصالحه ففى وادى النيل ومابين الرافدين من ارض الجزيرة وفى حوض السند حيث قامت حضارات الدنيا القديمة كانت المياه من الوفرة والارض من السخاء ماجذب الانسان اليها ، وطابت له الحياة فيها ، فاذا واجهه النهر بفيضانه لم يفكر فى هجرتها او الرحيل عنها ، كما كان فى المجتمعات الرعوية ، بل عرف كيف يسوس النهر فيقيم الجسور والسدود ليتقى غائلته ، حتى كان من امر مينا مؤسس الاسرة المصرية الاولى فى تاريخ الفراعنة أن حول مجرى النيل لما رأه صالح الدولة الموحدة ، واذا واجه عائقا عرف كيف يقهره ، ويتغلب عليه ، يدفعه الحرص على البقاء ، كما يدفعه الحرص على الحياة ، فاذا قيل . مثلا ، ان مصر هبة النيل ، فانها فى الوقت ذاته هبة انسان ذكى طموح عرف كيف يسخر النيل لمنفعته وخيره ، وحبب اليه الاستقرار رزق يأتيه على ميعاد ، فما دام قد غرس فما عليه الا أن ينتظر الجناء على يقين من أنه سيأتيه ، وساس له أموره حكم مستقر فى حمى ملك مؤله .

فالبيئة المواتية لحياة الانسان أول مقوم للحضارة ، ولكن البيئة وحدها لاتكفى ، فلابد من انسان يعمرها ، ويستثمر خيراتها ، فاذا كانت البيئة الفتية الموهوبة هى المنتجع الصالح للحضارة وأول مقوماتها فان الانسان هو القوام الثانى الذى تتم على يديه عملية التفاعل الر ثمر للبناء والتعمير ، فالبيئة بغير الانسان الذكى الموهوب لاتثمر ولاتكشف عن مكنونها ، والافذاذ من الناس هم بناة الحضارة وهم عمدها ، الا أن الانسان مهما بلغ ذكاؤه ، فى بيئة مقفرة لاتملك اسباب الحياة والنمو يضمر ذكاؤه وتغيب مواهبه ، فلاينمو ولايتقدم ولايستطيع أن يقيم حضارة ، فبقدر ماتعطى البيئة يعطى الانسان ، وبقدر ماتشح وتضن عليه بقدر مايضنى بها ، وتفرغ حياته من كل مايثير نشاطه وطموحه وقدرته على البناء .

وهذان العاملان : البيئة المواتية والانسان الذكى الصامد المرن الطموح كانا اهم العوامل فى نشأة الحضارات الاولى فى وديان الانهار ، حيث تخصب الارض ويستقر الانسان ، الا أن استقرار الانسان لايجدى ولايثمر مالم يصاحبه مايعرف بالتماسك الاجتماعى . وهو ارتباط الجماعة بعضهم ببعض فى علاقات يعرف كل فرد فى الجماعة واجبه حيالها وواجبها حياله وبهذا ينشأ « الضمير الاجتماعى » وهو ادراك الفرد لذاته فى علاقته بالمجموع ، فاذا تكون الضمير الاجتماعى وهو ثمرة الاستقرار والتماسك الاجتماعى . كان ذلك ايذانا بانتقال الانسان من مرحلة الفطرة الى مرحلة الفهم والادراك . ومن المجتمع

الغريزى الى المجتمع المنظم الذى يشق طريقه الحضارى فى التاريخ بقدر مايفكر ويبدع ويبتكر ويعمل .

ومن الطبيعى أن يدرك المجتمع المنظم فى حالة قيامه حاجته الى النظام الذى يصون التعاون بين افراد الجماعة ويؤكده ، فينشد السلطة المنفذة للنظام أو قانون الجماعة ، وتقوم الحكومة التى تسوس الناس وتقيم القانون وترعاه وتحميه ، ويمثل القانون فى العادة حاجة الناس الى النظام ، وليس القانون فى البداية الا جملة القواعد التى ارتضتها الجماعة لتنظيم حياتها ، وهو فى العادة حصيلة القيم والتقاليد والقواعد التى تنظم سلوك الفرد وسلوك الجماعة وترمى الى بقائها واستمرارها ، اذ أن أية جماعة تفتقد النظام وتفتقد التماسك الاجتماعى سرعان ماتتفكك وتنحل وتفنى ، وقدرة المجتمع المنظم على الاستمرار هى التى تؤكد دوره الحضارى ، كما تؤكد قدرته على النمو والتقدم وفى رحابهما تنشأ الحضارة

الحضارة والثقافة

مامن كلمة اختلف فيها المعنى والتفسير منذ اواسط القرن التاسع عشر حتى وقتنا هذا ، كما اختلف حول كلمتى الحضارة والثقافة حتى أن « الفرد لويس كروبر » (١٨٧٦ - ١٩٦٥) عالم الأنثروبولوجيا الامريكى ، قد جمع للحضارة مائة وستين تعريفا ، مع أن الكلمة قد جرت على الالسنة منذ قرون خلت ، وجاءت على لسان العرب بمعنى الانتقال من البادية الى الحضر ، وهو مايعنى عند « توينبى » الانتقال من القرية الى المدينة ولايختلف المعنى فى الحالين ، فاذا قيل متحضر ، فانها تعنى بالتالى متمدن ، وهى الكلمة التى اختارها « جورجى زيدان » عنونا لكتابه « تاريخ التمدن الاسلامى » (١)

وفى المعجم الوسيط للمجمع اللغوى - وهو آخر ماظهر من معاجم اللغة العربية - لايختلف تعريفه للحضارة عما ذهب اليه توينبى ، وابن خلدون من قبل ، فيقول : انها « تعنى الاقامة فى الحضر ، حيث يقيم رجال الحكم ، وتتفق فى المعنى مع كلمة « مدنية » اذ تعنى "الحضارة واتساع العمران » فاذا قلنا « تمدن » فاننا نعنى انه يعيش حياة اهل المدن ، ويأخذ بأسباب الحضارة ولانرى فيما ذهب اليه ابن خلدون منذ ستة قرون أو تزيد وماقاله توينبى اخيرا أى خلاف ، بل ان تقسيمهما لمناطق الحضارات التاريخية يتقارب

الى حد بعيد كما يتفقان فى أن الحضارة نتيجة التفاعل بين الانسان والبيئة ، وهو ماعناه ابن خلدون بقوله : « الانسان مدنى بالطبع ، أى لابد له من الاجتماع الذى هو المدنية فى اصطلاحهم ، وهو معنى العمران ، وحين يعرض للفرق بين البدو والحضر ، ويقول : ان البدو اقدم من الحضر ، لايعنى سبقهم الى الحضارة بل يعنى وجودهم التاريخى ، فالبدو لم يقيموا حضارة ، فالحضارة لاتنشأ الا حيث يتسنى للانسان الاقامة والاستقرار - كما سبق القول - وهو مادعوناه « الوعاء الحضارى »

١ - جورجى زيدان منشىء دار الهلال التى مازالت قائمة الى يومنا هذا من اكبر دور النشر والصحافة . وقد حفل بكتابة قصص التاريخ الاسلامى كما حفل بتاريخ الادب العربى .

ولعل ماذهب اليه « الفرد لويس كروبر » فى تعدد تعريفاته للحضارة ، هو ماجرى عليه من قياس انثروبولوجى من تباين وتعدد فى نشاة المجتمعات الانسانية ، وان بقى المعنى الذى جرى عليه ابن خلدون منذ البداية . وارنولد توينبى اخيرا قائما حتى ظهرت كلمة بجانب كلمة واختل التوازن بينهما فى الثقافتين الغربية والشرقية على السواء ، وان كان مرد الخلل الى الثقافة الغربية قبل ان نرده الى الثقافة الشرقية .

فاذا كانت الحضارة كما عرفها الاقدمون ، وجرت على لسان العرب تعنى حياة الحضر انتقالا من البادية ، أو تعنى حياة المدنية انتقالا من القرية ، وبقيت جزءا من التاريخ العام ، او احدى ظواهره التى يكتمل بها اطاره التاريخى فقد اخذت تنفصل عنه وتغدو ولها كيانها الخاص المستقل ، بل وتبدو احيانا وكانها تسوده وتغلب عليه ، وتجره فى اذيالها ليصبح أداة من أدواتها ، حين تحول الاهتمام من التاريخ ورواية الوقائع والاحداث الى ماصبح يسمى « فلسفة التاريخ » فاقتحمت بالتاريخ ميدان الفكر ، وغدت تفسيرا له ، وغدت الواقعة التاريخية أداة للوصول الى الحقيقة التى تكمن وراء الواقعة وتسوقها وتسفر عن نتائجها واثارها فى مسيرة البشرية عامة ، وغدت هى الغاية من دراسة التاريخ ، والواقعة اداء لتبين هذه الغاية ، فالواقعة لاتعنى غير حدث جرى ، اذا وقفنا عندها فانها فى الاعم الاغلب لاتعنى شيئا ، مالم تعرف الحقيقة التى تكمن وراءها ، والتى دفعت اليها والواقعة التاريخية هى التى تحمل وراءها حقيقة دفعتها هى مانسميه « الاثر التاريخى » فليس لعبورقيصر لنهر الروبيكون فى ذاته ، اهمية تذكر ، فكم من الناس من يعبرونه كل يوم ، ولكن عبور قيصر ، كان لغاية هى التى افرزت اهميته التاريخية ، حين تم له مايبغيه من فرض سلطاته على روما ، وهى ماندعوه « الاثر التاريخى »

وقاد البحث وراء الحقيقة من دراسة التاريخ الى ظهور « فلسفة التاريخ » وبقدر مايحفل التاريخ بالاحداث والوقائع التاريخية بقدر ماتحفل فلسفة التاريخ بالافكار التى تفسر الوقائع وتبرز معالمها ودوافعها ومايدور حولها ، وقد تصل بها الى ابعد امادها ، حين يغوص فيلسوف التاريخ فى مجراه ليتبين معالمه ومسراه ، فالحاضر صورة من الماضى ، وهو امتداده ، وان كان له اطاره الخاص الذى يتأثر بطبيعة عصره ، فاذا قلنا « لاجديد فى التاريخ » فاننا لانعنى أن الحاضر صورة للماضى ، وانما هو امتداد له ، وهو امتداد تام ، أشبه مايكون بالكائن الحى يشب منذ يتمخض عنه رحم الأم ، ويكبر ، وكلما تقدم به الزمن يبدو وكانه قد اتخذ قواما جديدا ولكن هذا القوام الجديد ، اذا تاملناه ، نرى فيه ملامح طفولته فى عاداته وتقاليده وماشب عليه لا فى نموه وامتداد قامته ولكن فى افكاره وخلجات نفسه ومكنون عقله ، وان تباينت بين انسان واخر تباين مابينهما بدءا من عوامل الوراثة الى تأثير البيئة والنشاة فقيرة أو غنية ، فضلا عن تاثير التربية والتعليم ، وأخيرا الذكاء والفرص المتاحة فى البيئة بما هى عليه من تقدم ونمو أو تخلف وجمود .

وتدور فلسفة التاريخ فى الواقع حول معالم الحضارة وان قصد بها « فولتير ـ (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) ـ كما يرى كولنجوود ـ نوعا من التفكير التاريخى يتقيد فيه المؤرخ بمقاييسه

الخاصة بدلا من الاعتماد على ماجاء فى الكتب القديمة ، وفى اواخر القرن الثامن عشر استعمل هيجل وغيره من الكتاب هذه العبارة نفسها ، ولكنهم قصدوا بها معنى آخر هو التاريخ العام أو تاريخ العالم ، ثم استعملت هذه العبارة فى معنى ثالث على لسان كثير من الفلاسفة الوضعيين فى القرن التاسع عشر الذين رأوا أن فلسفة التاريخ تستهدف الكشف عن قوانين عامة تنتظم سياق الحوادث التى تتبعها التاريخ » (١)

ويذهب كولنجوود مذهبا آخر ـ كما يقول ـ فى فهمه لمدلول كلمة « فلسفة بيانا لما اعنى من عبارة فلسفة التاريخ » ويراها تحليلا « لعمليات الفكر » أى أنها فلسفة كاملة تستند الى وجهة نظر تاريخية ـ يتناول طبيعة التاريخ بوصفه لونا خاصا من الوان المعرفة » (٢)

وان حفل القرن التاسع عشر بكتابات عديدة عن فلسفة الحضارة ، فقد بقى رأى فولتير عن فحوى الحضارة وانها صورة للاستنارة العقلية قائما ، يدين به فى انجلترا « توماس هنرى بكل » (١٨٢١ ـ ١٨٦٢) كما يسفر عنه كتابه « تاريخ الحضارة فى انجلترا » (١٨٦١)

وقد سبق « فيكو جون باتيستا (١٦٦٨ ـ ١٧٤٤) فولتير بسنوات قلائل وتصدى للفلسفة الديكارتية وعابها وحمل عليها ، فاذا كان ديكارت قد بدأ بالشك ، فان هذا الشك لايصمد امام الواقع التاريخى الماثل فى حياتنا ومن حولنا ، فالتاريخ كما يراه فيكو « ضرب من ضروب المعرفة التى يمكن تبريرها وفقا لأسس فلسفية ، تقوم على منهاج واضح للبحث التاريخى .

ولم يتسن لفيكو رغم ماكان له من ريادة فى الحملة على الشك الديكارتى أن يترك من الأثر ماتركه فولتير من معالم على فلسفة التاريخ ، فقد ظفر فولتير ومعاصره هيوم ـ داڤيد هيوم ـ (١٧١١ ـ ١٧٧٢) باقتحام عصر الاستنارة التى تعلى من الثقافة الدنيوية وتطبيقها على كل ماتقوم عليه حياتنا فى كل جانب من جوانبها الفكرية والمادية ، ونسب الى ڤولتير نفسه انه « قاد حملة تستهدف القضاء على المسيحية ، فقاتل تحت شعار « امحق الباطل ـ والباطل كما يقصده فى هذه العبارة ، ضروب الشعوذة ، وأن الدين يعتبر ـ دالة ـ على كل ماهو رجعى بربرى فى الحياة الانسانية »

وتكتمل فلسفة التاريخ على يد « هيجل ـ جورج ڤلهلم فريدرك هيجل » (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) وان سبقه « هردر (١٧٤٤ ـ ١٨٠٣) فى « أفكار فى فلسفة التاريخ الانسانى » (١٧٨٤) الا أن هيجل قد اضفى على منهاج هردر حيوية وقدرة ووضوحا ففى نظرته للتاريخ فى كتابه الذى صدر بعد وفاته « محاضرات فى فلسفة التاريخ » نرى أنه ـ كما يقول ولسن ـ قد جمع بين كافة الآراء التى خطرت لمن سبقوه وعبر عنها على احسن صورة من العاطفة والتصور عند هردر والدقة العقلية التى يؤكدها كانت .

١ ـ ر . ج . كولنجوود . وترجمة محمد بكير خليل : مقدمة ص ٣٠ .

٢ ـ المصدر السابق : ص ٣٩

وأيا ماكان النقد الذى وجه الى هيجل حين اتخذ من التاريخ السياسى أساسا لنظرته الفلسفية للتاريخ ، فى حين أنها يجب أن تشمل وتتسق مع كل جوانب الحياة الاقتصادية والدينية والفلسفية والفنية .

ومهما يكن من تباين الرؤيا لدى الأوربيين نحو فلسفة التاريخ الا أنها أخذت على اختلاف مسالكها واتجاهاتها تطرق بآراء شتى حياة الشعوب وتطورها والقوى الكامنة التى تدفعها نحو التقدم أو الانهيار وماهو نصيب الشعب أو الانسان فى البيئة فيما كان من ارتقاء أو انهيار ، وهو ماسبق فيه ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) كل فلاسفة الغرب ومؤرخيه ، بشهادة مفكرى الغرب انفسهم قبل أن يلتفت اليه مفكرو العرب وكتابهم - كما اشرنا من قبل - وان لم ترد فيما كتب كلمة (ثقافة) وان ذكر مقوماتها فيما كتبه (فى العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه ، وأن العلم والتعليم طبيعى فى العمران البشرى ، وان العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة) (١) ويرى « دى بوير » الهولندى أن ابن خلدون « قد حاول أن يؤسس نظاما فلسفيا جديدا لم يجل بذهن أرسطو ، وأن يجعل من التاريخ نظاما فلسفيا وهو يقول لنا ان هذا النظام انما هو الحياة الاجتماعية ومادة المجتمع كلها وثقافته الفكرية .. وهو بلا ريب اول من حاول أن يشرح بافاضة تطور المجتمع وتقدمه لاسباب وعلل معينة ، وان يعرض ظروف الجنس والاقليم ووسائل الانتاج وما اليها » « ٢ » .

ولم يلق مفكر اسلامى مالقيه ابن خلدون من حفاوة الغرب فهو الرائد والسابق لما خاض فيه الفكر الاوربى من بعد ، وهو « بحق - كما يرى فون كريمر - امام لمدرستى مكيافللى وفيكو .. وان نظريات ابن خلدون تقدم الى المتأمل فرصة صادقة ، يقف مؤرخ الحضارة المسلم الكبير وحيدا فى المشرق لم يعقبه خلف ، ولم ينسج على منواله ناسج »

ولم يكن الفكر الغربى بقادر على معرفة ابن خلدون وابداعه الفكرى من قبل أن يبدع هو الآخر نظرياته فى علوم الانسان ، والعلوم الاجتماعية فى القرن التاسع عشر ، ولولا اكتشاف العقل الاوربى لتلك العلوم الحديثة لما عرف ابن خلدون ، فقد جاءت معرفته بعلوم الانسان والعلوم الاجتماعية وفلسفة التاريخ متأخرة وان كان قد ألم بكتابات كثير من المؤرخين العرب من قبل « كالمسعودى » و « أبو الفدا » و « ابن خلكان » و « ابن عربشاه » ترجمت اثارهم الى اللاتينية وكانت كغيرها من علوم العرب زادا للنهضة الاوربية ، قبل أن تعرف اوربا ابن خلدون بآماد طويلة ، فلما استقام المنهج العلمى لعلوم الانسان والعلوم الاجتماعية لدى المفكرين الاوربيين ، ادركوا أن مفكرا اسلاميا قد سبقهم الى هذا الميدان ، وكان أن اكتشف مفكرو الغرب ابن خلدون قبل أن يعرفه العرب مفكرا ورائدا لفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، ولم يأت أى منهم بجديد اكثر مما جاء به ابن خلدون من قبل بنيف وخمسة قرون ، وهو مايعترف به توينبى ويشير اليه فى المجلد الثالث من موسوعته « دراسة التاريخ » عن نمو الحضارات ، بقوله « ابن خلدون عبقرية

---

١ - المقدمة . الفصل السادس من الكتاب الأول ص ٣٦٠ - ٣٦٦ .

٢ - محمد عبد الله عنان : ابن خلدون : حياته وتراثه الفكرى .

عربية اتيح لها فى فترة هدوء لاتجاوز اربعة اعوام أن تبدع (مأثرة الحياة) فى صورة من الادب الرائع لاتقل ابداعا عما قام به « يثوديد » أو قدمه « مكيا ڤيللى » عمقا وسعة افق ، فضلا عن القدرة العقلية الخالصة ، بل أن ابن خلدون ليبدو اكثر تألقا ولمعانا اذا ماقيس بكثافة الظلام الذى خيم فى عصره ، فبينما نجد « يثوديد » و « مكيا ڤيللى » و « كلارندن » قمما سامقة فى عصور سامقة ، نجد « ابن خلدون - وحده هو الضوء المشع فى عالم يكتنفه الظلام ، وغدا العلم الخفاق فى حضارة منعزلة متهاوية ، لم يستوح احدا من قبل ، ولم يكن له قرن بين معاصريه ، ومضى دون أن يورى شرارة الالهام فيمن جاءوا بعده ، مع أنه فى مقدمة تاريخه العام قد استوحى وصاغ فلسفة للتاريخ ، هى دون ريب اعظم عمل استوحاه وابدعه عقل من العقول فى أى عصر وفى أى مكان »

ولا يقف هذا التقدير لابن خلدون كفيلسوف للتاريخ على توينبى ، بل ان مؤرخا يبرز بمؤلفه عن « تاريخ فلسفة التاريخ » هو « روبرت فلنث » يقول عنه « ان الفكر الغربى ازدان باسم لامع غاية اللمعان ، وليس له ضريب فيما يزدهى به ، لافى العصر المدرسى ولا فى العصر الوسيط المسيحى ، فما كان ابن خلدون من مؤرخى الغرب وفيهم من يفوقه ، ولكنه مبدع نظرية فى التاريخ لم يفقه ولم يتقدم عليه احد فيها حتى ظهر « ڤيكو » بعده باكثر من ثلاثمائة عام ، وحتى افلاطون ، وارسطو ، وسان اوجستين ، لا يقفون معه على قدم المساواة ، ولا يمكن أن يكونوا اندادا له ، ومامن احد غيرهم يمكن أن يكون جديرا بوضع اسمه مع اسم ابن خلدون ، فانه على القمة من التقدير والاعجاب لأصالته وفطنته ، وسعة ادراكه لفلسفة التاريخ ، كما كان « دانتى » فى الشعر ، و « روجر بيكون » بين العلماء فاذا كان مؤرخو العرب قد جمعوا المواد التى افاد منها ، فانه هو وحده الذى عرف كيف ينتفع بها »

ويقرر « خوسيه اورتيجا » الكاتب والفيلسوف الاسبانى أن « مقدمة ابن خلدون هى من حيث الزمن اول كتاب يؤلف فى فلسفة التاريخ ، وماكان لغيره أن يحتل هذه المكانة غير سان اوجستين ، لولا أنه حفل بالتاريخ اللاهوتى اكثر مما حفل بالتاريخ .. أما ابن خلدون فعقلية باهرة تشع بالنور ، وان نور عقله ليهتك الستر عن كل غموض ، فيغوص فى باطن الاشياء .. وكأن المقدمة التى كتبها قد خطتها يد مهندس بارع وماكتبه فى فلسفة التاريخ الا بداية علم الاجتماع فى نفس الوقت » (١)

وحين ذكر قادة الفكر الاوربى وفلاسفته ابن خلدون ، كانت اوربا قد تناست تماما فضل الحضارة العربية والفكر الاسلامى على النهضة الاوربية ، ولم تعد تذكر غير العداء الحاد والتعصب المقيت الذى اثارته البابوية ضد الكفار المسلمين ، واليهود ، بل ومسيحيى الشرق من اتباع الكنيسة الارثوذكسية فلم يترك الصليبيون فى نزولهم على بيت المقدس غاضبين عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م) يحدوهم تعصب مقيت وحقد جارف حتى ضد المسيحيين الأرثوذكس ، أما المسلمون واليهود فقد احرقت عليهم مساجدهم وبيعهم ، فكانوا يسوقون اليهود الى معابدهم ويغلقونها عليهم ويشعلون فيها النيران - على حد قول مسيو ميشو - وكتبوا الى البابا يقولون : « انه فى معبد سليمان ومحرابه كانت خيولنا تخوض فى بحر من دماء الشرقيين حتى الركب

---

١ - من مقال « خوسيه اورتيجا » نشره عام ١٩٢٤ وترجمه استاذنا المؤرخ الكبير محمد عبد الله عنان .

وبدأت هذه الحروب الغادرة المتعصبة فى وقت كانت عرى الدولة الاسلامية تتمزق وتتهاوى ، وان بقيت حضارتها سامقة وبقى تراثها الفكرى لايطاوله علم أو فكر آخر ، بل ان اوربا كانت فى تلك الآونة تخوض فى مستنقع من الجهل والخرافة ، والتقى العلم والجهل على ارض العرب ، وجاء الجهل مزودا فلم يجد امامه من يتصدى حتى بمقلاع ، وكان لقاء عسيرا يصفه المؤرخ الانجليزى « هيرنشو » بقوله : (١)

« خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، فاذا هم جلوس عند اقدامهم يأخذون عنهم العلم والمعرفة ، لقد بهت اشباه الهمج من مقاتلة الصليبيين عندما رأوا (الكفار) الذين كانوا ينكرون من الناحية اللاهوتية ديانتهم ، على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحانا لاتصح معه المقارنة بينهما .. ان أثر هذه الثقافة العربية انتقل الى اوربا النصرانية عن طريق مدارس الاندلس وجنوب ايطاليا فكان من العوامل القوية فى انتهاء العصور الوسطى وانشاق فجر العصور الحديثة »

وكما هى العادة ــ كما يقول ابن خلدون (٢) : «فان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر ، والسبب فى ذلك أن اهل الحضر القوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا فى النعيم والترف ، ووكلوا امرهم فى المدافعة عن اموالهم وانفسهم الى واليهم .. واستناموا الى الاسوار التى تحوطهم »

وهكذا كان حال المسلمين والعرب حين استناموا الى غيرهم فى الدفاع عنهم ، فوهن أمرهم وعجزوا عن الدفاع عن أرضهم وبلادهم ، وغلبهم هؤلاء الهمج من أهل البداوة الأوربية .

واذا كان المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر احواله وعوائده ـ كما يقول ابن خلدون ايضا ـ فاننا نرى وندرك علة انسياق المسلمين الى تقليد ومحاكاة هؤلاء الغازين القادمين من الغرب ، ففى الوقت الذى اخذ هؤلاء الغازون مابهرهم من علوم العرب والمسلمين دون محاكاتهم فى زى أو شعار ، نجد المسلمين يحاكونهم فى زيهم وشعاراتهم وعاداتهم ، بل وفيما يلمون به من معارف سطحية ـ كانكار كروية الارض ، وهو ماأثبته المسلمون ، ونقل عنهم ، فوهن عقلهم عن النظر والتأمل والرؤيا الصادقة ، فانحدروا الى جهالة من جاءوا اليهم ، وارتقى من جاءوا اليهم الى علمهم وآلت اليهم حضارة العالم الحديث ، واصبحوا سادته واصحاب الامر فيه ، حتى كان من أقطاب المسلمين فى الوقت الحاضر من ينكر كروية الارض فى الوقت الذى جاء فيه ابن خلدون فى مقدمته على ماكشف عنه علماء المسلمين من صورة الافلاك ومسارها ، كما عرفوا كيف نشأت القارات وتكونت وكيف انبثقت من لجة المياه التى تغمر الكرة الارضية قبل أن تقذف بها الى ظاهرها ، فيقول فى المقدمة :

الثقافة وروح العصر

وتجرى كلمة « ثقافة » فى اللغة العربية فى الوقت الحاضر بما لم يتطرق اليه معناها فى العربية من قبل ، فلم تكن تعنى غير الحذق والفطانة ، فيقال :

١ ـ ترجم استاذنا عبد الحميد العبادى كتاب هيرنشو « علم التاريخ » الى العربية وعنه نقلنا هذه العبارة

٢ ـ المقدمة : الفصل الخامس ، ص ١٠٥ ط ١٩٣٠ المطبعة الأزهرية .

ثقف ، وثقف ، وتقفا ، وثقافة ، أى صار حاذقا خفيفا ، وثقفه ثقفا ، غلبه فى الحذق ، وثقفه بالرمح ، أى طعنه ، وثقف الرمح ، قومه وسواه ، وثقف الولد ، هذبه وعلمه .

وفى القرآن : « واقتلوهم حيث ثقفتموهم » أى حيث وجدتموهم ، البقرة : ١٥٩ ، وفى سورة الانفال (٧) « فاما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم » أى تدرك وتصادف فى الحرب ظافرا بهم فنكل بهم تنكيلا يسوؤهم ، وفى سورة الممتحنة (٢) « ان يثقفوكم يكونوا لكم اعداء » أى ان بلغوكم وتمكنوا منكم تظهر لكم عداوتهم (١)

وهو مايعنى أن الكلمة بنطقها قد وردت بمعان كثيرة ليس منها مايفيد المعنى الجارى اليوم ، وقد نرى فى كلمة (أدب) و (مؤدب) ماتعنيه كلمة (ثقافة) بمعناها العصرى ، ومنه التقويم والتعليم والهداية واكتساب المعرفة ، ويقال (المؤدب) بمعنى المعلم ، وفيما يروى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قوله : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) .

ولم يكن هذا الخلط والابهام فى كلمة « ثقافة » وقفا على اللغة العربية وحدها ، بل تجاوزه الى اللغات الاوربية واقتحمت « الأنثروبولوجيا » أو « علم الانسان » الميدان فشملت الظواهر الاجتماعية لجماعة من الجماعات بداية من السلوك والقيم الى نظم الحياة ومدلولات العقل ، ومهارات اليد .

الا أن فلسفة التاريخ فى الواقع كانت قد سبقت الأنثروبولوجيا ولانحب أن نعود بالفكر التاريخى الى ماكان عليه عند الاغريق أو الرومان حين طرقه هيرودوت (٤٨٤ - ٤٢٥ ؟ ق . م) وقيل انه ابدع فلسفة للتاريخ وان كانت بدائية ، أو عندما تصدى له الكاهن المصرى « مانيتون (ق ٣ ق . م) وقد عاصر بطليموس الاول والثانى ، فكتب تاريخا لمصر باللغة اليونانية اعتمد فى كتابته على المدونات المصرية القديمة وقسم فيه الاسرات التى حكمت مصر الى ثلاثين اسرة احتذاها المؤرخون من بعده ، ومن معاصريه الكاهن البابلى « بيروسس » فى سورية خلال حكم « انتيوكس الثانى » وكتب هو الآخر تاريخ بابل باللغة اليونانية اعتمد فيه - ما نيتون - على المصادر البابلية القديمة ، وقد عرض لقصة الطوفان ومادونته النقوش المسمارية عنها ، بما لايختلف كثيرا عما جاء فى اسفار العبرانيين ، وقد سبق تدوينها كل ماكتب من قبل من اسفار التاريخ ، باستثناء ماكان من مدونات المصريين على أوراق البردى أو على جدران المعابد والقبور ، ففى القرن التاسع قبل الميلاد جمعت اسفار موسى الخمسة ، واسفار يشوع وصموئيل وفى القرن السادس قبل الميلاد ظهر سفر الملوك الأول وسفر الملوك الثانى ، وهى التى يتكون منها أجزاء العهد القديم الاولى ، وان كانت هذه الاسفار لاتعدو كونها قصصا تاريخيا ، وليست تاريخا بالمعنى الدارج للتاريخ الا أنها تركت بترعتها الدينية آثارا بعيدة المدى ولمدة ألف عام تالية فى علم التاريخ حين آل أمره الى القساوسة والرهبان بعد انتصار المسيحية على الوثنية الرومانية ، وغدا مسخرا للاهوت لايحفل بالحقيقة التاريخية قدر ماحفل بالموعظة والدعوة الى الزهد واخبار الخوارق والكرامات ، مما كان له ابعد الأثر فى مناهج البحث التاريخى .

---

١ - المنتخب فى تفسير القران الكريم اصدار المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

ولم يكن للانثروبولوجيا هذا الأثر الموهوم على فلسفة التاريخ كما يرى البعض او على مدلول الثقافة ، فما كان هذا المدلول وليد العصر الحديث أو صورة جديدة لجانب من جوانب البحث التاريخى ، أو حتى الصورة المجردة للتدوين التاريخى ، وان ظهر فى صور أخرى من الاحاديث والكتابات التى تغدو زادا للمؤرخ أو مصدرا من مصادر التاريخ كخطب شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق . م) فى السناتو حين حمل على مؤامرة كاتلين لقلب نظام الحكم فى روما ، وخطبه ضد انطونيوس ، ومن أمثالها فى التاريخ الاسلامى « رسائل الحاكم بأمر الله » الخليفة الفاطمى وكتبها كثير من دعاة الفاطميين سنة ٤٠٨ هـ ، ومن قبيل ذلك اشعار المتنبى حين يعرض للاحداث التاريخية وقصيدة ابن الرومى فى وصف البصرة حين احتلها صاحب الزنج وخرب معالمها ، وماكان من دراسة للبيئة ، غدت من قبيل الكتابات الادبية ولكنها فى الواقع تاريخ لمعالم الثقافة أو الحضارة التى خاض فيها المحدثون فى الغرب ففى كتاب القاضى محمد بن اسحاق الصيمرى (المتوفى سنة ٢٧٥ هـ) المسمى « مساوىء العوام واخبار السفلة والاغتام » دراسة لثقافة بعض سواد الناس ، كما نرى فى وصف الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) لحياة المدن ، وتعد كتبه مصدرا اثيرا من مصادر التاريخ الحضارى أو الثقافى لعصره والامثلة من هذا القبيل عديدة ومتنوعة ، اقربها الى عصرنا ماكان من مؤلفات احمد تيمور (١٨٧١ - ١٩٣٠) التى عرض فيها لبعض معالم الحياة المصرية كاللغة العامية والامثال الشعبية السائدة وماكان من آثار الشاعر احمد زكى ابو شادى القاملية فى شتى المناحى العلمية والادبية والفكرية مما نستطيع أن نلمح من خلالها صورة لحياة جيله العقلية والفنية والعلمية وهى جميعا صورة اثيرة لبعض مجالى ثقافة عصره .

وأياما كان المعنى الذى ذهب اليه فلاسفة التاريخ فى تفسيرهم ، فانهم لم يضعوا حدا فاصلا فيما ذهبوا اليه جميعا بين الجانب المادى والجانب الفكرى للحضارة ، بل أننا نرى فى الاغلب أن الجانب الفكرى للتقدم الحضارى قد نأى بهم عن الواقعة التاريخية الى ماوراء الواقعة من حقيقة تفسر مدلولها ومسيرتها وفحواها « والفلسفة - كما يرى كولنجوود - لاتنفصل بين دراسة (عملية المعرفة) وبين الشىء المادى الذى يكشف عن حقيقة (المعرفة) -- ولو سلمنا بوجود فلسفة للتاريخ ، فلابد وأن تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بالدراسات الفلسفية الاخرى لا يقل عن الارتباط بين المنطق والاخلاق »

فاذا كان من العسير - كما رأينا - أن نفصل بين الحضارة والثقافة ، ومازلنا نخلط بينهما ، فان هذا الخلط لم تعرفه المجتمعات القديمة التى تضفى عليها صفة التحضر ، فالحضارة بعيدا عن هذا الخلط الذى اقرته المدرسة الالمانية باختيارها اللفظى للكلمة ، خلافا لما جرت عليه المدرستان الانجليزية والفرنسية ، هى الكلمة السائدة التى توصف بها صورة التقدم والارتقاء .

والخلاصة ان الثقافة والحضارة لفظان يدلان على معنى واحد ، والثقافة - كما يقول توينبى - ليست ملكا للغة واحدة ، ولكنها ميراث شعب -- والحضارات الكبرى -- قد تحمل جميعا نفس الطابع اذا ماتيسر لنا تحليلها تحليلا صحيحا -- الا أننا حين نتحدث عن مصر القديمة أو مصر الاسلامية ، او الامبراطورية الرومانية نلجأ الى لفظ حضارة تعبيرا

عن التقدم ، فاذا تحدثنا عن الاغريق او اليونان القديمة حيث يغلب الطابع الفكرى ماعداه من الوان التقدم ، يغلب لفظ الثقافة على لفظ الحضارة ، فنقول الثقافة الاغريقية او اليونانية ، فاذا درجنا الى العصر الحاضر اتخذنا من كلمة (ثقافة) تعبيرا عن صور من النشاط العقلى الذى يصنع التقدم ، او أننا فى الواقع نتحدث عن الكيان العام لاثر العقل على التقدم ، فاذا كان هذا العقل قد تمثل ارقى ماوصل اليه تفكير عصره ، فانه يمثل المستوى الرفيع للثقافة الانسانية ماثلة فى تفكير المجموع العام للشعب ، فالثقافة هى ميراث الشعب يتسع مدلولها ومداها ليشمل كل جوانب الحياة فاصبحنا نتحدث عن ثقافة صناعية وثقافة اعلامية ، كما نتحدث عن ثقافة الطفل ، وثقافة الشباب ، وثقافة المجتمع ككل ، ثم درجناها على التعليم ، فيقال رجل مثقف بمعنى متعلم ، وهو مايبدو صورة للتباين فى المعنى ـ وان كان تباينا لايقوم على واقع حقيقى ـ بين لفظين اتفقنا على انهما يحملان معنى واحدا ، اذ أنه فى الواقع تباين فى الشكل وليس تباينا فى الجوهر ، فان كليهما يعنيان مفهوما واحدا يساير روح العصر ، بعد ان غدا الشعب هو صانع الحضارة وهو صانع الثقافة ، وكانت الدولة من قبل هى صانعة التقدم والارتقاء ، فطالما كان سلطان الدولة قويا ، وسلطة الحاكم نافذة مرموقة بما يتمتع به من قدرة وذكاء ، كانت الدولة بصورتها تلك هى صانعة الحضارة ، وهى الصورة البارزة لها ، فلم يشهد التاريخ لبلد بالحضارة تحت حكم خاسر ، فالحكم الظافر القوى هو الذى يضفى على الدولة القوة والمجد والمهابة ، وهو الذى ينعكس بالخير والثراء على بنيها .

ويبدو أن تلك الحقيقة مازالت قائمة ، فالدولة القوية فى الوقت الحاضر ، هى صاحبة القدح الأعلى فى مضمار الحضارة ، بل وهى التى تفرض ثقافتها على غيرها من شعوب العالم تمدها التكنولوجيا الحديثة بكل أسباب التفوق والانتشار ، ولانغالى اذا قلنا ان الجانب العقلى والفكرى والسلوكى يخضع خضوعا غير هين للتقدم المادى الذى تسيطر عليه تكنولوجيا العصر ، فعندما كانت مصر هى القوة الكبرى فى الشرق الادنى فى الدولة الحديثة على عهد الاحامسة والرعامسة ، كانت ثقافتها هى السائدة ، فلما ورثتها الحضارة الهيلينية مع امتداد فتوح الاسكندر الاكبر غدت ولها السيادة فى عالمها ، حتى ورثتها روما وغزت العالم بتشريعاتها وقوانينها ونظمها ، وان فشلت فى أن تبدع له ثقافة مالبثت ان تهرأت على ايدى المسيحية حتى اهل الاسلام بلألاء باهر غمر سماء الجزيرة العربية وانساب منه الى العالم الواسع مع .. اعجب قصص الفتوح فى تاريخ البشرية عامة ـ كما يقول هـ ج ويلز ـ عندما تمزق الجيش البيزنطى فى موقعة اليرموك (أحد روافد الأردن) عام ٦٣٤ م » وان لم يقدر لهذه الامبراطورية العظيمة التى امتدت رفعتها من اسبانيا الى الصين أن تعيش طويلا .. عندما قوضت الخلافات المذهبية وحدتها .. ولكن بقى أثرها فعالا فى العقل الانسانى ، وفى مصائر البشرية عامة ، فقد شق الذكاء العربى طريقه الى العالم اوسع طولا وعرضا بصورة أسرع واقوى مما كان العقل اليونانى قبل ذلك بألف سنة .

ويبدو أن الحضارات تبلغ أوجها حين يلم البوار بسلطان الدولة وتبدأ تفسخها السياسى ، فقد بلغت الحضارة الاسلامية أوجها فى عهد الرشيد والمأمون ، واستمرت زاهية زاهرة زمنا امتد ثمانية قرون بعد عصر المأمون ، وحين وئدت فى بغداد على ايدى

التتار ، انتقلت الى القاهرة وصان زمامها المماليك البحرية (٦٤٨ ـ ٧٨٤ هـ = ١٢٥٠-١٣٨٢) وعلى ايديهم نزلت أول نازلة بالتتار فى « عين جالوت » وتم اجلاء الصليبيين عن آخر مابقى فى ايديهم بعد هزيمتهم فى « حطين » على يد الاشرف خليل بن قلاوون ، ومن بعدهم جاء المماليك البرجية او (الشراكسة) (٧٨٤ ـ ٩٢٢ هـ=١٣٨٢ ـ ١٥١٧) وازدهت القاهرة بمبانيهم واثارهم التى بقيت علما عليهم ، وان كانت نذر الانحلال قد بدأت تلحق بالدولة فى آخر حكمها ، حتى كانت نهايتها على ايدى العثمانيين لتبدأ دورة جديدة حافلة من دورات التاريخ كان لها طابعها المميز فى حضارة العالم وثقافته من بعد .

الباب الثاني

الفلسفة
والصهيونية

نشأة الفلسفة ومعناها

يجمع أرباب الفكر على أن الفلسفة تعنى « حب الحكمة » ويسندون هذه التسمية الى الفيلسوف والرياضى اليونانى « فيثاغورس » اعظم فلاسفة اليونان قبل سقراط وافلاطون ، ويقولون : انه لم يرض بكلمة « حكيم » ولا بكلمة « حكمة واختار بدلا منهما عبارة » حب الحكمة و « محب الحكمة » فالحكيم هو الله ، والحكمة لله وحده وكان المفكر اليونانى قد أخذ يرتد ، أو يتأثر - بمعنى ادق - بالفكر الشرقى ، أو فلسفة الشرق - كما يمكن أن نسميها جريا على ماكان من بعد ، فى نظرتها لعالم واحد فى رعاية اله واحد ، وأن الله ماثل فى هذا الكون الفسيح ، وهو ماعرف بمذهب « وحدة الوجود » وهو المذهب الذى قامت عليه فلسفة الحلاج من بعد (٨٥٨ - ٩٢٢) وفلسفة الحلول عند سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) وكفر المسلمون الحلاج ، كما وصم اليهود سبينوزا بالكفر .

وكان سبينوزا فى الواقع أول من ربط بين الفلسفة والدين ، وبدأ تأثيره بينا فى الفلسفة الدينية التى نمت بذورها فى عصر النهضة الاوربية على يدى القديسين « سان أوجستين » و « توما الاكوينى »

ومما يروى عن فيثاغورس قوله : ان الحياة اشبه ماتكون بمحفل من محافل الاولمبياد ، يؤمه المتبارون ، ويشاهدهم المتفرجون ، ويسعى الى حفلهم التجار واصحاب الاعمال يمارسون اعمالهم ابتغاء الكسب فى حشد من الناس ، فالناس فى الحياة يتبارون لاكتساب الشهرة والمجد ، أو يجرون وراء شهواتهم ومنافعهم ، والقلة منهم تكتفى بالتأمل والمشاهدة للبحث عما وراء ذلك من معرفة الدوافع والعواقب ، فهم طلاب معرفة واولئك هم الفلاسفة .

ومهما اختلفت المسميات فى كنه، هذا الانسان الواعى الساعى وراء المعرفة فيلسوفا او حكيما او واعيا مدركا لما حوله فانه الانسان المتميز المدرك لكل ما فى الوجود من حوله .

كما يرى أفلاطون - وقد لا نختلف معه كثيرا فمن بين الكائنات من حيوان أو طير نجد الدليل المتميز الذى يقود القطيع الى غايته وشأن الانسان المتميز هو شأن قائد الطير أو دليل القطيع فى عالم الحيوان وقد لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان كل انسان ميسر لما خلق له أو كما يقول أمير الشعراء احمد شوقى فى بيان موهبته .

وهبوني الحمام لذة سجع   أين فضل الحمام فى تبيانه
وترفى اللهاة ما للمغنى   يد فى صفائه أو ليانه

لذلك بقى مدلول الفلسفة غامضا مبهما فهو كما يقال « البحث عن قسط اسود لا وجود له في غرفة مظلمة » الا اننا نراها هبة العقل الواعى المستنير في نظرته الى الاشياء ومحاولة تفسيرها وتعليلها لا في وجودها المادى المرئى القائم امام البصر فيما يكمن وراء وجودها المادى وعلته ويصبح الانتقال في العقل من البصر الى البصيرة وقد يمتد العقل بالفكر الى كنه هذا العقل الذى يحرك أفكارنا وماهيته وقد يعدوه الى ما وراءه من هذا الوجود من ديمومة او صيرورة غالبا ما يتوه فيها العقل ولا يصل فيها الى يقين الا أن يسلم بما يهديه اليه دين سماوى قويم كمن يسأل عن الروح فيوحى الله جل جلاله الى رسوله عليه الصلاة والسلام بقوله :

« ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وماأوتيتم من العلم الا قليلا » الإسراء ٨٥

وقوله تعالى :

يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها . الى ربك منتهاها . انما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » النازعات : ٤٢ ـ ٤٦

فاذا استقام العقل على التسليم بقدرة الخالق الأعظم فقد كفى صاحبه البحث عما وراءها مما يجرى اصطلاح الفلسفة على دعوته بالميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة وانتقل بالفلسفة الى ميدان اخر ميدان المعرفة العلمية او القانون الاخلاقى او القانون الذى يحكم مسار الحياة ونمط العلاقات الاجتماعية ومسئولية الفرد قبل الجماعة وواجب الجماعة نحو الفرد او تفسر له فن الحياة كما يجب أن تكون عليها الحياة.

والفلسفة نتاج العقل الانسانى حيث يسيطر العقل على سلوك الانسان ومساره في الحياة على عكس ما تمضى عليه الكائنات الأخرى من حيوان او دواب أو حشرات تهتدى بغريزتها دون عقلها وقد يكون تركيب خلايا المخ لديها مما يتوافق والسلوك الغريزى بينما تركيب خلايا المخ البشرى مما يتوافق مع السلوك العقلى وقد تكون الغريزة أقوى احساسا بمحيطها وأكثر هديا لكائنها من العقل البشرى في احساسه بما يفاجئه من ظواهر الطبيعة فالحيوان والطير تحس بالزلازل واعراض الطبيعة من عواصف واعاصير قبل ان تقع فتتوقاها في الوقت الذى تفاجىء فيه الانسان فلا يحس بها قبل ان يلطمه واقعها .

واذا كنا نرد الفلسفة بمعناها الجارى او السائد الى العقل اليونانى فاننا نرد الفكر الفلسفى الى ابعد من ذلك بآماد تضرب في اغوار الوجود الانسانى بارسان ثغال حين ميزه الله على بقية . خلقه بالعقل وان ميزهم عليه بالناب والظفر واستواء الطفولة واستقلالها المبكر فاذا كان للعقل ما يتحدى به الناب والظفر في كواسر الحيوان والطير من سعة الحيلة والقدرة على استخدام ما يقع تحت يده مما يصلح لدفعها او قتلها من حجر او صخر أو فروع الاشجار الصلبة فانه أمام امتداد الطفولة البشرية واعتماد الطفل الانسانى على أبويه لسنوات طوال قبل ان يستقل عنهما ويعتمد على نفسه لا يملك غير مواجهة الواقع لينظم حياته على غراره حين يهديه العقل الى « كيف يقى وجوده» و كيف يحيا امنا وهو ما يمكن ان نسميه « فن الحياة » لا يواجه فيه معرفة نظرية ، بقدر ما يواجه واقعا عمليا يعرف كيف يتحداه ويتحايل عليه ويبدو ان هذه القدرة على التحايل في مواجهة الواقع هى التى دعاها « ارنولد توينبى » بالاستجابة .

ولعل حماية الطفل كانت أول ما واجه الانسان من ضروب التحدى تحدوها غريزة الامومة عند المرأة وهى الغريزة التى يشترك فيها الانسان والحيوان والطير على حد سواء

وبمعنى أدق المرأة واناث الحيوان والطير وليس للذكر نصيب منها فقد كان على المرأة بدافع الامومة ان ترعى وليدها حتى يشتد ساعده مما يستغرق بضع سنوات فاما بقيت بجانبه ترعاه وتدفع عنه مما يعوق سعيها للقوت فتموت وطفلها جوعا او ان تحمله في سعيها للقوت فيعوق حركتها امام هجوم كاسر او تتركه فريسة للكواسر والجوارح لتسعى وراء قوتها وهداها التفكير الا تسلم نفسها للرجل ما لم يقم بحاجتها من الطعام في حملها ووضعها ورضاعة طفلها وكانت تلك بداية الاسرة وهى الخلية الأولى في البناء الاجتماعى ولعل الغريزة الاجتماعية قد لعبت دورها في هذا المجال وهى الغريزة التى تجمع بين

الاشباه من المخلوقات فى حياة مشتركة يدعوها علماء الاجتماع (جاذبية النوع لنوعه) وان كنا لا ندرى أيهما أسبق الى الوجود : الفرد فى ذاته أو الفرد فى صلاته بغيره من أشباهه ، وذلك ما اختلف عليه علماء الاجتماع وانتماشوا الغوص فى اعماقه يوم كان

الانسان فردا يعيش فى دائرة مغلقة من إرادته الحرة لا يدين برباط اجتماعى إلاما تسوقه اليه غريزته حين تقف به عند الطعام والجنس ، فقد بدأ « دوركايم » رائد علم الاجتماع الحديث بالمجتمع فى بداوته ، وكانت العشيرة كما يراها كل من « دافى » و « موريه » هى البداية فى تطور المجتمع حتى الدول والأمبراطوريات ، وهو ما يتفقان فيه مع دور كايم - وسبق ابن خلدون الى هذا المنحى فتناول حاجة الانسان الى التعاون « ويعبر الحكماء ــ كما يقول ــ عن هذا بقولهم ان الإنسان مدنى بالطبع أى لابد له من الاجتماع الذى هو المدنية فى اصطلاحهم وهو معنى العمران وبيانه ان الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله إلا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء ... ويستحيل أن تفى بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد فلابد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم ... » (١)

فاذا كان علماء الاجتماع قد اتخذوا من العشيرة قواما للاجتماع الانسانى وسبقهم ابن خلدون الى هذا الراى فان الاسرة في الواقع قد سبقت قيام العشيرة وان الحاجة الى الجنس قد فرضت الحاجة الى الطعام يحمله الرجل الى زوجه وطفله - كما نرى - وهو ما يراه « برتراند رسل » وان رده الى كافة المخلوقات التى تطول لديها فترة الطفولة « كما في الانسان فان ذلك يفرض قيام ما نسميه اسرة نرثها عن اسلافنا ولعل الاسرة هى الكيان البشرى الوحيد الذى يتفق تماما مع النزعات الطبيعية وان كانت معالم الاسرة غير واضحة تماما أهؤلاء الذين ينحدرون من جد واحد هم الذين نعدهم اسرة فاذا سلمنا بذلك فما شأن اولئك الذين ينحدرون من نفس جد الجد » .

ويمضى برتراند رسل فيؤكد ان«البشر يختلفون حتى عن اكثر الحيوانات العليا في قدرتهم على توارث المأثورات القديمة ولا تنفك القبائل البدائية تردد اناشيد اجداد بعيدين وتبقى بذلك على ذكرى اسلافهم مما يؤدى في النهاية الى نمو الاسرة لتصبح عشيرة فقبيلة ويكون اول ما يصون وحدتها تماسكها الاجتماعى » (٢)

---

١ - المقدمة : الفصل الاول من الكتاب الأول في العمران البشرى

٢ - المجتمع البشرى في الأخلاق والسياسة ترجمة عبد الكريم أحمد ، الفصل الخامس من الكتاب الثانى الادارة الثقافية جامعة الدول العربية ١٩٦٠

وهذه المأثورات والاناشيد التى يتوارثها الابناء عن الاباء عن الاجداد وتؤدى - كما يرى برتراند رسل - الى تواصل الاجيال هى قوام الفكر الفلسفى الذى غدا فيما بعد اساسا للنظرية الفلسفية ايا كان ميدانها وحينما ندت بها الأرض التى انبتتها والانسان الذى شغل بها طالما امتلك القدرة على التأمل بغية المعرفة - كما يرى فيثاغورس - او النظرة التى تثير الدهشة فالدهشة في راى ارسطو ظئر الفلسفة او بعبارة اخرى هى التى انجبت الفلسفة .

ولعل اول ما يثير الدهشة هو الرغبة فى التعرف على طبيعة الاشياء لذلك كان اول ما يسأل عنه الطفل : ما هذا ؟ فاذا عرف ما هذا اردفه بسؤال تال : ولماذا ؟ وغالبا ما يقف عند ذلك فكل ما يعنيه هو التعرف على محيطه فاذا تعرف عليه تكيف معه واندمج فيه ولم يعد هناك ما يعنيه الا ان يعيش وفقد الرغبة في الاستطلاع الا ما اتصل بمصالحه وحماية نفسه من محيطه ومما يتوقع ان يلم به من عوائق الحياة ومطالب العيش ويصبح جزءا من كل يصبح ويمسى وراء غرائزه ويسخر عقله وتفكيره لتحقيق ما تنشده غرائزه لا فرق بينه وبين الحيوان او الطير بل ودابة الارض من حشرات عليه ان يفيد منها كالنحل او يتوقاها كالصراصير . وتقف غايته في الحياة ومن الحياة عند ذلك فاذا اوتى حظا من الذكاء كان ذكاؤه سندا لغرائزه وأداة لتحقيق ما تشتهيه مالا أو جاها أو لذات عابرة واذا كان حظه من الذكاء قليلا مضى فى حياته مع السواد الأعظم مع تفاوت القدرة والحيلة .

أما هذه القلة التى عناها فيثاغورس والتى تتأمل وتتساءل والتى راح سقراط يبحث عنها في حواره فلا يعثر الا على قلة نابهة لم تنقذه من جهالة الكثرة واخذ تلميذه وصفيه افلاطون يتصورها حطاما للدولة في جمهوريته المنشودة وانزلها ارسطو من السماء الى الأرض لتصبح ادنى الى الفهم واقرب الى الحقائق المادية فان هذه القلة لا تكتفى بالسؤال ما هذا ؟ ولماذا ؟ ولكنها تردفهما بالسؤال عن : كيف ؟ وذلك هو التفكير الفلسفى الذى ينتهى بصاحبه الى دنيا الفلسفة وان لم تستو على اسس ونظريات ثابتة ولا تشير الى مدلول خاص غير الرغبة في التعرف على طبيعة الاشياء وكانت بذلك اقرب الى العلم كما يفهمونه فهو المعرفة الخالصة البعيدة عن المنفعة على خلاف الفن الذى يعبر لديهم عما هو عملى يحقق المنفعة المرجوة من القيام به وقد حوت موسوعة ارسطو الفلسفية من المعارف ما يندرج تحت العلم .

وبقيت الفلسفة فى هذا المجرى تخوض فى كافة ألوان المعرفة العلمية ، بل وعدت تلك المعرفة العلمية الى ما نطلق عليه فى عصرنا (الفن) كالموسيقى (الادب) كالشعر فكان الفلاسفة يخوضون في علوم الكيمياء والفيزياء والطب والرياضيات والفلك كما يخوضون في الشعر والموسيقى وأبرز مثال على ذلك من فلاسفة العرب ابن سينا (ابو على الحسين بن عبد الله بن سينا ٩٨٠ - ١٠٣٦ م) فقد كان حجة في الطب والفلك والرياضيات وكانت الفلسفة لديه صناعة نظر يستفيد منها الإنسان علم الموجود بما هو موجود وعلم الواجب عليه فعله لتشرف نفسه وتصير عالما معقولا مضاهيا للعالم الموجود وخاض في الموسيقى كما خاض في التربية وتنشئة الطفل

وكذلك الفارابى (ابو نصر محمد ٨٧٠ - ٩٥٠) صاحب « اراء اهل المدينة الفاضلة » وناقل ارسطو الى العربية حتى لقب « المعلم الثانى » وخاض بدوره في شتى الوان المعرفة .

والكندى ايضا (ابو يوسف يعقوب بن اسحق : ٨٠١ - ٨٦٥) فيلسوف العرب وأول فلاسفتهم تاثر بارسطوا في قالب الافلاطونية الحديثةواخذ بمذهب المشائين وشارك المعتزلة بحوثهم في العدل والتوحيد والنبوة وولج كغيره من الفلاسفة علوم الرياضيات والفيزياء والفلك والطب والجغرافية والموسيقى وهو اول من حاول التوفيق بين الدين والفلسفة ومهدلمن جاء بعده من فلاسفة المسلمين وعلمائهم الميدان كالفارابى وابن سينا

وكان الغزالى (ابو حامد محمد بن محمد الغزالى : ١٠٥٩ - ١١١١) الفقيه الفيلسوف العالم المتكلم صاحب النفحة الادبية فيما يختاره من شعر وما يرويه من قصص وحكايات التراث الشعبى وان نسب الى الفلسفة فقد قيل انه « درسها بنية سيئة ليسبر غورها ثم ينشر مساويها على العالمين »(١) .

ولكننا لا ننكر باعه فيها باحثا أو ناقدا فى « مقاصد الفلاسفة » وان حمل على بعض ما لجوا فيه فى « تهافت الفلاسفة » ومازالت كتبه « المنقذ من الضلال » و « أحياء علوم الدين » من غرر الدراسات فى التصوف الاسلامى .

واذا ذكرنا الغزالى لا ننسى قرنه ابن رشد « ابو الوليد محمد بن احمد : ١١٢٦ - ١١٩٨) وقد ولد بعده بعشر سنوات وخمس درس ارسطو وبشر به وقام بشرحه وعن طريقه وطريق أضرابه من فلاسفة المسلمين عرف الاوربيون فيلسوف اليونان في عصر النهضة ورد على « تهافت الفلاسفة » بكتابه « تهافت التهافت » وأقام الدليل على أن الشريعة الاسلامية تحث على طلب العلم وتحفى بالنظر العقلى واخذ يوفق بين الفلسفة والدين .

ولقى الغزالى ما لقى ابن رشد من حفاوة مفكرى الغرب الاوربى والامريكى وعلى فرق ما بينهما في المنحى والتفكير احرقت كتبهما (٢) وان لم يلقيا مصير سقراط وارسطو المفجع حين تجرع سقراط السم محكوما عليه بالاعدام وتجرعه ارسطو منتحرا بعد ان أفلت من جلاديه وقال : « لن اسمح لاثينا بفرصة اخرى للاجرام ضد الفلسفة »

واذا كان فيثاغورس هو الذى اختار للفلسفة اسمها الذى عرفت به من بعد وفسره بحب الحكمة وليس الحكمة كما سبق القول - وينسبها الفكر الغربى الى اليونان فقد تناسى ان الشرق مهد الفلسفات حين اتيح لهذا الشرق ان يشهد مولد الحضارة بعد أن جاوز مرحلة البداوة وانطلق الفكر الانسانى من طفولته ليتامل هذا العالم من حواليه ويتساءل - كما يقول هنرى توماس - من انا ؟ وما هذا العالم الذى يحتوينى ؟ وما دورى فيه ؟ وفي مصر بزغ فجر الحكمة ومنها استناهم فلاسفة العالم القديم حكمتهم الاولى ودان لهم فلاسفة

اليونان بالمعرفة وعدهم افلاطون اعظم فلاسفة العالم اجمع « معلمى الانسانية ورواد الحكمة » وعنهم أخذ اليونانيون فلسفتهم ونحن بدورنا قد اخذناها عن اليونانيين وانساح تيار الفكر عبر الزمن لا ينى ولا يتوقف من وادى النيل وما من فكرة الا ولها جذورها البعيدة في الماضى فما من جديد تحت الشمس وما من فكرة جديدة الا وهى في حقيقتها قديمة ولكن في رداء اخر ففى افلاطون وارسطو تبدو صورة بتاح حتب كما يسفر فكر شوبنهاور وتولستوى عن « حكمة ابوور » ويستوحى سبينورا وكانت رؤى اخناتون .

---

١ - د زكى مبارك الاخلاق عند الغزالى . ف ١ : المصادر الفلسفية
٢ - دراسات فلسفية تقديم واعداد د عثمان امين عبقرية الغزالى للدكتور عمر فروخ

الا ان فلاسفة اليونان بداية من طاليس في القرن السادس قبل الميلاد وان لفحتهم فلسفة الشرق بوقدة منها الا انهم كانوا نهجا جديدا - او كما قيل - شعراء - اكثر منهم أنبياء فأعلوا من قداسة الجمال دون جمال القداسة وشغلوا بطبيعة الكون وقوامه دون خلقه وعلة وجوده وولجت الفلسفة على ايديهم ميدان العلم وبقى العلم يسود ميدان الفلسفة حتى القرن الثامن عشر حين اخذ الفلاسفة يستقلون بميدانهم بعيدين عن سائر العلوم التى خاضتها من قبل وغدا للفلسفة كيانها المستقل السائد وفصل جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) ما بين الفيزياء والفلسفة كما فصل لافوزاييه (١٧٤٣ - ١٧٩٤) بينها وبين الكيمياء واصبح للطب وعلم وظائف الاعضاء كيان مستقل على يد كلود برنار (١٨١٣ - ١٨٧٨) وما لبث القرن العشرون ان شهد انفصال علم النفس وعلم الاجتماع عن ميدان الفلسفة ولم يعد لها غير مباحث المنطق وعلم الاخلاق والميتا فيزيقا وثمة محاولات لفصل الاخلاق والميتافيزيقا عن الفلسفة لتصبح قاصرة على المنطق وحده ليكون أداة للتحليل المنطقى للعبارات .

وقبل ان تصل الفلسفة الى هذا الطور كانت قد مرت خلال ما عرف بالعصور الوسطى بصورتين متناقضتين وان كانتا متلازمتين بمعنى ان تناقضهما لم يحل دون محاولات التوفيق بينهما او التحدى والتنافس فيما بينهما وعلى خلاف ما كانت محاولات التوفيق من نصيب الفلاسفة كان التحدى والتنافس يعتمدان على السلطة . والتبريرات الضالة الغائمة لا فرق في ذلك بين العالمين الاسلامى والمسيحى حين تنتهى السلطة الى رجل الدين ولكنها لم تلق من الهوان وعنف الاضطهاد في العالم الاسلامى ما لقيته في العالم المسيحى فقد ذهب « جمهرة فلاسفة الاسلام الى القول بان غاية الدين تتشابه مع غاية الفلسفة من حيث ان كليهما يرمى الى تحقيق السعادة عن طريق الاعتقاد الحق وعمل الخير وقد حاول فلاسفة الاسلام التوفيق بين الدين والفلسفة في اسلوب ليس فيه - في الغالب - عنف ولا نزوع الى كبرياء وان كان بعضهم تنسم اساليبه عن العنف او مهاجمة الدينيين (١) الا انهم كانوا اكثر حماسا للدين والدعوة اليه في واقع الحال من كثير من رجال الدين ولا سيما ما كان عليه المتأخرون حين اخذت الثقافة العربية في الانحدار حتى شكى منه الغزالى - وهو اكبر خصوم الفلسفة واصلبهم قناة - في « المنقذ من الضلال » ومما يرد في رسائل ابن تيمية قوله « ان العلم ماكان موروثا عن نبى وكل ماسواه فهو علم لاينفع أو ليس بعلم وان سمى به » وقد عاش تقى الدين ابو العباس احمد بن تيميه الحرانى (١٢٦٣ - ١٣٢٨) » في عصر كان العلم العربى قد اخذ يتهافت وحفل بالخرافات التى اخذها عن الغرب الاوربى ابان الحروب الصليبية وعاش في وقت كان التتار يجتاحون فيه عالم الاسلام واخذوا يهيضون العالم العربى فكان موقفه موقف من يذود عن السنة امام اتجاهات ضالة نزت على الفكر الاسلامى من اصحاب النزعات الصوفية ودعاة مذهب الحلول من امثال الحلاج وابن الفارض وابن عربى ومع ما كان يتصف به ابن تيمية من وضوح الرؤية ودقة السند وشجاعة الداعية لم ينج من اضطهاد السلطة ودسائس اهل الملق والنفاق فسجن بمصر والشام اكثر من مرة وقدر له ان يلقى ربه في سجنه بدمشق

وجرى جريه تلميذه ابن قيم الجوزيه فى عدائه للفلسفة وكان قد ألم وأستاذه « بعلومها

---

١ ـ الدكتور توفيق الطويل قصة النزاع بين الدين والفلسفة ، الفصل الرابع ص ١٠٣ ـ ١٢٦

ـ كما يقول شيخ الاسلام مصطفى عبد الرازق مؤرخ الفلسفة الاسلامية ـ فيما الما به من مختلف العلوم واسلوبهما فى النقد والجدل عنيف غير أن نفحات النظر العميق والاطلاع الواسع تخفف من لذع اسلوبها . »

وقد نرد عداوة بعض فقهاء الاسلام للفلسفة الى ما شاب الفكر الاسلامى من انحرافات لا علاقة لها بالفلسفة ولا بالنظر العقلى الحر وقد حرره الاسلام من كل قيد بل ان الدعوة الاسلامية قامت على هداه منذ البداية اذ تحث على التفكير ولا نرى في القرآن حكما من الاحكام يشل حركة العقل في تفكيره او يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم ما استطاع حيثما استطاع وكل هذا مكفول للمسلم فى كتابه كما لم يكفل قط فى كتاب من كتب الأديان فهو يجعل التفكير السليم والنظر الصحيح الى آيات خلقه وسيلة من وسائل الايمان بالله » (١)

وقد حوى القرآن الكريم من آية الكريم ما ينادى « بسلطان العقل والمجاهرة بسيادة العلم فسمع الناس لاول مرة في تاريخ الاديان كلمات تفكير ونظر وبرهان وتبعة شخصية وبطلان للتقليد »(٢)

فاذا كانت الفلسفة دعوة الى التفكير والنظر العقلى فليس في الاسلام ما ينكرها فاذا خاضت فيما وراء الطبيعة وتناولت وجود الله وصفاته والعلاقة بين الفكر والواقع بما ينتهى بها الى تهويمات غامضة تتناقض مع حقائق الدين الثابتة او يجاوز معرفة الانسان كالروح والنفس وقيام الساعة فان ذلك مما تنكره الاديان السماوية جميعا وليس الاسلام وحده .

وقد جدت هذه الخصومة بين الفلسفة والدين حين بدأت الفلسفة تعرض لتلك المسائل التى تزلزل العقيدة ولم يكن ثمة جفوة بين الفلسفة الاسلامية والدين فيما يعرض للعلم

قبل أن يغرق المسلمون فى بحار الوهم فهو « حجاب الحقيقية »(٣) كما يقول الأستاذ الامام محمد عبده ـ وقبل أن يجتاح الفقهاء الجمود « فهذا الجمود مما لايصح ان ينسب الى الاسلام وانما هو علة عرضت للمسلمين عندما دخل على قلوبهم عقائد اخرى ساكنت عقيدة الاسلام فى افئدتهم ، وكان السبب فى تمكنها من نفوسهم واطفائها لنور الاسلام من عقولهم »(٤) .

وكانت الحملة على الفلسفة والعلم في الغرب المسيحى حين انتهت السلطة الى الكنيسة ورأى القساوسة في العلم ما يهيض الايمان الكاثوليكى فسخروا الفلسفة لخدمة الدين وغدت الدراسات اللاهونية محور الفلسفة في الغرب المسيحى وعصف الاضطهاد بالعلماء وحدهم كما كان موقف الكنيسة مع جاليليو لقوله بدوران الارض على خلاف ما كان من تفسير للكتاب المقدس وايد ما اثبته كوبرنيق قبله بقرن من الزمان (٥) بينما كانت الفلسفة منذ ملك اعنتها سان اوجستين (٣٥٤ ـ ٤٣٠ م) تدور حول اللاهوت الكنسى لالف عام

١ ـ العقاد . عباس محمود : الفلسفة القرانية . الفصل الاول كتاب الهلال العدد ٢٢٩
٢ ـ محمد فريد وجدى : الاسلام دين الهداية والاصلاح : كتاب الهلال ١٤ الفصل الثانى
٣ ـ المسلمون والاسلام كتاب الهلال ١٥٣ ص ١٢٦
٤ ـ الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية : جمود المسلمين واسبابه ص ١٠١
٥ ـ عاش كوبرنيق ما بين (١٤٧٢ ـ ١٥٤٢ وجاليليو ما بين (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢ م)

تالية حين جاء توما الاكوينى (١٢٢٧ ـ ١٢٧٤ م) فسخر الفلسفة لخدمة اللاهوت واتخذ من ارسطور مطية عرجاء لخدمة الدين حين فسره بما يتفق وغايته فمع مالقيه ارسطو من اكبار فى العصور الوسطى وماكان من تسليم بقانون الطبيعة فقد غلفه الفكر المسيحى كما غلف قانون الطبيعة بغلاف اللاهوت فجرد العقل من كل قدرة على الإنطلاق من اساره وبقى التمزق ينوش الفكر الأوربى ، وأخذ توما الأكوينى يجد التبرير لفكرة القانون الطبيعى بما يؤيد غلبة العقيدة على العقل كما بررها سان اوجستين بقوله : « إن ما جاء به الكتاب المقدس لهو أقوى من كل ما يجىء به العقل الإنسانى ، فإذا كان ثمة تناقض بين العقل والعقيدة فإن ما جاء به العقل يجب ألا يكون » .

ويفسر توما الاكوينى نظرة العصور الوسطى لقانون الطبيعة تفسيرا اقرب الى التبرير منه الى الواقع العلمى الذى اخذ ينوش العقل الاوربى فى بداية ما يعرف بعصر النهضة بقوله: «من العسير ان نثور على ما يتأتى من خطأ لأنه خصومنا من المسلمين والوثنيين لا يدينون معنا بسلطة الكتاب المقدس فلا نستطيع ان ندحض افتراءات الزنادقة حين نحتكم الى الانجيل ، فلامناص لنا إذن من الاحتكام الى القانون الطبيعى الذى يسلم به الجميع وكان هناك من يقول ان ارسطو والعرب كفار ومن الواجب القضاء على كل ما لهم من تأثير (١)

ومع ما كان يحمله من بغض للمسلمين لم يستطع ان يحجب المؤثرات الفكرية والعلمية للعرب المسلمين عن اوربا وفشل في ان يتصدى لفلسفة ارسطو وان عصف به البعض بالحملة على ابن رشد مع تقاربهما الفكرى ومحاولة كل منهما التوفيق بين الدين والفلسفة ونقد اراءه مر النقد بما يسىء اليه والى فكره الفلسفى ولم يسعد توما الاكوينى بالشماتة في المسلمين فشهد هزيمة الصليبيين في المنصورة عام ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) واسر لويس التاسع قائد الحملة الفرنسى او القديس لويس ـ كما دعى ـ وكيف افتدى نفسه ونزل على شروط المسلمين .

كما شهد من ناحية اخرى البذور النامية للحركة الانسانية مع نشأة الجامعات الاوربية الحديثة في بدايات القرن الثالث عشر منها جامعات باريس واكسفورد وكمبردج وفي القرن الخامس عشر اصبح في اوربا قرابة مائة جامعة وعجز الفكر المسيحى عن ان يقضى تماما على النزعة الانسانية في التعبير عن حاجات الجسد ونوازع العقل او يقوض الدعائم التى يقوم عليها الوجود الانسانى وجل ما عمله هو الاساءة اليها وتشويهها فالى جانب التراتيل الكنيسة واناشيد العذراء كانت تنتشر الاغانى المبتذلة والاناشيد الرخيصة وولع الجنود بالفجور ولم يعف عنه الكتبة ممن كانوا يملكون وحدهم القدرة على التعبير الادبى واكتسى الفن ثوبا من الرقة ظهر في شعر دانتى وغيره من شعراء ايطاليا وامتزجت هذه الاتجاهات بما عرف بحركة الاحياء الانسانى التى حملت الناس على الاهتمام بالاداب الكلاسيكية ابتداء من القرن الثالث عشر وما لبثت روح الجدل والحوار ان أخذت تثور من جديد حرة طليقة تعنى بما وراء الكلمات من معان لتبشر بإتجاه علمى اخذ يسفر عن نفسه في كتابات « روجر بيكون » (١٢١٤ ـ ١٢٩٤) درس العبرية واليونانية والم بالثقافة العربية الا ان شغفه بالعلوم الطبيعية غلب عليه وامن بالتجربة ونبذ التلقائية والعرف الجارى حتى اتهم جيله ومعاصريه بالجهل .

---

١ ـ الفكر السياسى الحديث للمؤلف : المكتبة الثقافية ١٩٦٧ ص ١٢

الا أن المخاض كان عسيرا قاسيا مليئا بالآلام ولم تكن افلاطونية النهضة المليئة بالسحر والأوهام كأفلاطونية الاغريق النامية المكتملة على ان الحركة الانسانية وقد شدتها روح العصور بارسان تقال وظلت حبيسة التقليد والمحاكاة قد أخذت تتحرر مع الزمن وتمضى في ادراك القيم الجمالية والفنية للاداب والفنون القديمة وغذت الحركة الانسانية بفيض من الجمال الساحر بكل ما في الحياة من خير وفن واقبال على متاع الدنيا الطيب دون عناء او ارهاق وبرم الناس بالمثل المسيحية فحل الولع بالقوى التى وهبهـــا الله للانسان محل المحبة المسيحية وحلت الحرية وتقدير العقل محل الايمان والاستسلام للقدرة ولم يعد البدن محلا للتحقير والازدراء بل غدا موضع الاكبار والتقدير فعظمت الشخصية الانسانية وعظم معها شأن الانسان

وبدأت الفلسفة نهجا جديدا على يد « فرانسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢١) أقدر عقلية انجبتها النهضة الاوربية ـ كما يصفه هنرى توماس ـ فاذا كانت مقولة توما الاكوينى «لابد أن أؤمن قبل أن اعقل » فان فرانسيس بيكون يقول « لابد ان اعقل قبل أن اؤمن » وعلى يديه نشأت الفلسفة الحديثة في الوقت الذى ذوت فيه فلسفة الشرق وغاضت فلسفة العرب الاسلامية ولجت في خرافات انحدر اليها العقل العربى حتى تناسى علمه ونسى عقله في غياهب الظلام الزاحف حتى اخذ ينفض عنه غبار الماضى الدامس وان كان المخاض عسيرا لم ينجب بعد .

المسلمون فى ميدان الفلسفة

ما من ميدان تشعب فيه البحث وتباينت الاراء كميدان الفلسفة فحيث تصل بعض المذاهب الفلسفية بالانسان الى قمة الايمان الدينى تغلفه مذاهب اخرى بالشك وتدفعه الى الالحاد والريبة في وجود اله قادر خلق هذا الكون على سنة محكمة لن تجد لها تبديلا ولن تجد عنها تحويلا فاذا كان الفكر هو ميدان الفلسفة الفسيح وان العقل مبعث الفكر فاننا اذا وضعنا العقل امام صفحة الوجود فانه سينتهى بنا حتما الى الايمان بوجود خالق لهذا الكون الهائل وان هذا النظام الكونى الرائع لابد وان تحكمه وتسيره ارادة واحدة هى الارادة الالهية وان وحدانية الخالق حقيقة تعلو على اى نقاش وتتعدى حدود الجدول او الحوار إذ لا جدل اولا حوار فيما هو مطلق والايمان بوجود اله واحد له الامر من قبل ومن بعد هو الواقع المطلق الذى يسلم به العقل دون جدل او هو من المسلمات العقلية عند ذوى الرشد فلا رشد لمن يشك فيها او ينكرها فاذا ازددنا علما واكتمل لدينا العقل كان ايماننا بالله وخشيتنا الله وطاعتنا لله أقوى لدينا ممن لا علم لديه أو اختل لديه التفكير وتقاعس لديه الذكاء عن الادراك الواعى المستقيم ، وكانت دعوة العقل أول ما قامت عليه الدعوة الاسلامية دون غيره من الدينين السماويين اللذين سبقاه اليهودية والمسيحية فقد قام الايمان بهما والدعوة اليهما على المعجزات التى وافى بها الله موسى وعيسى عليهما السلام .

وحفلت ايات القران الكريم بالدعوة الى الايمان القائم على العقل والتفكير وكلما ازددنا تفكيرا وادراكا كان ايماننا بالله وخشيتنا الله اشد واقوى كما يقررها الذكر الحكيم : « انما يخشى الله من عباده العلماء » والتأمل فى خلق الله أساس الايمان .

« الم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور » فاطر : ٢٧ ، ٢٨

وما من يوم الا ويكشف فيه العلم عن حقائق جديدة أو يعرف فيه الانسان من اسرار هذا الوجود الكونى ما كان يجهل من قبل لتصدق كلمات الله ويبين الحق من الباطل :

« سنريهم اياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » فصلت ٥٣ وقد أخذ العلم يقترب من الدين في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الحالى بعد ثورة التكنولوجيا والكشف عن قوانين الفضاء واكتشاف اجرام سماوية لم تكن معروفة من قبل وما كان من معرفة باسرار المادة حطمت كل ما كان من قوانين صاغت النظريات العلمية فى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين حتى اذا كشف العلم عن قوانين المادة وقوانين الذرة واسرار الطبيعة أخذوا يطبقون قوانين الفيزياء أو الطبيعة على مبادىء الفلسفة والأخلاق .

وبهت العقل الانسانى من روعة هذا الكون وجلاله ولم تعد قوانين المادة التى اتخذت منها الفلسفة اساسا للمعرفة والعلم بطبيعة الاشياء بمنأى عن الفكر التجريدى ويبدو انهما يقتربان اقترابا يؤكد عجز الانسان عن ادراك سر هذا الوجود وقصور معرفته بهذا الكون الهائل وان ما جاءت به الاديان السماوية وما حفل به القران من ايات تخبر عن اشياء مازالت غائبة عن ادراكنا العقلى ولم يتسن لانسان ان يدعى رؤيتها او الاتصال بعوالمها الحافلة كالجن والملائكة ولكنه أمام ما يكشفه كل يوم من اسرار الكون لا يملك غير التسليم بها ويتضاءل لديه كل ما حفلت به الفلسفة المادية من تفسير اخذ العلم يثبت عجزها وفشلها ولم تعد للقوانين الطبيعية دقتها المزعومة وانها لا تفسر حركات الكون وسكناته الا على وجه التقريب . (١)

ولا نحب ان نزعم تأييدا لما اخبر عنه القران الكريم ومن قبيل ذلك ما كان من اختلاف في تفسير آية « رب المشرقين ورب المغربين » فنرى « محمد فريد وجدى - وهو من المحدثين - يفسرها بقوله : « اى رب مشرقى الشتاء والصيف ومغربيهما - وفي صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى (٢) وهو ايضا من المحدثين وان اعتمد على ما سبق من تفسير الاقدمين كابن كثير وغيره - يقول : « ان الله جل وعلا هو رب مشرق الشمس والقمر ورب مغربهما » ولا يقترب كلاهما من الحقيقة وقد جاء « المنتخب في تفسير القران الكريم » الصادر عن المجلس الاعلى للشئون الاسلامية شارحا النهج الذى احتذته اللجنة التى قامت به بقوله .

« ان كثيرا من قراء التفسير - سيما في العصر الحديث - يهمهم أن يقرأوا ما يمكن ان نطلق عليه (التفسير المصفى) ذلك التفسير الذى يستخلصه العلماء خلال رحلتهم العلمية بين علوم القران والسنة والفقه والاصول والمنطق واللغة والسيرة والتاريخ والحضارة والطب والطبيعة والكيمياء وسائر العلوم الانسانية .. » .

---

١ - العقاد عباس محمود : عقائد المفكرين في القرن العشرين : قوانين المادة ص ٤٥ وما بعدها

٢ - دار القران الكريم - بيروت على نفقة السيد حسن عباس شربتلى

وختم تقديمه للتفسير بقوله ان القراءة الواعية له « تزيدنا علما ومعرفة بالكون وهو كتاب الله المنظور وبالقران وهو كتاب الله المسطور » فكم من ايات هذا الكون العظيم بقيت خفية على الاذهان حتى كشف عنها العلم الحديث ومازال من اسراره الكثير والقران صدق ان عجز العلم عن اللحاق به فليس فيه ما يمكن ان ينفضه او يناقضه وان عجز المفسرون عن بيانه فلا يتسنى لهم ان يدركوا معناه حتى يروا من حقائق الكون رأى العين ما لم يتسن لهم رؤيته من قبل ولا اقول ما يثبته العلم فكم عجز العلم عن إدراك الحقيقة وليس لنا ان نتخذ من العلم مصداقا لما جاء به القران من وصف او اشارة لعمارة هذا الكون ما خفى على الرؤية المحدودة والنظرة القاصرة فالعلم متغير وعمارة الكون ثابتة - كما قلنا - فعندما عرفنا ان الشمس تشرق وتغرب مرتين خلال يوم كامل فبينما هى مشرقة على نصف الكرة الشرقى اذ هى غاربة على نصفها الغربى فاذا استدارت الارض في دورتها اليومية حول محورها في مواجهة الشمس غمرت بالضياء ما كان مظلما في ليله فأصبح نهارا بينما غمر الظلام أو الليل ما كان مضيئا فى نهاره فأصبح ليلا وكان هذان المشرقان والمغربان يتعاوران الكرة الأرضية خلال اربع وعشرين ساعة هى امتداد اليوم الكامل .

ومازالت مصر بحمد الله كنانة الله في ارضه - من ارادها بسوء قصمه الله - حامية الاسلام وحاملة لوائه المظفر فكان هذا « المنتخب في تفسير القران الكريم سبقا فريدا في النهج وفي الاطار وفي الصياغة فلا يغضى عن تفاسير الأولين فاذا كان ثمة جديد يذكر جعل له هامشا مستقلا كما كان في تعليق العلمى على الايات ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، من سورة القصص بقوله تعالى :

« قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه افلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . »

إفصاحا عن الاعجاز الإلهى في خلق الكون وما كان منه للارض حتى يتعاورها الليل والنهار«فينشأ السكون في الليل والسعى في النهار ويتهيأ الجو الصالح لحياة الانسان والحيوان والنبات وهذا فضل من الله على عباده يستدعى الإقرار بقدرته ودوام شكره»(١)

فاذا جئنا الى تفسير الاية ٣٣ من سورة الرحمن وما بعدها حتى الاية ٣٥ « يامعشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان فبای الاء ربكما تكذبان . يرسل عليكما ، شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران فبای الاء ربكما تكذبان »

فاننا امام تفسيرين جاا فى وقت واحد : تفسير المنتخب والاخر صفوة التفاسير يقول انه « تفسير للقران الكريم جامع بين المأثور والمعقول مستمد من اوثق كتب التفسير : الطبرى - الكشاف، لقرطبى ، الالوسى ، ابن كثير، البحر المحيط ، وغيرها، وهو جهد لا شك قمين بالتقدير الا انه يتصدى للظاهرة الكونية فينكرها وان بدت لناظرها مرئية واضحة ويختلط لديه المعنى ويختل التفسير وقد لا يعنينا تفسيره قدر ما يعنينا تعليقه الهامشى اذ يقول « جنح بعض المتأخرين في هذه الايام الى تفسير الاية تفسيرا خاطئا فزعموا ان الانسان يمكنه الصعود الى السموات والى الكواكب وفسروا السلطان بالعلم وهو مخالف

---

١ - هامش القصص ٧١ - ٧٣ ص ٥٨٦ من المنتخب

لاقوال المفسرين ويرده سياق الاية وسباقها فان الاية سبقت لبيان اهوال الاخرة وشدائدها بدليل قوله تعالى (سنفرغ لكم ايها الثقلان) وقوله بعدها (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس) وقد اتفق المفسرون على انها في الاخرة ونحن لا نستنكر امكان وصول الانسان بالصواريخ والمخترعات الحديثة الى القمر او بعض الكواكب فان ذلك في مقدور الانسان ويستطيع بواسطة العلم ان يدور حول الارض ويعلو في الاجواء ولكنه لا يستطيع ان يصل الى السماء فقد جعلها الله سقفا محفوظا اما القمر وسائر الكواكب فهي دون السماء الدنيا ويمكن الوصول اليها ولكننا نستنكر ونتعجب ممن يتهجم على القران بدون علم ولا فهم ، ويقول فى كتاب الله برأيه دون الرجوع الى أقوال المفسرين المعتمدين » .

فاذا جئنا الى تفسير المنتخب نراه يسلم بقدرة الانسان « على النفاذ المحدود من نطاق جاذبية الأرض وان النفاذ المطلق من أقطار السموات والأرض التى تبلغ ملايين السنين الضوئية لانس أوجن مستحيل» كما يشير الى طبيعة النحاس والى درجة انصهاره العالية ولم يكن ذلك معروفا من قبل وعجم على المفسرين تفسيرها في حينها ولا ينفى تفسير السلطان بالعلم قدرة الخالق وجلاله وتوقيره وقهره ، فما العلم إلا وسيلة للكشف عن عظمة الخالق ماثلة فى كونه الرائع ، وهو بعض هبة الله للانسان دون غيره من مخلوقاته التى تعمر بها الأرض ، فكلما أزددنا معرفة بهذا الكون أزددنا ايمانا بالله وخشية له .

وقد سئل « اينشتين » صاحب نظرية النسبية وأبرز علماء القرن العشرين أيؤمن بوجود اله خالق ؟ فأجاب : ان من هذا الكون الهائل ما يعجم على ادراكنا ولابد ان هناك قوة عليا أبدعته وتديره ولا يغير من صفته أن يدعى بأى اسم ولعل في قوله هذا ما يفسر (تعدد اسماء الله الحسنى) وفي قوله تعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء » لأن « أحق الناس بخشية الله هم العلماء الذين عرفوا اسرار اختلاف الموجودات » (١) مايؤيد ذلك .

ولعل ما ذهب اليه مؤلف « صفوة التفاسير » نوع من الانفصام الفكرى بين الماضى والحاضر « وأحد أسباب هذا الانفصام - كما يراه الدكتور عبد الصبور شاهين - ان من يتولون سدانة الفكر الدينى لم ينهضوا لمواجهة تحدى العصر ربما لانهم فعلا غير فاهمين لرسالتهم الا على انها استحضار لماض أثـرى لا علاقة له بحاضر وربما لتوهمهم انه لا تحدى أصلا » (٢) .

وقد كان المستشرق الانجليزى « رينولد الين نيكلسون » (١٨٦٨ - ١٩٤٥) صاحب الدراسات الوافية في الفكر الاسلامى اول من فسر كلمة « سلطان » بالعلم بمعنى الوسيلة التى يكشف بها العقل الانسانى عن قدرة الخالق ويدرك قدرة الله التى لا نعلم عن مداها غير القليل ، بقوله تعالى فيما لا يصل اليه علم الانسان :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا » الاسراء ٨٥

ويصدق هذا ما كشف عنه العلم من اسرار هذا الكون العظيم الهائل وما يكشف عنه كل حين حتى يتبين لهم ان ما جاء به الاسلام على لسان نبيه هو الحق بقوله تعالى :

« سنريهم اياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق او لم يكف بربك انه على كل شىء شهيد » فصلت ٥٣

١ ـ هامش ص ٦٤٨ في تفسير الاية ٢٨ من سورة فاطر

٢ ـ من مقدمة ترجمته لكتاب « الاسلام يتحدى تاليف وحيد الدين خان : ص ١٤

فان ما وصل اليه العلم الحديث او سيصل اليه « هو بمثابة تصديق لما اسماه الاسلام « الحقيقة الاخيرة » قبل اربعة عشر قرنا من الزمان » (١) فالعلم ليس الا استقراء لواقع الاشياء فيما تدركه الرؤية الغامضة او البحث التجريبى بخلاف الفكر الذى يقوم على الاستنباط العقلى ومازال كلاهما : الرؤيا الفاحصة أو البحث التجريبى والاستنباط العقلى لا يثبتان على حقائق جازمة الا فيما يقدمه العلم من وسائل للكشف عما يستطيع من معالم هذا الكون الهائل كما قدم الينا منذ خمسة قرون الوسائل الملاحية التى أدت الى كشف الامريكتين فعرفنا من العالم نصفه الاخر الذى بقى مجهولا للعالم القديم ولما توالت الكشوف الفلكية عرفنا عن مجموعتنا الشمسية ما لم نكن نعرف من قبل او عرفها المسلمون ونسوها حين غابت عنهم علومهم وتوالت الكشوف لنعرف ان هناك مجموعات شمسية اخرى لا يحصيها العد تمضى في مسيرتها الأزلية بنظام لا يمكن ان يتخيل الانسان مدى احكامه ودقته لأنه نظام يجاوز حدود العقل الانسانى ولا يستطيعه غير صانعه الذى خلقه وسواه وهيمن عليه هو :

« الله لا اله الا هو الحى القيوم لاتأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم » البقرة ٢٥٥

وقد لا يتسنى لنا ان ندرك ماهية هذا الكون ومداه ما لم نع تلك الحقيقة التى كشفت عنها أبحاث الفضاء وعلوم الفلك فالكرة الأرضية التى نعيش فوقها بالنسبة للمجموعة الشمسية التى ننتمى اليها لا تزيد على حجم راس الدبوس بالنسبة لحجم الكرة الارضية وهذه المجموعة الشمسية واحدة من بلايين المجموعات الشمسية التى تسبح في المجرة وهذه المجرة التى تسبح فيها مجموعتنا الشمسية واحدة من بلايين المجرات في هذا الكون الفسيح وليس في قدرة انس او جان من مخلوقات مجموعتنا الشمسية وان غابت رؤيتهم عنا ان ينفذوا من نطاق مجموعتهم الشمسية فما ان ينفذوا حتى يذوبوا في الفضاء اللانهائى .

وقد أدرك الانسان بعد ان ولج به العلم آفاقا ما كانت ترد على بال أو خاطر فرصد الأفلاك واخترق الفضاء ونزل على سطح القمر، وراد الكواكب الأخرى للمجموعة الشمسية انه ما زال عاجزا عن ادراك حقيقة هذا الكون حيث راى فيه ما لا يدرك مداه ففاض ايمانه المطلق بقدرة العلم وانزله من عليائه التى حلق فيها طوال القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين ليضعه على الأرض ولم يعد العلم نقيضا للدين ـ وهو ما يراه « البرت اينشتين » فالعلم ـ كما يقول ـ يتناول ما هو كائن لا ما ينبغى أن يكون فلا تدخل القيم في نطاقه كما لا يدخل البحث في الحقائق وما بينها من علاقات في الدين .

وبالرغم مما يراه اينشتين من انفصال العلم عن الدين في ميدان البحث العلمى فانه يرى العلاقة بينهما قوية متبادلة وان كلا منهما يعتمد على الاخر في بعض نواحيه فالدين يحدد غايته وهدفه والعلم لا يدركه ولا يكشف عنه غير المنتشين بحب الحق والادراك السليم وهو شعور ينبع من الدين كما ينبع منه الايمان بان القواعد التى تجرى على الوجود مما يمكن ادراكها بالعقل فيقول .

١ ـ المصدر السابق . الباب الاول ص ٢١

« ان العلم بغير دين اعرج والدين بغير علم اعمى » (١) .

ولم يكن ثمة تناقض بين الدين والعلم في الحضارة الاسلامية قبل ان تبور فيها النظرة العلمية وتزحف الخرافة على معالم الدين ومما يؤثر عن الفكر الهندى المسلم المعاصر « همايون كبير ـ قوله :

« ان الدين اذا تجرد من العقل والمنطق وقام على الايمان والتسليم فحسب يبقى عرضة للاختلافات الناجمة عن اختلاف شخصية الافراد وأمزجتهم فاذا قام الايمان على العقل نضبت موارد الخلاف لان العقل بطبيعته كلى والحق هو ما يقبله العقل » (٢)

والاسلام ـ كما يرى الشيخ مصطفى عبد الرازق استاذ الفلسفة الاسلامية والوزير وشيخ الازهر اول دين خاطب العقل ودعاه الى النظر في اسرار هذا الخلق العظيم من حيوان ونبات وجماد ورفع القران من شأن العقل فأطلق العنان للفكر ما شاءت قوته عظة واستدلالا وما قولك في دين يقول ائمته بترجيح العقل على ظاهر الشرع عند التعارض والدين طريق القلب والفلسفة طريق العلم والنظر » .

وقد نرد بوار العقل العربى ونضوب الفكر الفلسفى الى ما كان من صراع سياسى حول السلطة والملك صحبه صراع فكرى كان نتيجة مباشرة للصراع السياسى اتخذ من الدين أداة لتحقيق الهدف السياسى المنشود لمن ينشد السلطة كما غدا أداة لتدمير الجوهر الذى تقوم عليه العقيدة الاسلامية فأنبعثت الفرق الضالة التى توارت أمام زحف الاسلام الباهر فى عهد الراشدين وموجة الفتوح المظفرة فى عهد الامويين وأخذت تطل برأسها مرة أخرى حين شغل المسلمون بالصراع السياسى وقد أتخذ طابعا دينيا فيما بينهم يصفه سيد أمير على بقوله :ـ

« ما من طالب من طلاب الفلسفة يبحث في تاريخ الدين يطالع عنوان هذا الفصل الا ألمت به الدهشة ان لم يعصف به الالم وما من مسلم يخلص للمبعوث بدينه الا واجتاحه الخزى والاسى واأسفاه ! ان دين الانسانية والاخوة العالمية لم ينج من لعنة النزاع والصراع القاتل وان الايمان القمين بالسلام والسكينة لعالم مزقته الأهواء قد غدا هو نفسه نهبا ممزقا من اثر النزوات الجانحة وشهوة الحكم والسلطان ان المساوىء التى نعيناها على المسيحية قد نجمت من قصورها عن الوفاء بحاجة النظام والمطالب الانسانية اما في الاسلام فان المساوىء التى تعرض لها كانت من جراء الطمع الجانح فى المجد الدنيوى ونوازغ الافراد الثائرة والفئات المتمردة على النظام وقانون الأخلاق .

لقد انساح العرب المتناحرون من بدو الصحراء بدعوة نبى الاسلام العظيم في الافق بعد تناحر واخوة بعد شقاق وفي موجة من الحماس العارم حاملين مشعل الهداية الانسانية داعين الى التوحيد لقرن واحد حفل بالآبهة والجلال مدوا خلاله حكمهم من سد الصين الى سيف الأوقيانوس ليطاول الزمن على مدى الزمن حيا لا يبور وان الحق بأصحابه الوهن بعد ان ارتد حملة لوائه من العرب الى ما جبلوا عليه من ذاتية وتمرد وشقاق عصف بدولتهم كما عصف بقبائلهم من قبل وسرعان ما انهد ذلك الصرح الشامخ الذى شاده اولئك المسلمون الاوائل الذين اخلصوا لدينهم وان بقى الاسلام حيا في عقيدته وقرآنه وسنة نبيه

---

١ ـ المؤلف : الاسلام وروح العصر : سلسلة كتابك ع ٩٠ ص ٤٤ دار المعارف

٢ ـ العلم والديمقراطية والاسلام ترجمة عثمان نويه .

برغم ما لحق ايمان المسلمين من وهن وما حل بعقولهم من اباطيل وخرافات مازالوا يجاهدون للخلاص منها . .

ويصف الامام الشيخ محمد عبده ، ما أصاب المسلمين من جمود ويرده الى آفة السياسة ويستعيذ بالله منها « فانها من ابعد الامور عن الدين » مما لا يصح ان ينسب الى الاسلام وقد رأيت صورة الاسلام في صفائها ونصوع بياضها ليس فيها ما يصح أن يكون أصلا يرجع اليه شيء مما ذكرت ولا مما تنبأ بسوء عاقبته « رينان » (١) وغيره وانما هى علة عرضت للمسلمين فى افئدتهم وكان السبب فى تمكنها من نفوسهم واطفائها لنور الاسلام من عقولهم هو السياسة كذلك هو تلك الشجرة الملعونة فى القرآن : عبادة الهوى واتباع خطوات الشياطين هو السياسة » .

ولا نجد فيما قاله الامام الشيخ ما يخرج عما قاله سيد امير على بل ان علة الجمود مما يجمع عليها كافة المؤرخين من المسلمين ، بينما يردها بعض المستشرقين من ذوى الهوى الى قصور الاسلام عن مسايرة العلم والتقدم وان كان منهم من أنصف الاسلام وعاب المسلمين .

وكان كفاح الرجلين لتنقية الاسلام مما شابه على ايدى اصحابه من اباطيل والعودة به الى تعاليمه التى ازدانت بها العصور الوسطى وانارت شعلتها الجزيرة العربية وانبعثت منها الى المشرق والمغرب وعاصرا بعضهما وكان لكل منهما لمساته في النهوض بالمسلمين في بلده ولكل منهما اجتهاده ودعوته للتكييف الحضارى في حمى الاسلام (٢)

الا أن ما أصاب الفلسفة من الفرق الضالة كان اشد مما اصابها من دخل السياسة وحبائلها فحين لج بعض علماء الفلسفة في جدل دينى حول القضايا « التى اثارها من ادعى الاسلام من شيع الفرس والاعاجم وحملها الجدل ولدد العناد على الخلط بين العقائد الدينية وما لا ينطبق على اصول النظر انبرى لهم من بين الجماعة من أدحض لهم بعض قضاياهم وخاف الخلفاء شر الفتن فأمسكوا عليهم حريتهم وسقطوا في هاوية كانت خاتمة أمرهم في الاسلام » (٣)

وقد لا نلقى اللوم على جانب دون الآخر ، فلولا خشية الخلفاء ضياع الملك ما لقيت الفرق الضالة الميدان فسيحا لدعوتها وممارسة نشاطها وإن كان لاختفاء العنصر العربى من الحياة العامة أثره البارز فيما جد من تخلف اجتماعى ترك معالمه بارزة على العقل العربى ، حين اعتز المعتصم العباسى (١٧٩ - ٢٢٧ هـ) - وقد تولى الخلافة لمدة ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام من ١٩ رجب ٢١٨ هـ (١٠ اغسطس ٨٣٣) - بموالى الاتراك على العرب والفرس ، يرى الشيخ الخضرى أن اعتزازه بهم أدى الى ضعف العنصر العربى ضعفا عظيما فتفرق قبائل وعصائب وعاد الكثير منها الى مواطنها في القفر والصحراء والذين بالمدن لم تبق لهم عصبيات يستندون في حياتهم اليها وكذلك ضعف الموالى الخراسانيون

---

١ ـ كان الفيلسوف والمستشرق الفرنسى ارنشت رينان قد ابدى رايا في الفكر الاسلامى فنسب اليه العقم والجمود وتصدى له الامام وفند اقواله ـ انظر كتاب الهلال العدد ١٤٤ ربيع الاول ١٣٨ (سبتمبر ١٩٦٠)

٢ ـ ولد سيد امير على عام ١٨٤٩ والامام محمد عبده عام ١٨٤٥ وتوفى عام ١٩٠٥ وعاش بعده سيد امير على حتى عام ١٩٢٨

٣ ـ محمد كرد على : المصدر السابق ص ٢٩

لضعف ثقة الخلفاء بهم فاختل التوازن بين عناصر الدولة ووجد غلمان الاتراك انفسهم منفردين بالملك مستأثرين به وليس أمام الخلفاء الا هم فاستحكم نفوذهم وصاروا هم الآمرين » (١).

ومع ما بلغته الحضارة الاسلامية من ازدهار بلغ أوجه في خلافة الرشيد والمأمون وغدت بغداد حاضرة العلم والثقافة وحرية الرأى إلا أن الدولة الاسلامية التى شادها الخلفاء الاوائل في عصر الراشدين ومضت اعلامها خفاقة تحت حكم الامويين قد أخذت تتهرأ في ظل العباسيين فوقفت موجة الفتوح وانفصلت اطرافها عنها فقامت الخلافة الأموية في الاندلس وما لبث الادارسة ان غلبوا على المغرب الأقصى والاغالبة على افريقية

والفاطميون على مصر ولم تقم من بعد دولة اسلامية واحدة كما كانت في عصر الراشدين والأمويين وعجز العثمانيون رغم اقتحامهم اوربا عن اقامتها ولعل الزمن يعود بها من جديد في ظل جامعة اسلامية تحمل رسالة الحق والخير والجمال تعلى من كرامة الانسان وتوفر الحياة البشرية كما أجملتها تعاليم الاسلام .

وقدبقيت بغداد رغم ما انتاب الخلافة العباسية من وهن منتجع الحضارة والتمدين والعلم والثقافة وأضفى عليها الرواة منذ البداية من القصص ما يشبه الأساطير اكبارا واجلالا للنور الذى يشع منها ليسع العالم أجمع بالعلم والمعرفة حين اختار ابو جعفر المنصور موقعها ليقيم عليه حاضرته الجديدة في منتصف القرن الثانى الهجرى (٧٦٥م وظهرت الى الوجود « مدينة الخلفاء الرائعة - كما يقول سيد امير على - كما تظهر عروس البحر من بين الأمواج بتأثير العصا السحرية لكبار مهندسى العصر ويقول «أنها كانت مصيفا لكسرى انو شروان ملك الفرس المشهور وانها اشتقت اسمها « جنة العدل » مما عرف عنه من عدالة يحكم بها بين رعاياه وما أن زالت من الوجود مملكة فارس حتى ذوت من جديد لتشرق منها شمس الحضارة الاسلامية لا يشاركها فيها غير القاهرة وقرطبة ففى تلك المدن الثلاث ازدهرت حضارة الاسلام وفي تلك المدن الثلاث هبت ريح التحيف على تعاليم الاسلام وذوى التيار العقلى ولم تجد الفلسفة مكانا لها بين الفرق الضالة التى لبثت طويلا تترقب البادرة التى تترو من خلالها على العقيدة الاسلامية وواتتها الفرصة حين استشرى الصراع على السلطة بين العباسيين والعلويين والفرس وبدت البادرة بمقتل ابى مسلم الخراسانى ونكبة البرامكة على يد الرشيد من بعد وزحف العناصر التركية على مناصب الدولة ومع ما اضفاه العباسيون على الخلافة من عصمة وقداسة مدتا في عمرها حتى بعد ان قضى عليها التتار فى بغداد فانها عجزت عن مواجهة الابتداع والفرق الضالة التى أورت نيران الفتن واثارت العديد من القلاقل ومزقت الفكر الاسلامى الذى بلغ قمة ازدهاره في خلافة المأمون ولم يكن من جاءوا بعده على مستواه ذكاء وقدرة وعلما فغدت حرية الرأى اثما والفلسفة العقلية جرما وكانت الفرق ذهب كل منها برأى وتسلل اليها اليهود والمجوس فكان انحراف الكثير منها خرقا في العقيدة لم يلتئم صدعه وكانت الفرق التى وقفت موقفا إذا من العقيدة الاسلامية فتحيفت عليها ودست فيها ما تنكره شريعة الحق وما تجفوه روح الاسلام

ولم تسلم الفلسفة والفكر الفلسفى من الجور رغم ما بلغته من ازدهار في الحضارة الاسلامية إستقت منها اوربا بواعث نهضتها الحديثة ولم يكن الحوار الفكرى في عهد الدولة

١ - الشيخ محمد الخضرى بك . محاضرات تاريخ الامم الاسلامية : الدولة العباسية طبعة اولى ١٣٢٤ هـ - ١٩١٦ م

الاموية يتعدى الفرق بين الامامة والخلافة اذكان الامويون يدعونها لانفسهم بحكم ما كان لهم من عصبية في مكة قبيل الاسلام والشيعة يرونها لآل البيت والعباسيون يقولون انها لهم ويتمثلون بقول القائل:.

انـــى يكـــون وليـــس ذاك بكـــــــائن
لبنـــى البنـــات وراثـــة الأعمـــــــام

والخوارج يرونها حقا لكل مسلم ولمن يختاره المسلمون وكانت الحرية التى اضفاها الاسلام على الفكر معوانا للمسلمين على النظر والتأمل فعمت المناقشات الفلسفية في كل حاضرة من حواضر العالم الاسلامى ويرى سيد امير على ان اول من ولج ميدان المناقشات الفلسفية كان الامام جعفر الملقب بالصادق حفيد الامام على بن ابى طالب « ويراه » اول من اقام دعائم المدارس الفلسفية المعروفة في الاسلام ولم تكن حلقته قاصرة على اولئك الذين اصبحوا فيما بعد رواد المذاهب الفقهية كأبى حنيفة والامام مالك فحسب بل كان يومها الفلاسفة والمتفلسفون من كل حدب وصوب ومنهم الحسن البصرى وواصل بن عطاء وكانا من القائلين بحرية الارادة .

ولم يلبث الفكر العربى الاسلامى ان اتصل بالفلسفة اليونانية فترجمت كتبها في عهد الرشيد والمأمون واقبل كثير من المسلمين على ما ترجم منها باحثين ومفسرين وناقدين ومن انبههم ذكرا ابو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندى شيخ فلاسفة العرب بحق وقد عاصر المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل من خلفاء العباسيين والفارابى (٣٣٩ هـ) ولقب بالمعلم الثانى ، أما الأول فهو أرسطو ، واتصل بسيف الدولة الحمدانى وعمل فى بلاطه والشيخ ابن سينا (١) ، ولقب بالشيخ الرئيس (٤٢٨ هـ) وخاض فى الفلسفة والطب والفلك والرياضيات والعلوم الشرعية ولما يبلغ العشرين ـ كما قيل ـ وحجة الاسلام الغزالى ـ ابو حامد محمد (٥٠٥ هـ) الفقيه المتكلم والفيلسوف الصوفى وان كان ممن عابوا الفلسفة وأنكر مباحثها ، إلا أنه فى أبحاثه حذا حذوها وسلك نهجها ، وقد حارب بعض الخلفاء والعامة الفلسفة والمشتغلين بالدراسات الفلسفية ، واضطهدوا الفلاسفة واتهموهم بالزندقة حتى لقد نودى» ببغداد فى سنة ٢٧٩ هـ بألا يقعد على الطريق منجم وألا تباع كتب الفلسفة » وفى الأندلس « قضى الحاجب : المنصور ابن ابى عامر على الفلاسفة وأمر بأحراق كتبهم مع ميله الى الفلسفة وانما فعل ذلك ليتقرب من العامة » (٢)

الفلسفة والفرق الضالة

لم يكن انكار البعض للفلسفة ولا جفوة من نالها من الحكام انكارا لحرية الرأى او التفكير او النظر والمشاهدة والحكم فكلها مما حث عليها الاسلام «فحسب العقيدة الصالحة من صلاح انها تنهض بالعقل والقريحة ولا تصدهما عن سبيل العلم والصناعة ولا تحول بين معتنقيها وبين التقدم والحضارة .. والعقيدة الدينية هى فلسفة الحياة بالنسبة للأمم التى تدين بها وانها لا تعارض الفلسفة في جوهرها وان الفلسفة تصلح للاعتقاد كما تصلح

١ ـ ابو على الحسين بن عبد الله بن سينا ولد في أفشنة قرب بخارى .

٢ ـ الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى الجزء الثالث ط ٣ ص ٣٨١ والمنصور محمد بن عبد الله بن ابى عامر ولقبه الحاجب ـ ارفع مناصب الدولة ـ ابرز قادة الاندلس بعد عبد الرحمن الناصر ، ويرى دوزنى مؤرخ الاندلس ـ أنه أكسب الاندلس قوة لم تعرفها من قبل حتى في عهد عبد الرحمن الناصر ـ وكان كل ما قام به للخير العام .

العقيدة للفلسفة .. وايا كانت العلاقة بين موضوع الفلسفة وموضوع الدين فليس في وسع فيلسوف صادق النظر ان ينسى ان الاديان قد وجدت بين جميع البشر فانها - من ثم - حقيقة كونية لا يستخف بها عقل يغطه معنى ما يراه من ظواهر هذه الحياة».

ولا يختلف ما قاله العقاد في كتابه - الفلسفة القرانية هذا عما ذهب اليه محمد كرد على - في مؤلفه الكبير « الاسلام والحضارة العربية - من حيث النظرة العامة وان ساق فيه علة ما كان من انكار الفلسفة بسبب ما اثارته من جدل دينى اثاره من ادعى الاسلام من شيع الفرس والاعاجم زج بعض علماء الفلسفة انفسهم فيه .. وخاف بعض الخلفاء شر الفتن فامسكوا عليهم حريتهم وسقطوا في هاوية كانت خاتمة امرهم في الاسلام ولولا ذلك ما وقف أمام العلم والصناعة متعنت ولا وقفت الحضارة الاسلامية عند حد محدود .

وكانت البداية - كما يقول محمد كرد على - حين وقع التناحر بين الفرس والدولة الاموية اثر مأساة كربلاء وتشيع الفرس للحسين بن على اذ كانوا يرونه وبنيه أحق بالخلافة اذ يجرى في عروقهم أشرف دم عربى وأنقى دم فارسى وكانت مأساته الحية التى قصمت كيان الدولة الأموية يصفها المؤرخ ادوارد جيبون بقوله : « ان مأساة الحسين المروعة وان تقادم عليها العهد وتباين بها المكان لابد وان تثير الاسى والتعاطف لدى اى انسان مهما بلغ من ضآلة الاحساس وقسوة القلب » .

وقد بدأت موجة العداء تعصف بالقلوب اثر مقتل الحسين حتى أن عبيد الله بن زياد حين خطب في الناس بعد مقتله وجاء فيها « ونصر الله أمير المؤمنين يزيد وحزبه وقتل الكذاب بن الكذاب وشيعته » نهض اليه - عبيد الله بن عفيف - يقول : « ياعدو الله : ان الكذاب انت وابوك والذى ولاك وابوه ، تقتل اولاد النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين » وكانت مأساة كربلاء - او مذبحة كربلاء بمعنى أدق - وكما يصح ان توصف ذروة الخلاف الدامى بين المسلمين منذ بدأت سورته في خلافة عثمان واستشرت في خلافة على بن ابى طالب ولم ينطفىء لهذا الخلاف اوار من بعد ومن خلاله تسللت الدعاوى الخبيثة للنيل من الاسلام والمسلمين وامتدت على الزمن الى يومنا هذا ولم تهدأ بعد .

وكانت الخلافة وما تضفيه من سلطان على صاحبها محور الخلاف ولولا حكمة الشيخين وجلال قدرهما في الاسلام لاستشرت سورة الخلاف ولذهب المسلمون منذ البداية فرقا واحزابا متناحرة ويرى - سيد أمير على - مستشهدا بقول - سيديو « ان الخلافة الوراثية لو امتدت لعلى واعترف لهبها منذ البداية لحال ذلك دون الدعاوى الوبيلة التى أغرقت الاسلام بسيل من دماء المسلمين ذلك ان عليا وهو زوج فاطمة الزهراء - جمع في شخصه حق الوراثة وحق الانتخاب وربما يذهب الظن بالباحث ان الجميع سيحنون رءوسهم لهذه الهالة المقدسة التى بلغت أعلى مراقى السمو والعظمة بيد ان الأمر لم يكن كذلك .

ولئن سبق التشيع استشهاد الحسين بكربلاء الا انه لم يتخذ قالبه الدينى الا بعد حادث كربلاء فغدا تشيعا للعلويين وايثارهم بالخلافة او امامة المسلمين . كما هى في مذاهب الشيعة على اختلافها وكانت من قبل صورة للاثرة العنصرية حين غلب العرب الفرس وغدت لهم السيادة عليهم وكان اغتيال الفاروق عمر اعظم من أنجب التاريخ حكما وعدلا وكان فتح فارس وسقوط ملك الساسانيين على عهده صورة عنيفة للعنصرية البغيضة عجزت سماحة الاسلام ومساواته بين العرب والعجم واعلاء الاخاء الاسلامى على اى رباط شعوبى-

او قومى كما اصبح يعرف بلغة العصر - عن القضاء عليه او تقضى على نعرته وكانما قد تناسى المسلمون حديثه عليه الصلاة والسلام :

« لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على ابيض ولا لأبيض على أحمر الا بالتقوى » .

وترد الاية الكريمة :

« يأايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » الحجرات أية ١٣ .

لتجب التفاوت العنصرى والطبقى بين الناس وتقضى على التمايز والاستعلاء بين الشعوب والقبائل .

وكان الائتمار على حياة الخليفة الثانى بعض ما نم عن ترة بقيت قابعة في إفئدة لم تكن راضية عن المصير الذى انتهت بهم اليه الفتوح الاسلامية حين ازالت عنهم ما كانوا يمتازون به في دولتهم قبل أن تصير للمسلمين فقد أئتمر على حياته فارسيان ونصرانى من نصارى الحيرة اما الفارسيان فهما الهرمزان وابو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة واما النصرانى الحيرى فجفينة وكان الهرمزان من قواد الفرس الذين شهدوا الغزوة الكبرى بالقادسية وانهزموا فيها (١) فلما وقع فى الأسر وجيء به الى المدينة أسلم على دخل بغية السلامة وأكرمه عمر وفرض له الفى دينار وأنزله بالمدينة أما فيروز ففارسى قاتل المسلمين في نهاوند وأسر وأصبح من سبى (المغيرة بن شعبه) وكنيته أبو لؤلؤة وكان نقاشا نجارا حدادا ولعل النصل الذى طعن به عمر كان من صنع يده واما جفينة فنصرانى من نجران وجاء به سعد بن ابى وقاص ليعلم الناس القراءة والكتابة ولعله نقم على عمر انسياح الاسلام على يده انسياحا خشى مغبته على ديانته وكان هناك متأمر رابع لعله أذكاهم وأبعدهم هو كعب الأحبار يهودى (٢) ومن خلال اليهود ان يدخلوا فى ديانة لا يرضون عنها لافسادها ولزمتهم تلك الخلة الى يومنا هذا وبلغ من فكره ان جاء الى عمر يقول « ياأمير المؤمنين أعهد فانت ميت في ثلاثة ايام فسأله : وما يدريك ؟ قال : « اجده في كتاب الله التوراة ! قال عمر : الله .. إنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوارة ؟! قال كعب : لا ولكن صفتك وحليتك وأن قد فنى أجلك ! » .

وعمر لا يحس وجعا ولا الما . فلما كان الغد عدا كعب عليه فقال :

يا أمير المؤمنين : ذهب يوم وبقى يومان . ثم جاءه فى غد الغد وقال : ـ ذهب يومان وبقى يوم وليلة وهى لك إلى صبيحتها » .

فاذا صدق كعب وعلم الناس من قوله لأمير المؤمنين ما قال : اعتقدوا فى صدق ما يقول من بعد مما يتيح له التقول على الاسلام وافساد عقيدة المسلمين .

وكان له ما قال بعد مصرع الفاروق فأخذ ينشر إسرائيلياته والبعض يصدقها ولا يعلمون ابتداعها وأنه مبتدعها . » (٣)

---

١ - د هيكل محمد حسين عثمان بن عفان الفصل الاول ص ١٤

٢ ـ كان كعب من كبار احبار اليهود في حياة النبى صلى الله عليه وسلم وكان يؤم مجلسه مظهرا ميله الى الاسلام مرجئا اسلامه حتى يتحقق من الامارات التى يجدها في كتب قومه عن بعث النبى وأسلم في خلافة عثمان ولعل اسلامه كان رياء بعد ان راى من يكذبه فيما يذهب اليه وخوفا مما قد ينسب اليه من الاشتراك في اغتيال الفاروق

٣ - عمر ابو النصر . خلفاء محمد : ٢٢ الخليفة الشهيد ص ٢١٦

وينعقد الاجماع على هذه الرواية وان كانوا يردونها الى علمه بالمؤامرة وان عمر حين راه مع من دخلوا عليه من الناس بعد أن طعن قال :

توعدني كعب ثلاثا أعدها ولاشك أن القول ما قال لى كعب
وما بى حذار الموت إنى لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

ويرى الدكتورهيكلأن « الفرس واليهود والنصارى قد كانت في نفوسهم حفيظة اى حفيظة على العرب عامة وعلى عمر خاصة بعد ان غلب المسلمون الفرس والنصارى على امرهم في احاديثهم هذه الحفيظة وذكرا قول عمر حين عرف ان الذى طعنه هو ابو لؤلؤة الفارسى : ((قد كنت نهيتكم عن ان تجلبوا علينا من علوجهمأحدا، فعصيتمونى ! » وبالمدينة من هؤلاء العلوج جماعة ان يكونوا قليلين فهذه الحفيظة تجمع قلوبهم وتوغر صدورهم ومن يدرى ! لعلهم ائتمروا فكانت فعلة فيروز ثمرة مؤامرة ارادوا بها شفاء ما في نفوسهم من غل ، وحسبوا انهم قادرون بها على ان يشتتوا شمل العرب ويفتوا في اعضاد المسلمين » (١)

وقد حدث أن راى عبد الرحمن بن عوف السكين التى قتل بها عمر : فقال « رأيت هذه أمس مع الهرمزان وجفينة .. » وقال عبد الرحمن بن ابى بكر : « قد مررت على ابى لؤلؤة قاتل عمر ومعه جفينة والهرمزان وهم نجى فلما بغتهم ثاروا فسقط من بينهم خنجر له رأسان ويصاب في وسطه فانظروا ما الخنجر الذى قتل به عمر فوجوده الخنجر الذى نعت عبد الرحمن بن ابى بكر » .

وكما كان اسلام عمر فيصلا بين عهد عهدين كان مصرعه فيصلا هو الاخر «بين عهدين ففى الأولى كان المسلمون لا يستطيعون أن يصلوا بالبيت العتيق فقاتل قريشا حتى تركوهم فصلوا،وكانت الدعوة الى الاسلام تجرى خفية فجهر بها ودعا الى الاسلام علانية وقيل وان اختلفت الروايات حول هجرته انه حين هم بالهجرة في رواية تنسب الى على بن ابى طالب بانه قال : . « ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر الا مختفيا الا عمر بن الخطاب ، فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يده اسهما واختصر عترته(٢)ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها فطاف بالبيت سبعا متمكنا ثم أتى المقام فصلى ثم وقف على الحلق واحدة واحدة يقول لهم : شاهت الوجوه لا يرغم الله الا هذا المعاطس ! من أراد أن يثكل أمه أو يوتم ولده أو يرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى .

وان كان من المؤرخين من لا يثبت هذه الرواية الا أنها لا تستغرب ممن أعلن اسلامه ويخرج بالمسلمين فى صفين على رأس أحدهما والأخر على رأسه حمزة ولهما كديد كأنه كديد الطحين (٣) فدخلوا المسجد وقريش تنظر فى غليظ فلا يجرؤ سليط منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان ... (٤)

---

١ ـ الفاروق عمر : ج ٢ ف ٢٥ مقتل عمر
٢ ـ العترة ، بفتح العين والنون والزاى عصالها زج كالمرمح القصير
٣ ـ الكديد . التراب الناعم
٤ ـ حياة محمد للدكتور هيكل . مقتل عمر ص ٣٠٩

وفي الثانية قامت الدولة الاسلامية على عهده شامخة عالية الذرى يقيم العدل والحق والمروءة ويضع التشريع تلو التشريع ويرسم السياسة متأسيا بالرسول عليه الصلاة والسلام حتى ليكاد يقترب في إلهامه مما يوحى به الله جل وعلا الى رسوله الكريم وقيل وهو في تمام صحته انه احس بقرب أجله ولما كانت اخر حجة حجها سمع من يقول : « أشعرت ورب الكعبة لا يقف عمر هذا الموقف بعد العام ابدا » وحين صدر عن عرفة وفي الطريق كان هناك من اناخ راحلته ثم رفع عقيرته فقال :

عليك سلام من إمام وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزق
فمن يسع أو يركب جناحي نعامة ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق
قضيت أمورا ثم غادرت بعدها بوائق في أكمامها لم تفتق

وكانت وفاته ختام تلك الفترة المجيدة في تاريخ الاسلام وان مضت موجة المد الاسلامي في انسيابها هادرة الا ان ما دعاه طه حسين ـ « الفتنة الكبرى » قد أخذت تطل برأسها في خلافة عثمان لتبدأ عهدا غير ما كان على خلافة الفاروق أخذت وان بقيت الخلافة الراشدة على عهد ذى النورين وذى الوجه المكرم لتصبح ملكا عضودا على عهد الامويين وملكا الهيا على عهد العباسيين وخلافة مقدسة في ظل العثمانيين .

فاذا كان كعب الاحبار قد علم بمؤامرة الهرمزان وسعى بها الى عمر نبوءة من غير متنبيء ولكنها استقراء لما ادعاه على « كتاب الله التوراة » قد يحمل الناس على الايمان بها وقد يقدمونها على القرآن ما دامت تخبر بما لم يخبر به القران فيفسد على الناس عقيدتهم فانها لم تكن الاخيرة من نوعها بل غدت على مدى الزمن مما يلجأ اليه اليهود لهدم العقيدتين السماويتين اللتين جاءتا بعدها ـ المسيحية والاسلام ـ لا كفرا بهما او انكارا لهما ولكنهما اجبارا ما يدعيانه من تميز وانهما شعب الله المختار ولم يشأ كعب الأحبار أن يشى بما اتفق عليه الجانبان الفارسى والمسيحى ولا شك في انه كان على علم بالمؤامرة وربما ارادوا اشراكه معهم ولكنه كعادة اليهود لا يقدم إلا حين يملك وقد لا تعنيه الوسيلة قدر ما تعنيه الغاية ومادامت الوسيلة لا تصل به الى غاية مأثورة فلا جدوى فيها وخير منها المكر والحيلة والاستخذاء الواعى ولعل فيما اتبعه عبد الله بن سبأ بعض ما ينم عن وسائلهم الماكرة وعبد الله بن سبأ او ابن السوداء يهودى من اليمن امه حبشية سوداء فكنى بها وقد بدأ يثير القوم على عثمان عندما لان جانبه لعشيرته من الامويين وأخذ يجوب الأمصار يؤلب المسلمين على حكمه وقيل انه حمل ابا ذر على عثمان وما كان لأبى ذر ان يستمع له او لغيره وقد أنكر من قبل على كعب الاحبار ان يفتى في امر من امور المسلمين فقال به في حضرة عثمان : « أتعلمنا ديننا يا أين اليهودية » ولا نستطيع أن نسلم بما قيل من أن أبا ذر « تحدى سياسة عثمان ومعاوية واليه على الشام بتحريض رجل من أهل صنعاء هو عبد الله بن سبأ .. (١)

وقد لا يكون لتشهير ابن سبأ بعثمان وسياسته أهمية تذكر ولكن ما نسب اليه من ابتداع في العقيدة واتخاذه جانب على ضد مناوئيه ما يستحق أن يذكر وان يوضع على بساط البحث فما كانت حملته على عثمان الا بادرة لتقويض الدولة الاسلامية فلما انتهت الفتنة

---

١ ـ د . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام : الجزء الاول الباب السادس ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ ويرجع فيها الى الطبرى طبعة دى غويه (١ : ٢٨٥٩١)

بمقتل عثمان بدا دعوته الماكرة بالتشيع. لعلى واتخذ منه وسيلة لابتداع ما دعاه مذهب الرجعة اى رجعة محمد عليه الصلاة والسلام ثم القول بالوصاية بمعنى ان عليا وصى محمد وانه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم الانبياء ونسب الى ابى بكر وعمر اغتصابهما حق على في الخلافة وأخذ يروج لنظرية الحق الالهى التى أخذها عن الفرس وأدخلها على المسلمين ليفسد بها دولتهم وجعل من هذه الدعوة تبريرا لدعوته بأن عليا هو الخليفة بعد النبى وانه يستمد الحكم من الله وفقا لدعواه في الوصاية وكان يقول : « ان عثمان أخذ الولاية بغير حق وهذا على وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه وأبدأوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم الى هذا الأمر . (١)

وهكذا اتخذ ابن سبا من الدين وسيلة لهدم الدين حين غلفه بما ليس فيه وانحرف به عن حقيقته وابتدع قولا ليس له أصل في الشريعة وان تصنع في دعوته الحماس للاسلام والحرص عليه والتعصب له وكأنه راغب في اصلاحه حريص على خير المسلمين

ويذكر ابن حزم في « الملل والنحل » ان قوما من اصحاب ابن سبأ أتوا عليا حين تولى الخلافة وقالوا له : « أنت هو » فقال لهم : « ومن هو ؟ فقالوا : « أنت الله !! » فغضب على وأظهر الحد وأمر بنار فأوقدت وأمر مولاه قنبر بأن يلقى بهؤلاء الرجال فيها فجعلوا يقولون وهم يلقون في النار . « الان صح عندنا انه الله !! » (٢)

« وأمر على بنفى ابن سبأ الى المدائن ولكن هذا لم يثنه عن مواصلة الدعوة لعلى فلما مات على قالت السبئية برجعته وتوقفه وذكر ابن حزم أن ابن سبأ لما بلغه قتل على قال : لو أتيتمونى بدماغه سبعين مرة لما صدقنا موته ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وظلما وان بدت رواية الملل والنحل ـ كما نعتقد ـ بعيدة عن الصدق وأقرب الى ما حفلت به روايات التاريخ من اباطيل .

وفي الشهر ستانى أن السبئية ذهبت الى القول « بأن عليا يجىء في السحاب وان الرعد صوته والبرق سوطه (او تبسمه أو نوره على ما ذهب البعض) وانه سينزل بعد ذلك الى الأرض فيملؤها عدلا بعد ان ملئت جورا وظلما » (٣)

وقد يبدو غريبا ان تسرى هذه الأقاويل بين البعض من الناس ما لم يتهموا بالغباء الماحق او فقدان العقل وقد يقف امامها المؤرخ حائرا : أيصدقها أم ينبذها ويرفضها ؟! ولكن اذا عرفنا ـ وهو من الثوابت العصرية المحققة ـ ما قيل ونشر عن الجماعات المنحرفة فى أمريكا كجماعة جونز (٤) التى ارتضت الانتحار الجماعى فرارا من الحياة أو جماعة مانسون (٥) التى نزعت الى حياة بهيمية بالانحلال والعدوان وكانت السبئية ـ كما نعتقد ـ أول خرق في الاسلام وان سبقها من المرتدين في خلافة أبى بكر من قال ما هو من

---

١ ـ المصدر السابق . (١ ـ ٢٩٤٢)

ـ د حسن ابراهيم حسن : المصدر السابق نقلا عن الملل والنحل ص ٤ ص ٨٦

٣ ـ المصدر السابق : ص ٤٢٩ ، والشهر ستانى جـ ٢ ص ١١

٤ ـ جماعة جونز، جماعة اطلقت على نفسها اسم جماعة معبد الشعب تزعمها امريكى يدعى جيم جونز واتخذ لها مستعمرة في جويانا بامريكا الجنوبية وكان جيم قسيسا سابقا اقبل هو وجماعته على الانتحار الجماعى بعد ان قتلت جماعته اعضاء لجنة التحقيق الامريكية التى زارت المستعمرة لتقصى حقيقة الجماعة .

٥ ـ جماعة مانسون بعض طوائف الهيبيز ارتكبت عددا من الجرائم ابرزها جريمة مقتل النجمة السينمائية شارون نيت وقد اتخذت لنفسها مستعمرة في كاليفورنيا عاشت فيها حياة غريزية بهيمية حتى اعتقل افرادها بتهمة القتل ـ انظر : الاسلام وروح العصر للمؤلف سلسلة كتابك ع ٦٠ دار المعارف

الافك أو الضلال كمسيلمة الكذاب وسجاح التميمية وتعبهم قوم حتى قضى عليهم الخليفة الأول - رضى الله عنه مما يؤيد ما قلناه عن الانحراف العقلى والسلوك المستغرب الذى يصيب بعض الناس والاستهواء الذى يذهب ببعض العقول فالانسان هو الانسان مهما بلغت حضارته من تقدم وارتقاء او اصاب أوفى قدر من الثقافة والتعليم كما نرى اليوم من جماعات التكفير والهجرة ما دام الخير والشر سمة السلوك الانسانى والا ماكانت الإديان لهداية البشر او الفلسفات لتنوير العقول .

وقد تسربت السبئية الى كثير من مذاهب الشيعة وان اختلف المنحى وتباين القصد فالسبئية اتخذت من الدعوة لعلى - كرم الله وجهه - وسيلة للنفاذ الى عقول الموالين لآل البيت والغاضبين من عثمان والمتشيعين لعلى لهدم العقيدة الاسلامية كما قصد ابن سبا - ولم يتعد التشيع لعلى عاطفة الولاء والحب في البداية ولم يجاوزها الى الغضب له والقتال في سبيله ولما قامت حركة التوابين لم تجاوز الثائر لمقتل الحسين .

ولعل أول حركة عنيفة في تاريخ الشيعة بعيدا عن السبئية كان مصدرها الطموح فقد تقلب المختار الثقفى بين الامويين والزبيريين قبل أن يتشيع ويحمل بالشيعة على اعدائهم في حرب مظفرة وترتبط باسمه اول فرقة شيعية ظهرت ولها تعاليمها المفضلة واهدافها المرسومة وهى الفرقة الكيسانية وسواء نسبت اليه او الى ابى عمرة صاحب شرطته او (الكيسان) مولى على بن ابى طالب فان ظهورها قد ارتبط بالدور الذى لعبه على مسرح التاريخ في تلك الفترة من الزمن التى صاخت له الدنيا فيها بكل اسماعها فالمختار اول من رفع لواء التشيع على خطة وهدف وكاد ينجح في اقامة دولة وكان قد انتسب الى محمد بن الحنفية وقال بالدعوة له ولم يكن ليقدر على ما قام به لولا تشيعه له فقال بامامته وانه قيمه ووزيره فلما مات ابن الحنفية انكر الكيسانية موته وقالوا برجعته كما انكر ابن سبا من قبل موت على وفي محمد بن الحنفية - ينشد شاعرهم كثير عزة :

الا ان الائمة من قريش ولاة الحق اربعة سواء
على والثلاثة من بنيه هم الاسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط ايمان وبر وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا برضوى عنده عسل وماء

ويعتقدون أنه يقيم بشعب من شعاب رضوى وهو جبل على مسيرة سبعة أيام من المدينة ومن حوله الأنمار والاساد وبقر الوحش وأنواع الشاة من غير أن يغدو أسد عليهما بظفر أو ناب توقيرا وتقديساً له . (١)

ولم يكن محمد بن الحنفية من هذا الراى الذى ذهب ب. من ادعوا له الامامة وتبرأ منه كما تبرأ غيره من ائمة آل البيت ممن اتخذهم الطامعون والخارجون على الدين مطية لتحقيق أغراضهم متستر بالقربى من آل البيت .

ويرى سيد أمير على انفصال المذهب الشيعى عن الدولة ترك لمفسرى الشريعة حرية الاجتهاد التى اسفرت عن وضع اشبه ما يكون بوضع الاكليروس في المسيحية وانقسم المذهب البروتستانتى من جرائه الى مائة وثمانين فرقة وهو ماأنتهت اليه فرق الشيعة عندما افتقدت السلطة الزمنية التى تحقق وحدة الرأى بحد السيف وغدت الامامة او الزعامة الروحية للدولة الاسلامية معترك الخلاف بين السنة والشيعة .

---

١ - المؤلف : الاسلام والسياسة : دار المعارف ص ١٦١

ولا شك في أن الصراع السياسى قد أدى الى تشويه الكثير من حقائق التاريخ الاسلامى وهو ما يشير اليه المقريزى فيتهم العباسيين بتشويه حقائق التاريخ الفاطمى والطعن في نسبهم بل وتكفيرهم .

الا أن أكثر ما نال الفكر الاسلامى من تشويه ما جاء عن طريق الفرس وكان أول ما تسلل من افكارهم الى الكيسانية فقالوا بالبداء بمعنى ان الله سبحانه وتعالى يغير ما اراد وتناسخ الأرواح أى أن الروح حين تخرج من جسد تحل في جسد اخر كما قالوا بالرجعة ويرى الشهر ستانى ان الكيسانية « بنوا معتقداتهم على معتقدات المجوس المزدكية والبراهمة في الهند والفلاسفة القدماء والصابئة .

وانهم يرون الدين طاعة رجل وان طاعتهم ذلك الرجل تسقط عنهم الفروض الآخرى كالصلاة والصوم والحج .. الخ ويقولون بوجوب انفراد الامام بتأويل الشريعة وعلى الناس طاعته فطاعته طاعة للقانون الالهى ولعل هذا ما حمل « دوزى » الى رد عقيدة الكيسانية الى الفرس فانهم بدينون بالحكم الملكى وحق الوراثة للبيت الحاكم وفيهم نزعة الى تأليه ملوكهم كما كان ملوك الفرس .

وعجت الساحة بالافكار والمذاهب والفلسفات الضالة واذا نسبناها الى الفلسفة فلأنها كانت تخوض فيما تخوض فيه الفلسفة كما تخوض اليوم في الكثير من الاتجاهات الشاذة التى تضفى عليها أردية الفلسفة او العقيدة ومن تلك المذاهب الراوندنة وهى طائفة مجوسية تقول بتناسخ ارواح نشأت في مدينة راوند القريبة من اصفهان واليها ينسبون ويذكر (المدائنى المتوفى سنة ٢١٤ هـ) عن عقيدتهم ما يلى :

« ان رجلا من الراوندية يقال له الأبلق وكان ابرص فتكلم بالغلو ودعا بالراوندية فزعم ان الروح التى كانت في عيسى ابن مريم صارت في على بن ابى طالب ثم فى الائمة واحدا بعد واحد الى ابراهيم بن محمد سبط العباس عم النبى وانهم الهة واستحلوا الحرمات فكان كل رجل منهم يدعو الجماعة منهم الى منزله فيطعمهم ويسقيهم ويبيح لهم الحرمات وادعو الوهية ابى جعفر المنصور فقاتلهم لذلك وحدث انه خرج اليهم في فتنة اثاروها فتكاثروا عليه حتى كادوا يقتلونه فلولا ان اغاثه معن بن زائدة الشيبانى وكان من أنصار الأمويين واختفى عن انظار العباسيين بعد زوال الدولة الأموية ودافع معن عن الخليفة حتى ظفر بالراوندية وعفا عنه ابو جعفر المنصور وكافأه بولاية اليمن وفى هذا يقول الشاعر فى مديحه :

مازلت يوم الهاشمية معلنا بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهند وسنان

وكان أبو جعفر ينظر الى الراوندية كعدو سياسى لأن انصارها من اتباع ابى مسلم الخراسانى الذين يعملون على تحويل الخلافة الى ملك كسرى كما كان يرى الزنادقة يرمون الى عودة المجوسية تحت ستار الاسلام او شكل من اشكالها كالزرادشتية أو المانوية أو المزدكية أو غيرها فعاملهم كما عامل أبا مسلم وقتلهم شر قتلة الا انه لم يستطع أن يقضى عليهم القضاء المبرم فظهروا في صورة مختلفة كما كانت في حركة المقنع الخراسانى وبابك الخرمى والأفشين وما الى ذلك على فترات متفاوتة لم ينقطع لها ارهاص حتى وقتنا هذا .

وكما كانت الراوندية في خلافة ابى جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ=٧٥٤ - ٧٧٥) كانت المقنعية في خلافة المهدى (١٥٨-١٦٩هـ=٧٧٥-٧٨٥م) وتنسب الى حكيم بن هاشم الخراسانى وكانت خراسان على الدوام ميدانا حافلا بشتى المذاهب والفرق وقد جاشت حينذاك بتلك الدعوة الخبيثة لهذا الدعى وكان رجلا قميئا قبيح الصورة يخفى قبح وجهه بقناع من ذهب فسمى بالمقنع وادعى ان روح الله قد انتهت اليه وحلت فيه كما حلت من قبل في ادم ونوح وابراهيم ومن نبى الى نبى حتى محمد ومنه الى على واولاده حتى انتهت الى ابى مسلم الخراسانى ومنه اليه وكان يقول : « انى أتنقل في الصورة لان عبادى لا يطيقون رؤيتى في الصورة التى أنا عليها فمن رآنى احترق بنورى وقد اسقط عن الناس الصلاة والزكاة والصوم والحج وأباح لهم الأموال والنساء فلما تفاقم شره سير اليه المهدى جيشا جرارا قضى عليه وقد اتسمت دعوته بالفوضوية التى تجمع بين المزدكية والمانوية القديمتين في فارس ولم يضع موته حدا لتعاليمه فاعتنقها نفر من بلاد ما وراء النهر وتركستان وكان يبطنون غير ما يظهرون فاذا ظفروا بمسلم بنجوة ممن يراه قتلوه واخفوا جثته .

أما خلافة المعتصم فقد شهدت فتنة أشد وقرا وعنقا مما كانت الراوندية والمقنعية حين أخذت المزدكية تطل برأسها - كما يقول سيد أمير على - في عهد الخلفاء مرة أخرى وكانت قد أضرمت نار الفتنة في مملكة الاكاسرة قبل ذلك بقرنين ونصف قرن من الزمان داسها كسرى انوشروان بقسوة بالغة الا ان تلك الافعى الخبيثة بقى فيها رمق من الحياة فأخذت تنفث سمها من جديد وتعكر صفو الدولة العباسية أيام المأمون على يد داعية جديد يدعى « بابك الحزمى » ويقال انهم سموا حزمية نسبة الى حزما إمرأة مزدك التى قامت بنشر مذهبه بعد قتله ومن طائفة الحزمية المزدكية نشأت الحزمية البابكية ومن مبادئها الاساسية تحويل الملك من العرب المسلمين الى الفرس المجوس ويقول البلخى (١) « وانضوى اليه القطاع والحراب والذعار وأصحاب الفتن وارباب النحل الزائفة »

ويرى « نظام الملك » في سياسة نامة » انهم بذلوا كل جهد للقضاء على الاسلام قضاء مبرما ولم يحملوا اية عاطفة او مودة نحو اى من أهل البيت وان اتخذوا من اسمائهم وسيلة يعززون بها دعوتهم التى ترمى في النهاية الى هدم العقيدة الاسلامية كما يرى انهم والباطنية سواء وظل بابك عشرين عاما يعيث في الأرض فسادا وينشر مبادئه الضالة - شيوعية النساء والاموال والتحلل من قيود الاخلاق - ويشيع القتل والدمار حتى قضى عليه المعتصم بالله وقتل شر قتلة في حضرة الخليفة .

وكان الالحاح في القضاء على الاسلام والدولة الاسلامية لدى هؤلاء المجوس من مزدكية فارس لا يبور ولا ينقطع « يعتنقون الاسلام ظاهرا والتدين بدين الفرس باطنا ورأت ان لا سبيل لنيل الجاه والسلطان والمال الا بالاسلام فاعتنقته ظاهرا وظلت تخلص لدينها القديم وقوم من هؤلاء كان لهم غرض أعمق من هذا اذ راوا انهم لا يستطيعون افساد العقيدة الاسلامية الا بالانتساب اليها اولا حتى يؤمن جانبهم وحتى يسهل على النفوس الاخذ باقوالهم . (٢)

---

١ - البلخى : ابو زيد بن سهل : البدء والتاريخ جـ٥ . ص ١٣٤ و د . حسن ابراهيم حسن : المصدر السابق
٢ - احمد امين ضحى الاسلام جـ ٨ ط ١٠ ص ١٥٠

وقد رأت هذه الجماعات الضالة في تعصب الامويين للعرب ضد الموالى منذ البداية ما مهد لها السبيل اخيرا عندما لانت حدة التعصب للعرب على الفرس في خلافة العباسيين وحفلت الساحة بالفلسفات والافكار من الشرق والغرب لتمارس نشاطها الهدام وتنفث سمومها المدمرة فلم يخلص المعتصم من بابك حتى واجه مؤامرة الافشين والمازيار وقد لقى كلاهما من اكرام المأمون والمعتصم ما كان قمينا بان يعصمهما من الخروج على الدولة الا ان تعصبهما للمجوسية والمزدكية وكراهيتهما للدولة الاسلامية قد حملهما على التآمر والثورة وكانت خاتمتهما كما كانت خاتمة بابك الحزمى من قبل ويصف ابو تمام ما كان من الأفشين بقوله .

قد كان بوأه الخليفة جانبا من قلبه حرما على الأقدار
فاذا ابن كافرة يسر بكفره وجدا كوجد فرزدق بنوار (١)
مازال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى شر الزناد الدارى
صلى لها حيا وكان وقودها ميتا ويدخلها مع الفجار

ويقول التبريزى : « لم يكن الأفشين كافرا ولا منافقا وانما كان رجلا من الغربى اصطفاه المعتصم لحسن طاعته وخدمته واعتمد عليه في مهام أموره حتى وكل اليه مقاتلة بابك الحزمى فمضى اليه في الوف واسره غير ان الحساد افسدوا ما بينهما فذكروا للمعتصم انه منطو على خلافك وقالوا : للافشين ان المعتصم قد عزم على القبض عليك فانقبض عنه حذرا من القبض عليه فتحقق المعتصم بانقباضه ـ ما كان اخبر عنه فأخذه وأحرقه وصلبه وقيل ان السبب في ذلك هو ابن ابى داود لأمر جرى بينهما » .

وليس فيما يرويه التبريزى ويشير اليه الاستاذ احمد امين في ضحى الاسلام بقوله : « وليس هنا موضع تحقيق ما اتهم به الأفشين فمحل ذلك البحث التاريخى وانما يهمنا هنا منظر الزندقة وما وجه اليه من التهم وطريقة محاكمته » (٢) .

وان كنا لا نجد فيما اتهم به الافشين صلة بالزندقة والزنادقة ومازال تاريخ الدولة العباسية في تلك الفترة التى حفلت بالابهة والجلال والمؤامرة والخديعة والقسوة والعلم والحكمة والفلسفة مليئا بالغموض والتناقض مما يحتاج الى استقراء جديد فكم حفل التاريخ بالهنات والأكاذيب .

ومن خلال هذا الغموض والتناقض اتخذت الزندقة معانى شتى في العصر العباسى فمعناها في اذهان الخاصة والعلماء غير معناها في اذهان العامة » فاما العامة وأشباههم فكانوا يطلقون على المستهتر الماجن ـ زنديقا ـ ومنهم من كان يرى في الزندقة « نوعا من انواع التملح لم يقل الا على سبيل الفكاهة والمجون وعلى هذا الأساس الأخير شاع في ذلك العصر وصف الزنديق بالظرف كما كان ابو نواس . (٣)

الا ان أخطر ما كان من الزندقة فهو صورتها الأخرى وتعنى اعتناق الاسلام ظاهرا والتدين بدين الفرس القديم باطنا اذ رأوا أنهم لا يستطيعون المساس بالعقيدة

---

١ ـ نوار زوج الفرزدق
٢ ـ المصدر السابق . ص ١٤٦
٣ ـ احمد امين : المصدر السابق ص ١٤٦ ـ ١٥٠

الاسلامية وافسادها الا بالانتساب اليها فاسلموا (ولما يدخل الايمان في قلوبهم) يبطنون الكفر ، ويظهرون الاسلام ممن يتخذون عقائد المانوية ويتمسك « بالثنوية » اى عبادة الهين اثنين كما تجرى المانوية .

وترجع تاريخ الزندقة الى اواخر العصر الأموى وان لم تبد نبرتها عالية الا في العصر العباسى وممن عرفوا بالزندقة في خلافة الامويين « عبد الصمد بن عبد الأعلى » مربى الخليفة الاموى « الوليد بن عبد الملك » كما كان « الجعد بن درهم » الذى ينسب اليه « مروان بن محمد » أخر خلفاء بنى أمية زنديقا حتى قيل مروان الجعدى « وفى عهده » ظهرت عقيدة المهدى التى كان لها أثر كبير في سقوط الدولة الأموية » (١)

ويذكر - ابن النديم في الفهرست - ان الجعد بن درهم - كان مؤدبا لمروان ولولده وأنه ادخله في الزندقة .

ولم تقو الزندقة على الظهور في العصر العباسى وانتشرت في الكوفة فلما اشتد عودها وبان خطرها ثار بها الخليفة المهدى وتعقب معتنقيها وأنشأ ديوانا لتتبعهم للقضاء عليهم وكان يقتل على الظنة كل من اتهم بالزندقة ولما ولى الخليفة الهادى زاد التنكيل بهم ويروى الطبرى أنه قال . « لئن عشت لاقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عينا تطرف » .

ويذكر - ابن النديم في الفهرست - ال برمك ويرميهم بالزندقة حتى زعم ان ذلك كان من اسباب نكبتهم وذكر - ابن قتيبة - في كتاب « المعارف » أن الاصمعى رماهم بالكفر فقال :

إذ ذكر الشر فى مجلس أضاءت وجوه بنى برمك
وإن تليت عليهم آية اتوا بالأحاديث من مزدك

ولعل انقلاب العباسيين عليهم - برغم ما حفلت به دولتهم من ازدهار الفكر والفلسفة والبحث والعلم ما كان ليحدث لولا ما كان من حرية البحث والمعرفة فاذا خيف من شىء على سلطان الدولة - كما يحدث دائما - كان عليها ان تتصدى له وقد لقيت الزندقة على اختلاف مراميها جوا من الحرية في ظل العباسيين لم تألفه على عهد الأمويين حين كانت تمضى في خفاء فسفرت عن نفسها حتى « سرت الى بيوت الوزراء والشعراء ، واصبحت ضربا من ضروب الظرف والتثقف وأصبح للزنادقة أبحاث في العلم والأدب والسياسة اذ تاثر بها الأدباء والمفكرون حتى أن طائفة منهم بذلوا الجهد في مكافحة الزندقة والرد على الزنادقة ومن ثم نشا علم الكلام وكان واصل بن عطاء اول من تصدى للرد عليهم . (٢)

وقد اتخذت الزندقة عند العرب - كما أشرنا - معانى شتى فهى تعنى من ينفى وجود الله أو ينكر حكمته أو يقول ان له شريكا وقيل أيضا انه من يبطن الكفر ويظهر الايمان وفي ذلك يقول الشاعر

بغداد دار لاهل المال طيبة وللمفاليس دار الضنك والضيق
ظللت حيران امشى فى أزقتها كأننى مصحف فى بيت زنديق

وكان لفظ زنديق يطلق عادة على كل من يتأثر بالفرس في عاداتهم ويسرف في العبث

---

١ - د . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام جـ ١ ص ٣٦٢ ط ٢
٢ - د . حسن ابراهيم حسن : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٠٦

والمجون ثم صار يطلق على من يتخذ عقائد المانوية شعارا له ويتمسك بعقيدة « التنوية » وتعنى عبارة الهين أثنين فى عقيدة مانى .

وقد رمى بعض خلفاء الأمويين بالزندقة ـ كما قلنا وان كنا نشك فيما رواه ـ ابن النديم ـ فلم يكن ابن النديم من معاصرى مروان بن محمد ويفصل بينهما ثلاثة قرون من الزمن ولعل ما رواه كان تشيعا للعباسيين رجاء نوالهم او جريا على ما نسبه العباسيون للأمويين من نسبة الزندقة اليهم حتى لا يتهموا بها وحدهم وانهم هم الذين أبطلوها وقضوا عليها وقد غدت الزندقة اخيرا في العصر العباسى وسيلة للكيد يرمى بها المتنافسون على السلطة بعضهم بعضا وكان من ضحاياها (١) كثيرون بالحق أحيانا وبالباطل أحيانا » .

وقد ادى ازدهار الفلسفة في العصر العباسى الى تعلق كثير من الملل والنحل والمذاهب بها والتمسح بأردافها يصفهم المأمون بقوله :

« وطائفة منهم قد اتخذ كل رجل منهم مجلسا اعتقد به رئاسة لعله يدعو فئة الى ضرب من البدعة ثم لعل كل رجل منهم يعادى من خالفه في الأمر الذى عقد به رئاسة بدعة ويشيط ابذمه وهو قد خالفه من أمر الدين وهو قد خالفه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك الا أن ذلك أمر لا رئاسة له فسأله عليه » .

ويعقب أحمد أمين بقوله « ونستعرض أسماء الفرق والمذاهب في كتاب الملل والنحل للشهر ستانى فتدهش لكثرتها واختلافاتها وهذه كلها كانت تنظر الى القرآن الكريم بعين مذهبها وتفسيره بما يلائمه » (٢)

ومازالت تلك الحرب سادرة في غيها على الاسلام والمسلمين في صور عديدة تنحو نفس المنحى وتتوخى نفس الغاية مع اختلاف في الصورة والمسميات .

---

١ ـ احمد امين : ضحى الاسلام : جـ ١ ص ١٥٨ ط النهضة
٢ ـ المصدر السابق :ص ٣٦٨

الباب الثالث

الصوفية .. والمعتزلة

حفلت الساحة الاسلامية في القرن الأول الهجرى وبعد قيام الدولة الاموية بالعجيج الصاخب من الفرق والمذاهب والأفكار والآراء يتوه فيها المؤرخ وتبهم فيها الحقيقة لما حفلت به من متناقضات وأخبار ينـاقض بعضها البعض يبررها الأستاذ الفيلسوف الدكتور منصور فهمى بقوله :

« ان أهل تلك الأعصر الخالية كانوا يعتمدون كثيرا على ذاكرتهم وكانوا في الوقت نفسه يتناولون كثيرا من الموضوعـات لأن فكـرة الإحصاء وتوزيع العمل لم تكن مألوفة لديهم على نحو ما هى اليوم وكانوا يرون الجد في طلب العلم طاعة لله فمن ثم حفظوا كثيرا وكتبوا كثيرا ولكن ضاق وقتهم ووهنت قوتهم فلم يستطيعوا ترتيب ما كنزوا من العلوم والمعارف الكثيرة فخلطوا الغث بالثمين وعرض لهم الضعف والتناقض والاضطراب » (١)

وقد عرضنا لبعضها أما ما نعرض له اليوم هو ما كان من أمر المعتزلة وهم جماعة كان لها شأن في تاريخ الدولة الأموية والعباسية ثم ما لبثت ان طوتها صفحات التاريخ وان بقى خبرها غامرا في ثناياه لعل أهم ما يعنينا منها في بحثنا هذا ما كان لها من صلة بالتصوف الاسلامى من ناحية واراء اهل السنة من ناحية أخرى فضلا عن دورها في الفلسفة ودور الفلسفة فيها حين ازدهرت الفلسفة الاسلامية بتراث الفلسفات القديمة ولا سيما فلسفة اليونان وكان الفضل لفلاسفة المسلمين في اهدائها الى اوربا فمدتها ببعض ما تزودت به فى نهضتها .

ومع ما كان من نشأة المعتزلة الدينية بعيدا عن السياسة الا انها ما لبثت كغيرها ان ولجت الميدان فقد قامت الفرق ونشبت الثورات وتعددت المذاهب وهى جميعا تدور في فلك السياسة والحكم ومن هو أولى بولاية أمور المسلمين وان لم يكن المعتزلة من هواة العنـف وارباب القتال وكانوا أصحاب جدل وحوار وتعاليم يذيعونها ويبشرون بها حتى عدهم « نيكلسون » أقرب ما يكونون الى اصحاب المذهب العقلى في النهضة الأوربية .

وكانت نشأتها حين اعتزل ـ واصل بن عطاء الغزال الفارسى ـ حلقة استاذه « حسن البصرى » بعدما اختلفا فى مسألة المؤمن العاصى الذى ارتكب ذنبا كبيرا أمؤمن هو أم غير مؤمن ، ويراه واصل أنه ليس بمؤمن وليس بكافر ، وأنه فى منزلة بين المنزلتين ، فلما اعتزل واصل حلقة استاذه ليشرح لمن اتبعوه ما ذهب إليه ، قال عنه حسن البصرى (اعتزلنا واصل) فسميت جماعته المعتزلة ، وان اختلف الرواة فى أصل التسمية ، ولا

---

١ ـ مقدمة كتاب « الاخلاق عند الغزالى » للدكتور زكى مبارك ـ وقدم هذا الكتاب الى الجامعة المصرية ونوقش في ١٥ مايو ١٩٢٤ ونال به صاحبه شهادة العالمية بدرجة « جيد جدا ولقب دكتور في الآداب »

يراه الاستاذ أحمد امين اصلا لها . ويراه دلالة على « مذهب ذى مبادىء لا مجرد انفصال من مجلس الى أخر ، وان الاعتزال معنى من المعانى ، لا حركة جسمية ، كما يشير إلى أراء أخرى تدور حلوها . (١)

ومع هذا الاختلاف حول التسمية فان الاجماع على نسبتها الى واصل كالاجماع على المبادىء التى يقوم عليها مذهبها .والاساس الذى قام عليه هذا المذهب هو الايمان بحرية الارادة والقول بسلطان العقل ـ أما المبادىء فهى « التوحيد ، والعدل والوعد والوعيد ، والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر »

وكان المعتزلة أقرب في منحاهم الى الشيعة منهم الى اية جماعة اخرى مما حفلت بها الساحة الاسلامية في تلك الفترة التى شهدت من التوتر والفتن الداخلية ما شهدت من عظمة العرب وانسياح الفتوح العربية من الصين الى الاندلس وقيام امبراطورية لم يشهد لها التاريخ ضريبا من قبل قدر لها الايمتد بها الزمن طويلا بعد ان قوضت الخلافات المذهبية وحدتها « وعصف بها ـ كما يقول سيد أمير على ـ التنافس على المجد الدنيوى ونوازع الأفراد والفئات الثائرة على قواعد النظام والاخلاق وان بقيت الحضارة الاسلامية بعدأن وهن أمر الدولة عالية الذرى لألف عام تالية ولم يطل عمر الدولة في مجدها الأسنى على ثلاثة قرون .

وكانت الخلافة والامامة والحكم محور الخلاف بين المتنازعين وأخذ كل فريق يؤيد مذهبه بما يقتضيه من شواهد دينية حتى انحسرت في النهاية على ما بين الشيعة والسنة من نزاع على الإمامة أو الزعامة الروحية للمسلمين والحكم في الدولة الاسلامية وكان المعتزلة أقرب الى الشيعة فيما يذهبون اليه من غيرهم فقد نسبت عقيدتها الى على بن أبى طالب ومنها من يدعى « أن واصل بن عطاء تلميذ أبى هاشم بن الحنفية وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد ومحمد تلميذ أبيه على عليه السلام » كما ذكروا الامام على في الطبقة الأولى من طبقاتهم وساقوا من القصص ما يؤيد ذلك ، وذكروا في الطبقة الثانية الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وفى الطبقة الثالثة الحسن بن الحسن وعبد الله بن الحسن وأبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وهو الذى أخذ عنه واصل عودوا واصلا من الطبقة الرابعة وهو من الموالى ولد سنة ٨٠ هـ فى المدينة ثم انتقل الى البصرة وسمع من الحسن البصرى وغيره وتوفى سنة ١٣١ هـ (٢).

ولقى المعتزلة من تاييد بعض خلفاء الامويين ما كان من تاييد بعض خلفاء العباسيين لهم ولعلهم وجدوا فيهم من يتصدى لأباطيل من اعتنقوا الاسلام ورؤوسهم مليئة بأديانهم القديمة وأتخذوا من الفلسفة اليونانية والمنطق اليونانى أداة للتهجم على الاسلام مما دعا المعتزلة أن يتسلحوا بسلاح عدوهم فجادلوهم جدالا علميا وردوا هجمات القائلين بالجبر المنكـرين لله وما أثاره أصحاب الديانات الأخرى والمجوس والدهرية من شكوك وكان واصل ـ كما يقول عنه المرتضى ـ « أعلم الناس بكلام الشيعة ومارقة الخوارج وكلام

١ ـ فجر الاسلام الفصل الرابع من الباب السادس

٢ ـ . أحمد امين : فجر الاسلام . الباب السابع . الفصل الرابع . هامش ص ٢٩٦ نقلا عن احمد بن يحيى المرتضى من كتابه « المنية والامل في شرح كتاب الملل والنحل طبع منه جزء في طبقات المعتزلة

الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين » فاخذ بعد معرفة اقوالهم يرد عليهم في فصاحة (١).

كما لقى المعتزلة أيضا تأييدا من الشيعة قارب الانتماء - كما رأينا - حتى قالوا أن واصلا أخذ مذهب الاعتزال عن محمد بن الحنفية في حين أن ابن الحنفية توفى بعد مولد واصل بعام واحد ولعل ما ذكره القاضى عبد الجبار المعتزلى في هذا الصدد لا يعنى أنه أخذ عنه مباشرة وليس هناك ما يحول دون التأثر بتعاليمه وما نقل عنه بعد وفاته ويذكر المقريزى أن واصل أخذ العلم عن أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وخالفه في الامامة (٢)ولا نجد فرقا في المعرفة بين ما يقوله أبو هاشم وما يقوله أبوه (ابن الحنفية) اما مخالفته في الإمامة فإن المعتزلة كالخوارج في ذلك ، قد أجازوا ن تكون الإمامة فى قريش وفي غيرهم من الناس وفي القول بعدم ضرورة نصب إمام للمسلمين كما يفهم ذلك من قول الخوارج (لا حكم إلا لله) ولا غزو فطالما اتخذ الخوارج مبادىء الاعتزال ذريعة للخروج على بنى أمية وإثارة الفتن والاضطرابات (٣)

ويبدو أن تعاليم المعتزلة قد لقيت من رضاء الجميع ما يفيد منها كل منهم على حده فالشيعة قد رأت في انتمائهم الى على بن أبى طالب سندا لدعواهم في الإمامة والخلافة ، ولم ير فيها الأمويون ما يزعجهم أو يثيرهم فقد كانوا حتى ذلك الوقت فئة تلوذ بالدرس والبحث فلما شاركوا الشيعة الزيدية في مبايعة محمد النفس الزكية وابراهيم إبنى عبد الله بن الحسن بمكة في اواخر عهد الدولة الاموية لم يزدجهدهم على التأييد فقد كانوا ولا ريب قلة من الدارسين والفقهاء لا شأن لهم بحرب أو قتال ولم يجد زيد بن على زين العابدين من الانصار ممن يتصدون لحرب بنى أمية فقتل في معركة خاضها مع قلة من أنصاره ضد يوسف بن عمر الثقفى والى العراق من قبل هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ = ٧٢٤ - ٧٤٣ م) ولم يكن هو الأول ولا الأخير من شهداء العلويين وكأنما كتب عليهم أن يكونوا حصاد الطمع والأثرة والانانية التى عصفت بأكرم رسالة بعث بها خير الانام وخاتمهم فان ما لقيه زيد بعد موته كان أقسى مما لقيه في حياته فقد نبش قبره وأحرق جسده وذرى ترابه على مياه الفرات وهو ما يصفه -سيد أمير على - بالوحشية والتجرد من أية نزعة انسانية .

واحتل المعتزلة مركز الصدارة بين الفرق التى حفلت بها الساحة الاسلامية اوائل العصر العباسي وشهد عصر المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ = ٨١٣ - ٨٣٣ م) (الخليفة المستنير ، كما يصفه سيد اميرعلى) أعظم عصور الحضارة الاسلامية تقدما وازدهارا وانبثق العقل الاسلامى عن أروع ما حفلت به اللغة العربية من علوم واداب وفلسفات وفنون لم تدع جانبا من جوانب التقدم والإرتقاء الا ولجته وأبدعت فيه فأهدت للحضارة الحديثة ما لم يكن يتسنى لها أن تعرفه لتقيم عليه بناءها الحديث « فهذه الامبراطورية الاسلامية العظيمة - كما يقول هـ-ج-ويلز - والتى امتدت ساحتها من أسبانيا الى الصين وغدت دمشق حاضرتها وان لم يقدر لها ان تعيش طويلا بعد أن قوضت الخلافات المذهبية وحدتها

---

١ - المصدر السابق : ص ٢٠٠

٢ - المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ١٦

٣ - دكتور حسن ابراهيم حسن : المصدر السابق جـ ٢ ص ٥

قد تركت معالمها على العقل الانسانى وعلى مصائر جنسنا البشرى بوجه عام حين قذفت المقادير بالذكاء العربى في أرجاء العالم طولا وعرضا باسرع وأروع مما أتيح للعقل اليونانى قبل ذلك بألف عام فكانت تلك الإثارة الفكرية التى حملوا شعلتها الى العالم فيما وراء الصين غربا فطوحت بالقديم البالى لتضع مكانه هذا الجديد الرائع .

وقدر لهذا الذكاء العربى - على حد تعبير ويلز - ان يبلغ أوجه في عصر المامون فلقيت الفلسفات والعلوم الانسانية محافل لم تعهدها من قبل وفي ظل المأمون وخليفتيه المباشرين : المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ - ٨٤٢ م) والواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ - ٨٤٧ م) لقى المعتزلة كل تعضيد وتأييد في دعوتهم للقول بخلق القرآن حتى أن الواثق (جعل اطلاق اسرى المسلمين فى بلاد الدولة البيزنطية مقصورا على الذين يقولون بخلق القرآن ..) (١)

وما ان خلف المتوكل أخاه الواثق على الخلافة (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ = ٨٤٧ - ٨٦١ م) حتى نهى الناس عن القول بخلق القران مخالفا بذلك المأمون والمعتصم والواثق ويبدو أنه قد احس ضيق الناس بالمعتزلة وظهر من علماء الكلام من برموا بهم وبتعاليمهم فجرى جريهم وكانت بداية النهاية التى جاءت على يد « ابو الحسن الأشعرى » (٢٦٠ - ٣٢٤ هـ = ٨٧٣ - ٩٤١ م)

وقد نشأ الأشعرى فى رحاب المعتزلة وتتلمذ على الجبائى المعتزلى (٢) واختلف معه وحمل على اراء المعتزلة ووافق أهل السنة في أكثر ما ذهبوا اليه وأخذ بيدهم حتى كشفت اراؤهم اراء المعتزلة فلم يعد لهم أثر يذكر كما جاء في رواية أبى بكر الصيرفى - نقلا عن ابن خلكان - « كانت المعتزلة قد رفعوا رءوسهم حتى أظهر الله الاشعرى فجحرهم في أقماع السمسم » وتم انتصار السنة على الإعتزال بظهور حجة الاسلام الغزالى في حملته على الفلسفة والاعتزال معا وقد جاء في الوقت المناسب ليرسى التصوف على اصول وقواعد منهجية وكان العالم السنى فى مسيس الحاجة الى من يعيد اليه حيويته فى تلك الحقبة من القرن السادس الهجرى وكانت حقبة عصيبة فى تاريخ الاسلام كان يواجه فيها عدوا خبيثا ينفث سمومه في الداخل في الوقت الذى يخوض فيه حربا ضارية ضد الصليبيين فالحسن الصباح زعيم طائفة الحشاشين يثير الذعر بين الناس لم ينج من شره حتى اليهود والنصارى والزرادشتيين والهندوس بدورهم والصليبيون يقوضون كيانه في الداخل وفي تلك الحقبة الحرجة كان صوت الغزالى يدوى بالدعوة الى الله وبينه وبين الاشعرى مائة وثلاثون عاما فقد توفى الاشعرى عام ٣٢٠ هـ وولد الغزالى بعده بثلاثين ومائة عام ((٤٥٠ـ٥٠٥هـ ـ١٠٥٨ـ١١١١م)) ويقال ان الاشعرى ظل اسبوعين في التأمل والمقارنة بين مذهب العقليين ومذهب السلف بينما قضى الغزالى عشر سنوات حتى استقر يمينه وقرت روحه ـ كما يقول ـ على النور الالهى الذى يضفيه الله تعالى على المختارين ممن يثوبون اليه من عباده .

وقد عرف الاقدمون التصوف فما هو بجديد في المسيحية او الاسلام اذ عرفه الرومان واليهود وشاع في الهند ومارسه الناس بكافة صوره كما سبق القول وكانت دعوة المسيح

---

١ ـ د : حسن ابراهيم حسن : نفس المصدر . الجزء الثالث ص ٢١٣ .

٢ ـ أبو على محمد بن عبد الوهاب الجبائى (٨٤٩ ـ ٩١٥) واليه تنسب الجبائية وكان شيخ معتزلة البصرة ومن تلاميذه ابنه ابو هاشم عبد السلام والأشعرى .

عليه السلام صدى لتعاليم الصوفية القديمة ولكن نبي الاسلام - صلى الله عليه وسلم - اكد ان أحب العباد الى الله أنفعهم للناس وهو ما يخالف ما دعا اليه قدماء المتصوفين الا ان ما فشا من فجور في عهد بني أمية حمل الكثيرين من المسلمين ذوي الغيرة على حياة العزلة والورع وأخذ التصوف عند المسلمين مجراه الذي عرف به الا أن هؤلاء الأبرار الذى نزعوا الى الزهادة والنسك في القرنين الاولين من الهجرة كانوا اقرب الى التجرد منهم الى التصوف كما عرف من بعد - من أمثال حسن البصرى المتوفى سنة ١١٠ هـ (٧٢٧م) وابراهيم بن أدهم المتوفى سنة ١٦١ هـ ومعروف الكرفى ورابعة العدوية وابو يزيد البسطامى المتوفى سنة ٢٦١هـ وفى القرن الثالث غدا التصوف على يد الجنيد - ابو القاسم بن محمد نظاما له معالمه ورسومه وطرقه واليه تنسب الطريقة الجنيدية كما تنسب الطريقة الطيفورية الى ابى يزيد البسطامى وعلى عهدها قامت الزوايا والربط وقد اقام الغزالى مدرسة وخانقاه لتلاميذه ومريديه في بلدته طوس .

واذا كان التصوف في صدر الاسلام نوعا من التجرد الدينى فقد اخذ منذ القرن الثالث الهجرى نوعا من التحدى للأوضاع الجائرة التى ألمت بالعالم الاسلامى بدا في صورة من الوهن الذى عصف بالدولة العباسية فى عصرها الثانى فاشتدت سورته فى بلاد ما وراء النهر وفى العراق ثم انتقل منها الى حيث كان العدوان الأوربى على بلاد المسلمين اقوى واعنف في المغرب العربى والاندلس وغدا الاحساس بما صار اليه المسلمون يقينا « بأنه مظهر لغضب الله وان الخلاص منه لا يكون الا بالرجوع الى الله والامعان في التوبة والمحافظة على حدوده والابتعاد عما نهى عنه وفي راى هؤلاء ان المسلمين لم ينحدروا الى الهوة التى وصلوا اليها عندئذ الا بعد ان تخلوا عن طريق الله فتخلى الله عنهم » وفي وسط تلك القمة أخذ تيار التصوف يشتد ويقوى في العالم الاسلامى مشرقه ومغربه وان بدا ان تيار التصوف قد اشتد في المغرب في ذلك الدور بصورة أقوى واسرع مما كان عليه في المشرق وربما كان السبب قرب المغرب الاسلامى من مركز الهجوم الاوربى على بلاد المسلمين.

التصوف نزعة انسانية

نشأت الفرق الدينية - كما رأينا - منذ البداية مع نشأة الدولة الأموية ولكنها ، كما يقول الاستاذ احمد أمين - « على حالة من السذاجة لم تصل الى درجة القواعد المنظمة والعلوم المتميزة والشرع المحكم انما وصلت الى هذه الدرجة في صدر العصر العباسى لما اخذ خلفاء الدولة العباسية يناصرون الحركة العلمية وينهضون بالاساس الذى وضعه العلماء في الدولة الاموية مستعينين على ذلك بترجمة ما وصلت اليه الأمم قبلهم (١) .

وقد سبق الميل الى التصوف غيره من النزعات الاخرى التى عجت بها الساحة منذ القرن الأول الهجرى بظهور رجال أتقياء عزفت نفوسهم بهرج الدنيا وزخرفها فانصرفوا الى العبادة والزهادة لمزاج خاص بهم او جبلة دفعتهم فتماشوا معها او لسبب من الاسباب التى تعرض للبشر من اخفاق في طلب مجد او مال او وصال ومنهم من فتن به الناس

---

١ - فجر الاسلام : الباب السابع الفصل الرابع

فاتبعوه لما راوا من جميل تمسكه وحسن سمته وبعده عن سفاسف امور هذا العالم وكان هذا الرعيل من اوائل المتصوفة في الاسلام (١) .

ويبدو أن النزعة الى التصوف ـ وهو قرين الرهبنة في المسيحية ـ نزعة انسانية عامة لم تخل منها اديان الشرق القديم من البوذية الى الكونفوشية بل وحفلت بها الهندوكية في فلسفة « الاوبانيشاد » حين أخذت تنفذ من ضباب العقل الى ماوراءه من حقيقة فاذا « اردت الخلود فما عليك الا أن تنزع نفسك من كل ما يعتمل فيها من شهوات فانية شهوات الدنيا الذاتية » ثم كانت حياة « بوذان » في انطلاقه من الملك والامارة الى حياة النسك والتقشف سعيا وراء الحقيقة ويقمع التواضع أوضار الكبرياء ليزول العذاب والحزن في التحرر من آلام ـ الكرما ـ أو العقاب الناجم عن الخطيئة .

وحين لج بوذا في حياة النسك والتقشف لم يكن قد تحرر بعد من أوضار التدهور الذى لحق بالعبادات الهندية من السحر والاساطير وسيطرة الكهان في عقائد البرهمية فانطلق في أسمال بالية متحررا من شهوات الجسد موغلا في تعذيب البدن ,وطار صيته « كرنين جرس عظيم معلق في قبة السموات فلم يظفر بما يبتغيه من حقيقة فنزع نفسه مما لج فيه وامن بأن العقل السليم في جسد سليم وهجره رفاقه ومضى وحده ينشد الحكمة في تعاليم العقل والتف حوله من فارقه من تلاميذه مبشرا بالصفاء النفسى وصولا الى « النرفانا » اعلى مراتب الخير ودعاه رفاقه « بوذا » وانه خاتم الحكماء الذين تهبط عليهم الحكمة بين حين واخر لتتجسد في ذواتهم ولم تلق تعاليمه قبولا من كهان البرهمية وسرعان ما استردت العقائد القديمة سلطانها في الهند وغدت الهندوكية محفلا لعقائد وطقوس لم تتحرر منها بعد بينما امتدت البوذية الى الصين وسيام وبورما واليابان لتصبح فلسفة لها طقوسها وتعاليمها الى يومنا هذا

وقد لا نرى في تلك الالوان من الزهادة والنسك التى حفلت بها عقائد الشعوب الهندواوربية في الهند وفارس والصين وغيرها من البلدان المجاورة في الشرق الاقصى نوعا من التصوف الذى عرفته الشعوب السامية او العربية بتعبير أدق ـ في مصر وسومر حيث قامت أقدم حضارات التاريخ وحيث بعثت اديان السماء بعد الاف من السنين استوى فيها العقل البشرى على الايمان بقوة عليا مسيطرة وغير مرئية بعث بها رسل « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » حتى بعث ابراهيم ابو الانبياء ـ عليه السلام ـ فكان من أجمعت الكتب السماوية على ذكره ومن قبله « ادريس » وقيل أنه « الياس » وقال فرقة : » ولد بمصر وسموه « هرمس الهرامسة » ومولده بمنف , وقالوا هو باليونانية « أرميس» وعرب بهرمس ومعنى (ارميس) عطارد وقال اخرون : اسمه باليونانية (طرميس) وهو عند العبرانيين (خنوع) وعرب (أخنوخ وسماه الله عز وجل في كتابه العربى المبين (ادريس) .. وقالوا : وخرج (هرمس) من مصر وجاب الأرض كلها ثم عاد اليها ورفعه الله اليه بها وذلك بعد اثنتين وثمانين سنة من عمره » (٢) .

ولعل عقيدة الخلود والبعث بعد الموت عند قدماء المصريين قد حملتهم على الزهد « والاستخفاف بمباهج الحياة والحرص على نعيم الأخرى (٣) ـ كما يرى البعض ـ الا انها في

١ ـ محمد كرد على الاسلام والحضارة العربية جـ٢ ص ٢٢

٢ ـ المرحوم عبد الوهاب النجار قصص الانبياء ادريس عليه السلام

٣ ـ الدكتور توفيق الطويل التصوف في مصر ابان العصر العثمانى الفصل الاول ص ٣٦

الواقع لم تصرفهم عن مباهج الحياة والاقبال عليها وان حملتهم في الواقع على الابقاء على ما ينعمون به في دنياهم لاخرتهم فحشدوا مقابرهم بكل ما ينعمون به في حياتهم وكأن الدنيا مرحلة انتقالية الى حياة أخرى ابدية خالدة وان عرفت مصر التصوف كما لم يعرفه بلد اخر في العالمين العربى والاسلامى في تاريخها الاسلامى وفي الحقبة العثمانية منه حين أصبحت ايالة عثمانية .

ولم تخل بعض الطقوس اليونانية الخفية من ممارسة تلك الالوان من الزهادة والنسك الى حد تعذيب النفس والتنكيل بالبدن كما فشت الزهادة والنسك في بعض الجماعات اليهودية بجودايا او يهوذا والاسكندرية في القرن الأول قبل الميلاد فهجرت جماعات منهم الدنيا واستسلمت للتأملات الصوفية والتقشف ومنهم طائفة الاسينيين وهى طائفة من زهاد اليهود ظهرت في فلسطين حينذاك واستسلمت لنوع من الرهبنة والحياة المشتركة ونوه بهم بعض المؤرخين منهم فيلون ويوسيفوس وبلينى وان لم تجر الديانة اليهودية عليها .

ويبدو التقشف أحيانا هروبا من واقع الحياة ومرارتها فلا يسفر عن نفسه الا في مجتمعات تعصف بها أزمات اجتماعية أو سياسية أو ضلالات دينية للكسب واجتلاب الرزق وان بدا من غيرها نوع من التسامى كما يبدو التمسح بالدين ايضا نوعا من تبرير الخطيئة او افساد العقيدة الدينية الاصلية وهو ما حدث من الفرق الضالة في الاسلام وما حل بالبوذية من ضلالات البرهمية ولم تخل منه الهيودية والمسيحية بدورهما فان ما يروى عن طائفة الاسينية يقصيها عن الزهد ؟ وينأى عن قيم الديانة اليهودية فمع « احترامهم للقانون الموسوى كانوا شغوفين بالانغماس في الملذات كما مارسوا السحر وقدسوا الشمس وانكروا قيامة الجسد وعاشوا حول البحر الميت يباشرون تعاليمهم ولا يسمحون لاحد بالانضمام اليهم الا بعد اجتياز اختبار يمتد الى ثلاث سنوات (١) ويبدو الشبه بارزا بين تنظيمهم وتنظيم الماسونية فى العصر الحديث على بعد الزمن بين الطائفتين .

اما جماعة النساك اليهود الأخرين الذين اشار اليهم ويلز كاحد فرق الاسينية فقد اشار اليهم الفيلسوف اليهودى « فيلون (ح ٢٠ ق . م ـ ٥٠ م) باسم « الترابيوتاى » وانهم عاشوا حول بحيرة مريوط بعيدا عن مباهج المدن ويسكنون أكواخا غاية فى البساطة والتقشف بعيدين عن النزوات تطهيرا للروح من اية شائبة وليس هناك ما يشير الى بقاء هذه الجماعة أو استمرارها فيما بعد .

ولم تنج المسيحية بعد ان امتدت دعوتها وشاعت من موجة الزهادة والتنسك بل ان عبادها وناسكيها قد وجدوا في تعاليم المسيح عليه السلام ما يبرر زهدهم وتنسكهم ويبدو ان الميل الى الرهبانية وحياة النسك قد سبقت الحركة الديرية وأن كلا منهما كانت له بواعثه الدافعة اليه فهؤلاء النساك الاوائل قد اتبعوا طريق المسيح وهو ما كان من القديس انطونيوس حين سمع في صلاته تلاوة القسيس لاية « ان اردت أن تكون كاملا فاذهب وبع املاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعنى » (٢) اما الحركة الديرية فانها تتصل بحركة الاضطهاد التى انزلها الرومان بمعتنقى المسيحية من

---

١ ـ دكتور رءوف حبيب تاريخ الرهبنة والديرية في مصر ص ٢٥

٢ ـ متى ١٩ ـ ١٢

المصريين فكان هروب الأنبا بولا (١) الى الصحراء الشرقية من بلدته طيبة ليمارس حريته في العبادة عندما هدده أخوه الطامع في ميراث أبيهما بالاحتكام الى حاكم المدينة وانذاره زوج أخته بابلاغ السلطة عن اعتناقه للمسيحية " الا أنه وان بقى الدير الذى يحمل اسمه الى يومنا هذا حيث كان يقيم لم يكن من مؤسسى الحركة الديرية وانما يرجع الفضل في تأسيسها إلى « القديس انطونيوس » « حوالى ٢٥١ - ٣٥٠ م) وقبل ان يبرح الى حيث يقوم الدير الذى يحمل اسمه حتى اليوم كان كثير الاتصال بالمسيحيين في شتى جهات مصر واعظا ومعلما وفي حياته الديرية وضع النظام الذى تقوم عليه حياة الأديرة منذ ذلك التاريخ وأبرز معالمه أن أصبح الدير وحدة اجتماعية واقتصادية مكتفية بذاتها « فحين شعر بالملل يدب في حياته النفسية فكر في أن يشغل بعض وقته » وكان قد اختار مقامه حيث يوجد بعض النخيل ونبع ماء فزرع الأرض لتمده بحاجته وأخذ يصنع الحصر والسلال من سعف النخيل فكان هذا الكيان الاقتصادى الذى تقوم عليه الأديرة في مصر .

وترجع اهمية الحركة الديرية في مصر الى انتقالها الى أوربا المسيحية وما كان لها من أثر على مجرى التاريخ الاوربى في العصور الوسطى بل ان مصر هى التى نقلتها الى اوربا كما يقال - حين قام البابا اثناسيوس بطريرك الاسكندرية بزيارة اوربا عام ٣٣٥ م لمدة ثلاث سنوات قضاها في بلاد الغال (فرنسا) وعنه أخذ القديس مارتن أسقف مدينة تور حياة الرهبنة واسس أول جماعة لهم عام ٣٦٢ م على مقربة من بواتييه واتبعها بأخرى على مقربة من مدينة تور (٢)

وكان للاديرة - فضلا عن ايوائها اهل التقوى والنسك والهدوء من عواصف الحياة القاسية فى العصور الوسطى - كما يقول فشر - من الخدمات للمجتمع ج أضحى المجتمع الحاضر فى غنى عنها ، فقد كانت فى « كثير من الاحوال مركزا لاعمال التبشير بالمسيحية فى بلاد وثنية ، ومصرفا لايداع الاموال ، ومنزلا لراحة اصحاب الاسفار ، ومالكا للاراضى المفتقرة للاصلاح والزراعة .. واستصلاح الاراضى البور ومجمعا للفنون والحرف والصناعات .. ومخزن المخطوطات النادرة وحافظها .. » (٣)

ويبرز هذا الوصف مدى الشبه بين الاديرة والحياة الديرية فى مصر واوروبا فى العصور الوسطى ، وقد بقى للاديرة فى مصر ، تقاليدها ومأثوراتها التاريخية القديمة ، واكتفاؤها الذاتى وصناعاتها المتوارثة حتى وقتنا هذا .

ومما يلفت النظر ويبعث على التأمل أن النسك والزهادة خلة سارية عند البشر فى كافة الاديان السماوية وغير السماوية على السواء ، يردها سيد أمير على الى المشاعر النفسية التى تخامر العقل الانسانى فى فجر نشأته بالرعب المحض مما يحيط به من رهبة لطبيعة وهو ما يثير الفزع فى نفس الانسان البدائى فيدين لها بالعبادة ، ثم تتلاشى هذه المثل العليا المتفرقة فى مثل أعلى واحد شامل ، لتصبح وحدة الوجود المادية هى الخطوة التالية بعد الوثنية .

---

١ - يقال ان الانبا بولا ولد سنة ١٥٠ م ووفاته حوالى ٢٦٣ م - الدكتور حكيم امين : تاريخ الرهبانية والديرية المصرية

٢ - المصدر السابق : ص ٢١٧ .

٣ - تاريخ اوربا فى العصور الوسطى : ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة واخرون جـ ١ ص ٢١٧

ولعل هذا التفسير مما يتفق وعقائد المتشيعين لآل البيت ، وان كان لا يفسر فى الواقع تلك الزهادة المفرطة فى التجرد لدى رهبان المسيحية أو متصوفة الاسلام بقدر ما يفسرها الواقع التاريخى الذى ألم بكل منهم ، فالرهبنة فى المسيحية قد نشأت فى الحقبة التى عصف فيها الاضطهاد بالمسيحيين الأوائل فى مصر ، حتى غدت نظاما له قواعده ومعالمه فيما جرت عليه من بعد ، كما « نشأ الميل الى حياة العزلة والتمسك بأهداب الورع والتقوى ـ فى رأى سيد أمير على ـ بسبب ما فشا فى المجتمع من فجور وأهوال فى عهد بنى أمية ، حملت كثيرا من أهل الغيرة الى حياة العزلة وايثار الورع والتقوى .. وليس بين التقوى والتجرد غير خطوة واحدة وكانت تلك هى بداية التصوف »

ويرد الاستاذ أحمد أمين « حركة الزهد » الى يأس قوم من الغنى ، ورأوا أن نفوسهم لا تطاوعهم للقرب من ذوى الجاه ، أو حاولوا ذلك ففشلوا فلجأوا الى القناعة يروضون انفسهم عليها ، وقالوا : اذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون !.. وقوما عافت نفوسهم ما رأت من شهوات لا حد لها ، ورأوا أن النفس اذا نالت ما طمحت تفتحت أمامها شهوات وشهوات ، وللوصول الى كل شهوة متاعب وعقبات ، ففضلوا ان يقمعوها وقالوا مع القائل :

وما النفـس إلا حـيث يجعلهـا الفتـى ... فإن أهمـلت تاقـت والا استقـرت

وقوما يئسوا من حب ، أو صدموا صدمة عنيفة فى منصب أو جاه أو مال ، فلم يجدوا الا الزهد يركنون اليه ويأنسون به ويتسلون به عما فقدوا .

وكثيرا زهدوا تدينا لما فى الزهد من خفة المؤونة وسهولة الحساب .. صرفوا نفوسهم عن الشهوات ، واكثروا من ذكر الموت والقبور ، وعدوا أنفسهم فى الموتى ، وآثروا ما يبقى على ما يفنى .. وقنعوا بالقليل .. (١)

ويضرب الاستاذ احمد أمين مثلا للاغراق فى الزهد ، ما كان من « ابراهيم بن اسحق الحربى ، عاش اكثر عمره على كسر يابسة وملح ، وربما عدم الملح ، ورفض أن يأخذ ألف دينار بعث بها اليه المعتضد ، وأنفق مرة فى شهر رمضان كله درهما وأربعة دوانيق ونصفا » وقد جاء على ترجمته فى معجم الادباء ياقوت الحموى

ولا تجد ثمة فارق بين ما كان من ابراهيم بن اسحق ، وما كان من الانبا بولا فى زهادته ونسكه ، يفسره الدكتور حكيم امين بقوله : « ان الرهبانية بدأت حركة علمانية ، ورغم انها لم تنشأ فى حجر الكنيسة ، لكنها سارت وفق بعض مثلها العليا ، وبدت مخرجا طبيعيا للحماسة المتولدة فى نفوس المسيحيين الاولين وتعبيرا عن الميول الفطرية فى الطبيعة البشرية (٢) وهى طبيعة لا نجد لها تفسيرا فى حضارة العصر .

ويبدو ان الزهادة قد شغلت كثيرا من المفكرين حول علتها واسبابها وان اجمعوا على ارتباطها بالنزعة الدينية فى كل دين ، فيراها محمد كرد على لصيقة بالعبادة ويردها الى المزاج الخاص .. أو جبلة دفعتهم فتماشوا معها أو لسبب من الاسباب التى تعرض للبشر

---

١ ـ ضحى الاسلام : الجزء الاول . الفصل الخامس من الباب الاول ص ١٣٣ ط ١٠

٢ ـ دراسات فى تاريخ الرهبانية والديرية المصرية ص ٢٢

من اخفاق فى طلب مجد او مال أو وصال .. وهو ما يكاد يجمع عليه كل من عرض لها « فالمظنون ـ كما يقول ـ ان التصوف جاء الاسلام من الآريين فقد كان فى المجوس والبراهمة أيضا زهاد ، وما خلت الأمم كلها من زهاد وعباد فى كل العصور ... فلم تنشب أن انتشرت فى الاسلام فى قرنيه الأولين وذكر الجاحظ وابن الجوزى أسماء أكثر من اربعين ناسكا حقيقيا وان الاستعداد للتصوف ينشأ فى العادة من ثورة باطنية تخامر القلوب ، فيثور صاحبها على المظالم الاجتماعية ولا يقف عند مقاومة غيره ، بل يبدأ بجهاد نفسه واصلاح خطيئاته »

المسلمون والتصوف

ويمضى فى تفسير « لقب الصوفية والمتصوفة وعلى علمهم اسم التصوف ، بنسبتها الى الصوف الذى كانوا يلبسونه ، او الى سوفا اليونانية ومعناها الحكمة ، أو الى رجل يقال له صوفه كان فى الجاهلية هو واصحابه ممن انقطعوا الى الله ولزموا الكعبة ، فقالوا لمن تشبه بهم الصوفى ، وقال السهر وردى ان سبب تسميتهم بالصوفية لبسهم الصوف أو لأنهم كانوا من الانكسار كالخرقة الملقاة والصوفة المرمية . أو لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل ، وان الاصل فى اسمهم صفوى نسبة الى الصفة وهو موضع مقتطع من مسجد مظلل عليه ، كان الأوفاض ـ أى الجماعة من الناس ـ والأخلاط من الفقراء يأوون اليه على خلاف بين الباحثين فى أصولهم » (١)

وفى تاج العروس والنهاية لابن كثير أن أهل الصفة كانوا أضياف الاسلام من فقراء المهاجرين ، ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه ، فكانوا يأوون الى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه .

ويرى الدكتور حسن ابراهيم حسن : « أن كثيرا من المسلمين الذين اشتهروا بالورع والتقوى لم يجدوا فى علم الكلام ما يقنع نفوسهم المولعة بحب الله سبحانه وتعالى ، فرأوا ان يتقربوا اليه عن طريق الزهد والتقشف وفناء الذات فى حبه تعالى ، ومن ثم سموا (المتصوفين) . وان ردها البعض الى الملابس الصوفية التى تميز بها المسلمون الاوائل الذين عرفوا بالبساطة والتقشف ، وفى « مروج الذهب » للمسعودى (٢) أن عمر بن الخطاب « كان يلبس الصوف المرقعة بالأديم ويشتمل العباءة ، على حين كان سلمان الفارسى يلبس الصوف ويقال هذا ايضا عن أبى عبيدة بن الجراح الذى كان يظهر للناس وعليه الصوف الجافى »

ويقول القشيرى ـ ابو القاسم عبد الكريم (المتوفى سنة ٥٦٩ هـ ـ ١٠٧٣ م) فى نشأة المتصوفين الأول ، أنه لما « ظهرت البدع وتشاحنت الفرق ، وصار اصحاب كل بدعة وأنصار كل فرقة يدعون أن فيهم زهادا ، انفرد خواص أهل السنة المراعون انفسهم مع الله ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم الصوفية ، وأطلق هذا الاسم عليهم قبل نهاية القرن الثانى الهجرى بقليل »

---

١ ـ محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، ص ٢٨ ـ ٢٩

٢ ـ أبو الحسن على بن الحسين المسعودى المتوفى فى سنة ٩٥٧ بالفسطاط وكان قد قصد مصر قبل وفاته بعام

وعن عبد الرحمن جامى (١٤١٤ - ١٤٩٢ م) اخر شعراء التصوف الفرس ومن اقطاب الطريقة النقشبندية التى اسسها بهاء الدين نقشبند (١) وخلف جامى استاذه الكاشغرى على رياستها (٢) أن اول من تسمى بالصوفى هو ابو هاشم الذى ولد بالكوفة وقضى سواد حياته فى الشام وتوفى سنة (١٦٠ = ٧٧٨) وأن اول من صاغ نظريات التصوف وقام بتفسيرها هو ذو النون المصرى (٢٤٦ = ٨٦٠) تلميذ الامام مالك ، وقام بشرحها وتبويبها ونشرها الجنيد البغدادى (٢٩٨ = ٩١٠) ودعا لها من المنابر الشبلى (٣٣٤ = ٩٤٥) .

وتعد رابعة العدوية اشهر المتصوفات وأبرزهن فى التاريخ الاسلامى . وكان مجلسها محفلا لنساء المسلمين يستمعن الى وعظها ونوه بها الجامى بهذين البيتين من الشعر

ولـو كـان النسـاء كمـن ذكرنـا لفضـلت النسـاء علـى الرجـال
فـلا التأنـيث لاسـم الشـمس عـيب ولا التذكـير فخـر للهـلال

وكانت رابعة تقول فى مناجاتها : الهى تحرق قلبى بحبك ، ومن وصاياها ، اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم . وفى حبها لله سبحانه وتعالى تقول :

انـى جـعلتك فـى الفـؤاد محدثـى وأبحـت جسمـى مـن أراد جلوسـى
فالجسـم مـنى للجـليس مؤانـس وحـبيب قلبـى فـى الفـؤاد أنيسـى

وكانت رابعة تصلى الليل كله فاذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر . ولما ماتت كفنت فى جبتها . وهى خمار من صوف كانت تلبسه وكانت وفاتها سنة ١٣٥ هـ وقيل سنة ١٣٨ ، وقبرها يزار بظاهر القدس من شرقيه (٣)

والتصوف فى الاسلام وان انطوى على الزهد والتقشف فى اكثر حالاته . غيره فى الاديان والعقائد الاخرى فيرده سيد امير على الى عقيدة المسلمين فى « النور الباطنى » فالقول بوجود معنى خفى عميق وراء آيات القرأن الكريم لا يعنى الرغبة فى التهرب من ظواهرها أو من المدلول الظاهر للعقيدة وانما هو ظاهرة للايمان العميق بانها تحتمل من الدلالات والمعانى اكثر مما شرحه المفسرون ويقترن هذا الايمان بالشعور العميق بالهيمنة الالهية على الكون وهو شعور ينبعث من تعاليم القران الكريم وتعاليم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ولا خلاف بينهما باية حال . مما يـؤدى كمـا يقول - الى الفلسفة التأملية او المثالية التى اطلق عليها اسم « التصوف » .

وكان الامام الغزالى اكبر دعاة التصوف فى الشرق الاسلامى ، يقابله ابن طفيل فى الغرب الاسلامى ، ولا يعنى ذلك ان الغزالى هو أول من قال بفكرة « النور الباطنى » فى الاسلام ، فان معرفة الله سبحانه وتعالى عن طريق الالهام أمر ثابت فى الدين والتقرب الى الله من فروض الدين واساس لصحة العبادة وفى قول المصلى : (سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد) ما يشعر العبد المؤمن بان الله منجز وعده .

---

١ - محمد بن محمد بهاء الدين البخارى (١٢١٧ - ١٣٨٩) ولطريقته فروع فى الصين وتركستان وقازان وتركيا وتتميز بطريقة خاصة فى الذكر .

٢ - اخر شعراء التصوف الفرس ولد فى خرجرد جام واشتهر بلقب نور الدين وجامى نسبة الى مسقط راسه - جام - او الى شيخ الاسلام احمد الجامى الذى اخذ عبد الرحمن عنه وللجامى اشعار رائعة فى التصوف منها اللوامع فى شرح الخمرية (خمرية ابن الفارض . واشهر كتبه (نفحات الانس من حضرات القدس) تناول فيه احوال ٥٨٢ من كبار الصوفية بجانب ٣٤ من العارفات

٣ - د . حسن ابراهيم حسن . المصدر السابق ص ٢٢١

ويرجع الفضل للامام الغزالى فى ارساء التصوف على أصول وقواعد منهجية وأضفى عليه الروعة والجمال وقد جاء فى وقته حين مست حاجة العالم السنى الى من يشد أزره ويأخذ بيده مما ألم به من أباطيل الحشاشين وضلالات حسن الصباح وفجوره وجرائمه وغدره ، كما يقول سيد أمير على

وينبعث هذا النور الباطنى فيغمر الانسان بنوع من الشفافية والروحانية والحب الخالص لله تراه فى أشعار المتصوفة ، كما يقول فى « تائية السلوك الكبرى ــ لعمر بن الفارض » وهى قصيدة من سبعمائة بيت منها :

سقتنى حميا الحب راحة مقلتى ... وكأسى محيا من عن الحسن جلت
وبالى أبلى من ثياب تجلدى ... به الذات فى الاعدام نيطت بلذة
فلو كشف العوار بى وتحققوا ... من اللوح مامنى الصبابة أبقت
لما شاهدت منى بصائرهم سوى ... تخلل روح بين أثواب ميت
ومنك شفائى بل بلائى منة ... وفيك لباس البؤس أسبغ نعمة

ففى البيت أحب بعينيه وفى الثانى وجد لذة فى انعدام ذاته امام ما يفكر فيه من جمال المحبوب (قدرة الله) وفى الثالث والرابع فنى جسمه وبقيت روحه المعذبة المدنفة التى تجد فى البيت الخامس لذة فى الألم واستمراء البؤس (١)

وقد بقى التصوف الاسلامى فى فجره الأول محتفظا بنقائه وحيويته ومحافظته على تعاليم السنة ، وكان للمتصوفة دورهم البارز فى تاريخ الاسلام والمسلمين عندما تلم بهم الملمات وتعتورهم المحن ، وان ظهر بين الحين والحين بعض المغالاة وآخرون ممن اتخذوا التصوف وسيلة لمأرب مادى أو نفع مالى ، أو غاية مرموقة وفيهم يقول الشاعر محمود الوراق :

تصوف كى يقال له أمين ... وما يعنى التصوف والأمانة
ولم يرد الاله به ولكن ... أراد به الطريق الى الخيانة

الصوفية والجهاد الاسلامى :

وكان لجماعة الصوفية الدور الاسمى فى الجهاد الاسلامى ، والمكان الاثير فى البناء الحضارى ، وفى نشر الإسلام فضلا عن إثارة الجهاد ضد الصليبيين والتتار ، ويشاء القدر أن تكون نهايتهما على يد مصر فى حطين وفى عين جالوت وفى المنصورة حيث كانت الجولة الاخيرة والحاسمة فى تاريخ الحروب الصليبية . كما كان لهم دورهم فى المغرب الاسلامى وفى الاندلس ولم يكن يثنيهم عنه وهن أو كلال .

ففى معركة المنصورة وقد احاطت جموع الصليبيين بقيادة لويس التاسع الفرنسى ــ أو القديس لويس ــ وهو اللقب الذى اضفته البابوية عليه ، اكبارا واجلالا له عام ١٢٩٧ بعد نيف وربع قرن من وفاته عام ١٢٧٠ ، وكان أبوالحسن الشاذلى شيخ الصوفية فى مصر بطل المعركة بحق وكان قد وهن جسمه وكل بصره ، فلم يمنعه وهن الجسم أو كلال البصر من

---

١ ــ د . حسن ابراهيم حسن : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٢٢

الاشتراك فى المعركة يشجع الجند ويحثهم على القتال داعيا الله أن يهب المسلمين النصر ، ويقال انه فى « ليلة من الليالى رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فى رؤية طويلة ـ وأصبح رضى الله عنه يبشر بالنصر » (١)

وحفلت مصر فى تلك الفترة التى اتجهت فيها انظار العالم اليها بعد معركة حطين (١١٨٧) واجلاء الصليبيين عن بيت المقدس فى نفس السنة ، بعد حصار لأسبوع واحد ، وانتزاع اكثر مراكزهم ولم يبق فى ايديهم غير انطاكية وصور وقلة من المواقع الساحلية الصغيرة ، ولم يعد فى اذهان الصليبيين غير تحطيم مصر ، لتعود لهم سيادتهم على المشرق ، وكانت معركة المنصورة اخر المطاف فى جولة غدا النصر فيها معقودا بألوية المصريين ، وتزعم الفقهاء والمتصوفة الدعوة الى الجهاد ، وازدان بهم العصر ، من أمثال العز بن عبد السلام ، ومجد الدين القشيرى ومحيى الدين بن سراقة ومجد الدين الاخميمى ، وفيهم ابو الحسن الشاذلى ، وقد نزح الى مصر وقضى بها بقية حياته وغدت مصر منذ ذلك الحين ملاذ الصوفية والمتصوفة حيث توفى ابو الحسن الشاذلى وهو فى طريقه الى الحج ما بين قنا والقصير فى (حميثرة) بصحراء عيذاب ، ودفن حيث وافاه الأجل أول شوال ٦٥٦ هـ ، بعد أن استخلف على الطريقة تلميذه وصفيه أبا العباس المرسى ، وقد قال لصحبه حين أحس دنو أجله : « اذا أنا مت فعليكم بأبى العباس المرسى فانه الخليفة من بعدى ، وسيكون له بينكم مقام عظيم ، وهو باب من ابواب الله سبحانه وتعالى » (٢)

وكان من صحابته عند ذاك : « الشيخ الامام قاضى القضاة بدر الدين ابن جماعة » وظل يفخر بصحبته وبحضور جنازته ، والصلاة عليه بحميثرة ـ كما جاء فى التفاخر العلية لابن مغيزل ـ ويصف قدومه الى مصر من المغرب الاقصى ، فيقول : « صار يدعو الخلق الى الله تعالى ، فتصاغر وخضع لدعوته أهل المشرق والمغرب قاطبة ، وكان يحضر مجلسه كبار العلماء من اهل عصره .. مثل سيدى الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، والشيخ تقى الدين بن دقيق العيد والشيخ عبد العظيم المنذرى ، وابن الصلاح ، وابن الحاجب ، والشيخ جمال الدين عصفور ، والشيخ نبيه الدين بن عوف ، وهؤلاء سلاطين علماء الدين شرقا وغربا فى عصرهم ، وايضا الشيخ محيى الدين بن سراقة والعلم ياسين تلميذ ابن العربى ، رضى الله عنهم فكانوا يحضرون ميعاده بالمدرسة الكاملية بالقاهرة لازمين الادب مصيخين له ومتتلمذين بين يديه » (٣) .

ولم يكن غريبا أن تصبح لمصر تلك المكانة الرفيعة فى العالم الاسلامى فى تلك الفترة من القرن السابع الهجرى ـ القرن الثالث عشر الميلادى ـ « فمصر كنانة الله فى ارضه من اصابها بسوء قصمه الله »

وقد شاء القدر أن يتوفى ابو الحسن الشاذلى فى نفس السنة التى اجتاح فيها المغول بغداد (٦٥٦ هـ : ١٢٥٨ م) فيسقطون الخلافة العباسية ويدمرون كل معالم الحضارة فى ساحة ازدهرت فيها طويلا ، وفى حاضرة ازدانت بها منذ اختار مكانها وخط معالمها أبو جعفر المنصور ودعاها مدينة السلام . وكان هناك من يقول : « انها مدينة السلام

---

١ ـ الامام الدكتور عبد الحليم محمود : ابراهيم بن ادهم : شيخ الصوفية ص ١٠
٢ ـ الامام الدكتور عبد الحليم محمود : ابو الحسن الشاذلى ، ص ٤٤ نقلا عن كتاب « درة الاسرار » اعلام العرب ع ٦٩
٣ ـ المصدر السابق : ص ٤٣ نقلا عن « المفاخر العليه » ص ١٥

والاسلام » وفي ذكر مآثرها يقولون : « انها جنة الارض ومدينة السلام وقبة الاسلام ومجمع الرافدين ، وغرة البلاد ، وعين العراق ، ودار الخلافة ومجمع المحاسن والطيبات ، ومعدن الطرائف واللطائف وبها أرباب الغايات من كل فن ، وآحاد الدهر من كل نوع » (١) وقيل فيها أيضا : « انها حاضرة الدنيا وما عداها بالية .»

ولا نستطيع ان نفضى عما نال العالم الاسلامى من خطوب وما حلّ ببغداد على ايديهم من خراب ودمار ، وقد حاول ابن الاثير ان يفضى عن ذكره ، وانتابته القشعريرة حين أتى على ذكرها ، فيقول : « لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة ، استعظاما لها ، كارها لذكرها .. فمن ذا الذى يسهل عليه ان يكتب نعى الاسلام والمسلمين ؟ ومن ذا الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمى لم تلدنى ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، الى ان حثنى بعض الصحاب على تدوينها وأنا ساكت عنها ، حتى رأيت أن ذلك لا يجدى نفعا .. فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتل بمثلها لكان صادقا ، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها » .

ويقول عبد اللطيف البغدادى : « إن غارة المغول مصيبة تتضاءل دونها كل المصائب — حتى ثأر منهم المصريون فى عين جالوت وأقاموا الخلافة من جديد فى القاهرة » .

وكان للصوفية جولتها من الجهاد ونشر الاسلام فى الشمال الافريقى ، بل كانت بدايتها فى تلك البقاع قبل ان ينزح دعاتها الى مصر بعد أن غدت معقل الكفاح ضد الصليبيين واتخذها صلاح الدين الايوبى قاعدة لملكه ، وحاضرة التجمع العربى والاسلامى وأنزل الهزيمة الماحقة بالصليبيين فى حطين وحرر بيت المقدس ، لم يقم لهم بعدها قائمة فى المشرق العربى ، وكانت البداية لانحسار غمتهم عنه حتى كانت نهايتهم على يد الأشرف خليل بن قلاوون حين أجلاهم عن أخر معاقلهم فى عكا عام ١٢٩١ بعد مائة وتسعين واثنين عاما ميلادية ، ومائة وتسع وتسعين عاما هجرية (٤٩٢ — ٦٩٩ هـ) .

وبدأت جولة الصوفية فى الشمال الافريقى فى اتجاهين متلازمين بقيا سمة على كفاح الصوفية من بعد حين تصدت للاستعمار الاوروبى على نطاق العالم الاسلامى من الهند إلى الشمال الافريقى فى القرن التاسع عشر : الاتجاه الأول التصدى للعدوان المسيحى على معاقل الاسلام .

والاتجاه الثانى : العمل على نشر الاسلام بين اقوام لم يصل بدعوته اليها فى قلب افريقيا الزنجية . وسار الاتجاهان معا فى خطى رتيبة ، وكانت جولتهم الاولى لمواجهة العدوان المسيحى فى الاندلس ، فصانت البقاء الاسلامى فيها لاربعمائة عام تالية بعد الانتصار الذى احرزه يوسف بن تاشفين على الفرنجة فى معركة الزلاقة ، وتعد من معارك الاسلام الحاسمة (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) . ففى رحاب الدعوة الدينية التى قادها عبد الله بن ياسين لنشر الاسلام فى حوض السنغال والصحراء نشأت دولة المرابطين فى الشمال الافريقى ، وهو الاسم الذى اطلقه عبد الله بن ياسين على اتباعه « لصبرهم وحسن بلائهم ورباطة جأشهم » (٢) وحين آل أمرها الى يوسف بن تاشفين ، ودان لها الشمال الافريقى ،

---

١ — ياقوت الحموى : معجم البلدان : بغداد

٢ — احمد مختار العبادى : مجلة تطوان ع٥ ١٩٦٠ ص ١٤٦ — ١٤٧ — عن د . حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام فى القارة الافريقية : ط ٣ ص ١٩

واستغاثه المعتمد بن عباد ، لانقاذ ما بقى للمسلمين فيها بعد ان سقطت طليطله عروس

الاندلس فى يد الفونسو السادس ملك قشتالة وقد عزم ان ينال ملوك الطوائف وقد ناشأهم الفرقة فهانوا وهان امرهم ، واخذ يتوعدهم وينذرهم بمصير هو اشد من مصير طليطلة .

ولما جاءته صرخة الاندلس ، كان على رأس دولة قوية تلوذ بالدين وتنزع الى الجهاد فى سبيل الله ، فاستشار فقهاءه وفقهاءه فيما يكون ، أجمعوا على نجدة الأندلس ورد العدوان عنها ، فعبر بجيشه الى الاندلس بعد ان سبقته قوة من الفرسان احتلت ثغر الجزيرة الخضراء لتكون تكأة له وقاعدة لجيشه يتقدم منها لملاقاة العدو

وهاج البحر في عبوره ، فاعتلى ظهر سفينته ورفع يديه الى السماء قائلا : « اللهم ان

كنت تعلم ان في جوازنا هذا خيرا للمسلمين فسهل علينا جواز هذا البحر وإن كان غير ذلك

فصعبه حتى لا اجوزه » ويقول انه ما كاد يتم كلامه هذا حتى « سهل الله المركب ، وقرب المطلب » وعبر فى ريح طيبة وبحر هادىء الى ثغر الجزيرة فى سلام .

وتقدم ابن تاشفين الى اشبيلية ، وتلقاه المعتمد بن عياد صاحبها فى وجوه اصحابه وتعانق الملكان ، وتضرعا للى الله ان يجعل جهادهما خالصا لوجهه .

وسمع الفونس السادس ملك قشتالة بعبور المرابطين وهو على حصار سرقسطة فرحل عنها بعد أن استنفرقومه الحاق به وزحف للقاء جيش المسلمين فى سهل الزلاقة وهو سهل يقع شمال بطليموس قريبا من حدود البرتغال الحالية .

وعسكر الجيشان قبال بعضهما لا يفصل بينهما غير ثلاثة أميال وقبل أن يبدأ القتال ، بعث ابن تاشفين الى الفونس عملا بالسنة يخيره بين الاسلام أو الجزية أو الحرب ويقول له :

« بلغنا يا ادفنش ، أن دعوت الى الاجتماع بنا وتمنيت ان تكون لك سفن تعبر فيها الينا . فقد عبرنا اليك وقد جمع الله فى هذه الساحة بيننا وبينك وسترى عاقبة دعائك وما دعاء الكافرين الا فى ضلال »

ورد الفونس غاضبا وقد تملكه الغيظ يهدد ويتوعد ، واكتفى ابن تاشفين بان رد اليه كتابه ، بعد أن ذيله بعبارة : « الذى سيكون ستراه »

وبدات المعركة يوم الجمعة من رجب ، وقيل أن قوات المسلمين ، وقد تفاوت تقديرها بين ثمانية واربعين ألفا وعشرين ألفا ، وقوات الفرنجة بين ثمانين الفا وخمسين الفا . ودارت الرحى حامية الوطيس ، ابلى فيها المعتمد بن عباد على رأس قواته الاشبيلية أحسن البلاء ، بعد أن تفرق أكثر من معه ! وصدم الفونس فرسان المرابطين فردها عن موقعها حتى دفع ابن تاشفين بقوات البربر ، فاخترقت قلب الفرنجة ، وثبت المسلمون وداور ابن تاشفين قاصدا معسكر الفرنجة فاشعل فيه النيران ، ثم دفع بحرسه الاسود الى قلب المعركة ، وطبولهم تدق بشدة فيرتج لدويها الفضاء وتثير الفزع فى قلوب الفرنجة ، ولم يكن لهم عهد بها من قبل ونفذ أحد رجال الحرس الى الفونس وطعنه بخنجر طعنة نافذة فى فخذه فانحاز ومن معه الى تل يحتمى به ، بعد ان خسر المعركة ، حتى أرخى

الليل سدوله فانسحب متواريا بأستاره وليس معه من جنده غير خمسمائة فارس مثخنين بالجراح يقال إن اكثرهم مات فلم يصل منهم الى قشتالة غير مائة

ومهما يكن من مبالغة فى ذكر الخسائر قلة أو كثرة فقد انتهت المعركة بانتصار المسلمين -- وارتد سيل النصرانية عن الاندلس لاربعمائة عام تالية وكان انتصار المسلمين فى الزلاطة انتصارا لروح الاسلام التى قام على الحفاظ عليها وبعثها الفقهاء والمتصوفة حين وهن امر الدولة الاسلامية بعدما ناشتها الفرقة .. وعصف بها الانقسام وتفرقت دولا عديدة فى المشرق والمغرب .

وحين وهن أمر المرابطين فى الاندلس والشمال الافريقى . كان الفقيه الامام المهدى محمد بن عبد الله بن تومرت من وراء الموحدين . وكانوا امتدادا لدولة المرابطين فى وقت زحف الفرنجة عما بقى للمسلمين فى الاندلس حتى جرتهم هم الآخرين مفاتن الاندلس وملاهيها وخيراتها فانصرفوا عن تصوفهم . وفارقوا وقار الاسلام الى صخب النعيم الفاتن ــ فحل بهم ما حل بالمرابطين من وهن وغدت دولتهم فرقا متفرقة ومتنافسة . بينما كان نصارى الاندلس تحت وقر البابوية وصرامة الكنيسة تلفحهم روح التعصب القاسى يندفعون فى حماس جارف للقضاء على الاسلام والمسلمين فى ربوعها . ولم يتورع أمراء المسلمين عن الاستعانة بهم ضد بعضهم البعض وكانت مأساة الاندلس مأساة الفرقة والتمزق والانقسام وقصر النظر بين ملوك الطوائف وفى الدولة الاسلامية على السواء .

الباب الرابع

الفرقة والانقسام

واجه الاسلام والمسلمون فى تلك الفترة التى حفلت بالاحداث خلال قرون ثلاثة منذ استبد الامراء بالسلطة فى منتصف القرن الرابع الهجرى حتى سقوط بغداد على ايدى التتار فى منتصف القرن السابع الهجرى (٣٣٤ ـ ٦٥٦) ليس أشدها ما كان من صراع حول السلطة . ولا ما كان من تيارات فكرية وفلسفية غاضت فيها المعالم وضلت فيها الافكار وانما كان البلاء من انقسام المسلمين الى سنة وشيعة دمرت وحدتهم واوردتهم موارد الهلاك حتى قيل ان « جلال الدين العلقمى » وزير الخليفة العباسى المستعصم بالله ، وكان من الشيعة الرافضة أن اصبح عينا للتتار على الخليفة ومهد لهم السبل لاجتياح بغداد والقضاء على الخلافة العباسية وذبح الخليفة وآل بيته كما ذبح الفقهاء وكان من قسوة هولاكو أن أمر بوضع الخليفة وولده فى بساط وأمر برفسهما حتى ماتا .

ثم كان البلاء الاخر تمزق الدولة الاسلامية الى دويلات عديدة متنابذة حتى كانت خلافة المستعصم بالله (١٠ جمادى الآخرة ٦٤٠ هـ ـ ٦ ديسمبر ١٢٤٢ م) قال عنه ـ ابن طباطبا ـ : « انه كان رجلا خيرا متدينا لين الجانب سهل العريكة عفيف اللسان ... الا انه كان مستضعف الرأى ، ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة .. وكان اصحابه مستولين عليه ، وكلهم جهال من أرذال العوام الا وزيره ـ مؤيد الدين محمد بن العلقمى ـ فانه كان من اعيان الناس وعقلاء الرجال ، وكان مكفوف اليد مرذول القول يترقب العزل والقبض صباح مساء .. وابن العلقمى هذا هو الذى ارسل التتار وإغراهم بالخلافة والخليفة ـ كما قلنا ـ ناقما على السنة اضطهادهم للشيعة ـ يقول الشيخ محمد الحضرى : انه بسقوط الخلافة العباسية « اشتقت قلوب العلويين من بنى عمهم بما حل بهم من هذا الخراب والدمار » (١)

ويصور الشيخ الخضرى : ما انتهى اليه المسلمون من تمزق عند سقوط الدولة العباسية فيقول :

١ ـ كان بغرناطة من البلاد الاندلسية دولة بنى نصر والقائم بالامر منها مؤسسها محمد الغالب بالله بن يوسف بن نصر (٦٢٩ ـ ٦٧١)

٢ ـ بشمال افريقية دولة الموحدين والقائم بالامر منهم ابو حفص عمر المرتضى ابن اسحاق بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٦٤٦ ـ ٦٦٥)

٣ ـ وبالجزائر الدولة الزيانية والقائم بالأمر منهم يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة (٦٣٣ ـ ٦٨١) .

---

١ ـ محاضرات تاريخ الامم الاسلامية : الجزء الثانى ص ٦٦٨

٤ ـ وبتونس الدولة الحفصية والقائم بالامر منهم ابو عبد الله محمد المنتصر بالله بن ابى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن ابى حفص (٦٤٧ ـ ٦٧٥)

٥ ـ وبمراكش الدولة المرينية والقائم بالامر منهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦ ـ ٦٧٥)

٦ ـ وبمصر دولة المماليك البحرية والقائم بالامر منهم المنصور نور الدين على بن المعز عز الدين ايبك (٦٥٥ ـ ٦٥٧) .

٧ ـ وباليمن الدولة الرسولية والقائم بالأمر منهم المظفر بن يوسف بن المنصور عمر بن على بن رسول (٦٤٧ ـ ٦٧٤) .

٨ ـ وبصنعاء من ائمة الزيدية المتوكل شمس الدين أحمد (٦٥٦ ـ ٦٨٠) .
٩ ـ وبالروم من السلاجقة ركن الدين قليج ارسلان الرابع (٦٥٥ ـ ٦٦٦)
١٠ ـ وبماردين من الدولة الارتقية نجم الدين غازى السعيد (٦٣٧ ـ ٦٥٨)
١١ ـ وبفارس من الأتابكية السلغرية أو يكن بن سعد بن زنكى بن مودود (٦٢٣ ـ ٦٥٨)
١٢ ـ وبلور ستان من الاتابكية الهزار سبية دكلا بن هزار سب (٦٥٠ ـ ٦٥٧)
١٣ ـ وبكرمان من دولة قتلغ خان ، قتلغ خاتون (٦٥٥ ـ ٦٨١)

ولا نرى صورة للتمزق فى دولة ، بشر الاسلام بالوحدة العالمية والاخاء الاسلامى الذى قامت عليهما خلافة الراشدين ، كهذا التمزق الذى عصف بوحدة المسلمين وأودى بالدولة الاسلامية فكانت أقصر الامبراطوريات التاريخية عمرا وكان احرى بها - لو اهتدى حكام المسلمين بشريعة نبيهم العظيم ، مما اثار الاسى والاسف فى نفس سيد امير على حين يقول :

« وا أسفاه ! إن دين الانسانية والاخوة العالمية لم يسلم من آفة النزاع والخلاف الذى لا يبقى ولا يذر - ان الدين الذى جاء ليضفى السلام والسكينة على عالم مزقته الاهواء يصبح هو نفسه مهيا للتمزق والنزوات الجانحة وشهوة الحكم والسلطان ، فاذا كانت المساوىء التى نعيناها على المسيحية ، قد نجحت عن قصورها وعجزها عن مسايرة الحياة البشرية ، فانها فى الاسلام قد نجمت عن التنافس على المجد الدنيوى ، والنوازع الجائرة للافراد والفئات الثائرة بقواعد النظام والأخلاق »

ويستشهد سيد أمير على بما ذهب اليه « دوسون » من :
« أن المسلمين لو ساروا على سنة نبيهم وتخلقوا بأخلاق الخلفاء الراشدين لامتدت امبراطوريتهم الى اكثر مما امتدت امبراطورية روما ، ولكانت ابقى على الزمن منها » ..
وهو ما يراه الدكتور هيكل فى كتابه عن « الحكومة الاسلامية » فى حديثه عما اصاب الدولة الاسلامية من تدهور فيقول :

« ظلت الامبراطورية الاسلامية قائمة قوية ما جعلت هذه الرسالة الانسانية السامية غايتها ، ولقد كانت موشكة ان تنشىء على اساس من هذه الرسالة دولة عالمية تنتظم امم ذلك العهد جميعا لكن دورة الفلك دارت فاذا الحرية انقلبت جمودا ، واذا الاخاء والمساواة يذبلان امام سلطان الباطشين من الحكام المستبدين »

الا أن أعظم الهوان ما كان من صراع على السلطة بين أمراء الاسلام وأصحاب النفوذ حملهم على اتخاذ اعدائهم من التتار أعوانا ضد بعضهم البعض ، كما اتخذوا من النصارى فى الأندلس ملاذا لهم وحلفاء يستعينون بهم ضد منافسيهم من اخوانهم ابتغاء السلطة والنفوذ ، وكانت نهاية الاندلس كما كانت نهاية بغداد من اثر هذا الخلاف الذى ناش الحكم الاسلامى فى كلا الدولتين .

أول الهوان

وكان أول الهوان حين فرقت الدولة الاموية بين العرب والموالى ، وما كان من تفرق العرب شيعا وأحزابا ، ولم يكن ذلك ثلمة فى وحدة المسلمين بقدر ما كان ثلمة فى وحدة الدولة فناشتها الفرقة التى اودت بها فى النهاية ، فلما خلفتها الدولة العباسية على امارة المسلمين ، لم يكن السادة الجدد خيرا ممن سبقوهم ، لم يزجرهم وازع من دين ، أو قرابة لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، حتى كان أبو العباس أول خلفاء الدولة العباسية أشد ترة واقسى حقدا من الامويين حتى لقب بالسفاح ، وبطش بهم وقد قال لهم : « يابنى الفواعل ، أرى قتلاكم من أهلى قد سلفوا وأنتم احياء تتلذذون فى الدنيا » ويقال انه دعا بطعام حين قتلهم وكانوا تسعين من أشراف بنى امية ، وجعل فوقهم بساطا وجلس فوقه يأكل وهم يضطربون تحته ، فلما فرغ قال : ما اعلمنى أكلت أكلة قط أهنأ ولا اطيب لنفسى منها . ثم امر بهم فجروا من ارجلهم والقى بهم فى الطريق ، ويقال : ان الكلاب كانت تجر بارجلهم وعليهم سراويل الوشى حتى انتنوا ثم حفرت لهم حفرة فألقى بهم فيها ..

ولم ينج العلويون بدورهم من بطش العباسيين ، حين خافوهم على الملك وكان بين العباسيين والعلويين ما كان بين الامويين والهاشميين من قبل . وقدر لأموى أن ينجو ويفلت من الانتقام ، وشق طريقه متخفيا الى مغرب الارض من ملك اهله فى مغارة اسطورية تفوق كل خيال حتى نزل الاندلس فأقام ملكا وشاد دولة ، وكانت بداية التمزق الذى عصف بالامبراطورية الاسلامية حتى انتهت الى ما صارت اليه فى العصر العباسى الثانى .

واراد ابو جعفر المنصور الخليفة العباسى الثانى أن يمالئه ويترضاه حتى لا يخرج على الدولة ، فدعاه « صقر قريش » وكان أول من اطلق عليه هذا اللقب ، فعرف به أكثر مما عرف باسمه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك وكان من اقتحامه الاندلس أن سمى « عبد الرحمن الداخل » فلما ظفر بالملك قطع كل صلة تربط الاندلس بالدولة العباسية وان لم يتخذ لقب أمير المؤمنين أو يدعى الخلافة الاسلامية .

وما لبث ابو جعفر ان رأى اهمال عبد الرحمن لأمره حتى انقلب عليه وطرق باب (بيبين – ملك الفرنجة رغبة فى مساعدته على عبد الرحمن الداخل (١) وتبادل معه السفراء حتى خشى عبد الرحمن هجوم الفرنجة أكثر مما خشى صولة الخليفة العباسى وكانت تلك مأساة الدولة الاسلامية منذ البداية .

---

١ – د حسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٢٠٣ ط ٢

ولم يطل الزمن بالدولة العباسية حتى انتابها الوهن ، ولم يعد للخليفة من المكانة غير ما تضفيه الخلافة على صاحبها من قداسة نجح العباسيون فى اضفائها عليها . وان كانت لا ترقى بالخليفة الى توقير صاحبها بعيدا عن المنصب فذاته ليست مصونة والاجلال للخلافة لا لصاحبها مادام هناك من يحل محله ، وكم راح كثير من الخلفاء العباسيين ضحية غضب الجند ، ليقيموا مكانه من يختارونه على هواهم ، وليس للناس عندهم رأى مادامت الخلافة قائمة لا تمس فى اصحابها من بنى العباس ، أما الرأى والامر فلامير أمراء الجند ، وكان لهم من القابهم ما يضفى عليهم الصولة والجاه وحماية الدولة فهم معز الدولة ، وبهاء الدولة ، وصمصام الدولة ، وقدام الدولة ، وفخر الدولة ، وشمس الدولة ، وسماء الدولة ، وما الى ذلك من القاب غلفت ألقابهم كما يهوى كل منهم لنفسه -- وتجذب الناس اليهم فالدولة هى الخلافة ، ولا دولة بغير الخلافة ، فالخلافة قبلة المسلمين ورباطهم الاعظم وكأنما فى بقائها بقاؤهم ، حتى غدت بعض ما يدينون به ، وسمت الى مستوى العقيدة ، وبقيت تلك صفتها حتى هوت عن الاتراك العثمانيين وزالت بزوالهم

وخلف أمرة الامراء على الدولة قيام الدول المستقلة فى خراسان وفى مصر ، وفى المغرب الأقصى ، وفى تونس ، وسبقها جميعا قيام الدولة الأموية فى الاندلس على يد عبد الرحمن الداخل ، حتى انتزع الفواطم مصر من الدولة العباسية ، وأقاموا الخلافة الفاطمية ، وشهد العالم الاسلامى خلافتين متناقضتين ومتنافستين تناقض ما بين السنة والشيعة وتنافسهما على ولاية العالم الاسلامى ، حتى اذا اعتلى عبد الرحمن الناصر عرش الدولة الاموية فى الاندلس (٣٠٠ هـ ــ ٩١٢م) ورأى انسياح الفواطم فى المغرب الاقصى واقترابهم من الاندلس ، عمل على احياء تراث الخلافة الاموية فأعلن فى مستهل ذى الحجة ٣١٦هـ ــ ٩٢٩م نفسه خليفة وأميرا للمؤمنين ، وبدأت الدعوة من بعد للامويين بألقاب الخلافة فى الاندلس والمغرب الاقصى ، ونقشت ألقاب الخلافة على السكة . وغدت الخلافة الاسلامية ثلاث خلافات فى ثلاث حواضر : بغداد ، والقاهرة ، وقرطبة .

الا ان هذا التناقض فى الحكم والتنافس على السلطة لم يكن عائقا أمام ازدهار الحضارة الاسلامية ، فلم تعد بغداد وحدها مركز العلوم والمعارف والفكر والادب والفلسفة والفنون ، والتصوف بل تعدتها الى قرطبة والقيروان وتونس والقاهرة وخراسان وسمرقند وغدت جميعا مراكز اشعاع لحضارة زاهرة ومزدهرة ، أهدت للانسانية والحضارة الانسانية ما حفلت به من تقدم وارتقاء ، ولم يكن عائقا امام انتشار الاسلام وامتداده الى بقاع لم يصل اليها سلطان الدولة او الدويلات التى اقتسمتها . وكان للمتصوفة اليد الطولى فى امتداده اليها ، وفى رحاب التعاليم الصوفية قامت دولة المرابطين والموحدين ، وكان لهما دورهما البارز فى تاريخ المغرب الاسلامى من القيروان الى قرطبة . وكانت تلك البقاع النائية فى مغرب الارض . لم تطأها قدم عربى من قبل حتى اجتاحتها موجة الفتوح العربية رافعة اعلام الاسلام خفاقة بالنصر ، ووجدوا من البربر فى الشمال الافريقى اقبالا لم تعرفه عقيدة من قبل ، ولم يمض بهم الزمن طويلا حتى استعربوا وغدت اللغة العربية لغتهم الاصيلة ، وبقيت الى يومنا هذا تطبع الشمال الافريقى بطابع العروبة ، وينتمى الى الامة العربية ليعرف من بعد والى يومنا هذا باسم المغرب العربى وكان على ايديهم فتح الاندلس بقيادة طارق بن زياد مولى موسى بن نصير .

ولم تكن موجة الفتوح الاسلامية الا هجرة واسعة النطاق بقبائل عربية بأكملها ، استقرت واقامت فى البلاد المفتوحة وأصهرت الى اهلها ونشرت بينهم لغتها ودينها ، وسادت الشمال الافريقى لغة ودينا ، فشل ما كان من محاولات الاستعمار لحديث فى ابعاده عنهما رغم اصراره وما بذله من جهود لاسيما فى الجزائر وتونس وليبيا ثم المغرب اخيرا قبل ان تظفر باستقلالها بجهود ابنائها وأبطالها ..

وكانت نهاية الاندلس ، كما كانت نهاية بغداد من أثر هذا الخلاف الذى رأس الحكم الاسلامى فى كلا الدولتين ، وكانت مملكة غرناطة اخر ما بقى للمسلمين فى الاندلس (٥٩٥ - ٦٧١ هـ - ١١٩٨ - ١٢٧٢)

وقد مر تاريخ الاندلس منذ قيام الدولة الاموية وانفصالها عن الدولة العباسية بمراحل ثلاث : اولها مرحلة القوة والتفوق التى ازدان بها تاريخ المسلمين فى الاندلس ، والثانية مرحلة الكلال حين دب الوهن الى بناء الدولة وانقسم البيت الاموى على نفسه جماعات حاكمة لعدد من الدويلات الصغيرة لاذ حكامها بحياة ناعمة فاستسلموا لطراوة العيش ، واضفوا على انفسهم ألقابا فخمة هم دونها بكثير - كما كان شأن امراء الجند فى بغداد - يصفها الشاعر الاندلسى (ابن رشيق) بقوله ٠

مما يزهـــدنى فى ارض أندلـــس ... تلقـيب معتمـد فيهـا ومعتضـــد
القـــاب مملكـة فى غير موضعهـــا ... كالهـر يختـلى انتفاخـــا صولة الاسـد

وكانوا فى نزاع دائم ، كل منهم طامع فى الاخر ، ونصارى الأندلس يتربصون بهم الدوائر ، وقد وحدوا صفوفهم للقضاء على المسلمين ، حتى جاءهم (يوسف بن تاشفين) من المغرب ، فأنقذهم من غائلة (الفونسو السادس) ملك قشتالة ، ومد فى عمر المسلمين بالاندلس اربعة قرون أخرى - بعد أن كانت - كما يقول : « مؤرخ الاندلس العظيم محمد عبد الله عنان » على وشك الفناء (١)

وفى اثرهم جاء الموحدون يحدوهم ايمان خالص بجلال الاسلام والجهاد فى سبيله جمعهم عليه الامام المهدى محمد بن عبد الله بن تومرت ، كما جمع المرابطين عليه من قبل -- عبد الله بن ياسين -- وكان هو الذى دعاهم باسمهم هذا الذى عرفوا به وعرفت به دولتهم ، وكان له دوره الاثير فى نشر الاسلام فى القارة الافريقية (٢) ٠

وكانت المرحلة الثالثة حين حل الكلال والوهن بالمسلمين فى الاندلس وتفرقوا طوائف متنازعة متخاذلة ٠ عرفوا فى التاريخ باسم ملوك الطوائف ، وكانت نهاية الاندلس الاسلامية على ايديهم حين غلبهم الزحف المسيحى على امرهم بسقوط غرناطة عام ١٤٩٢ . كما كان سقوط بغداد من قبل عام ١٢٥٨ ٠

جذور المحنة

« لم يحفل العرب - كما يقول المؤرخ البريطانى هـ ١ ٠ ل فشر حين خاضوا المعارك وفتحوا ما فتحوا ، بتحويل الناس الى الاسلام خلال السنوات الأولى من فتوحهم --

١ - تراجم اسلامية شرقية واندلسية : يوسف بن تاشفين ٠ ص ٢٠٠ - ٢٠٨
٢ - د ٠ حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام فى القارة الافريقية ط ٢ ص ٢٠

والمعروف كذلك ان التوفيق رافقهم فى كل اعمالهم بفضل سياسة التسامح التى اتبعوها مع اليهود والمسيحيين ، وانهم بذلك قد دلوا على احسن الامثلة المضادة لما تدنس به من جاء بعدهم من صنوف الاضطهاد من اجل الدين .. أما ما تدنس به غيرهم ـ كما يقول ـ فقد جاء فى البداية من قبل الجانب المسيحى حين تحولت الدولة عن وثنيتها الى المسيحية . فأوقع المسيحيون بمخالفيهم من الاضطهاد والتعذيب ما كان الرومان الوثنيون يوقعونه بهم من قبل ، وظلوا على ذلك حتى لوث تعصبهم أرض اوروبا بفيض من الدماء حين انقلبت فرق المسيحية على بعضها البعض اثر حركة الاصلاح الدينى » (١)

وسبق حركة الاصلاح الدينى وما اثارته من تعصب مذهبى : عاملان كان لهما أبعد الأثر فى التاريخ الاوروبى وفى الفكر المسيحى على السواء فأما العامل الاول فكان انسياح القبائل الجرمانية المتبربرة من مواطنها فى شبه جزيرة اسكندناوة شرقا وغربا على الساحة الاوروبية فخاض فريق منها فى بقاع ألمانيا « سعيا وراء العيش او الجو المعتدل ، أو حبا فى المغامرة والحرب . حتى وصلت فئة منها الى حوض الراين ، وانحدرت أخرى شرقا ، فاجتازوا نهر الدانوب الى سواحل القرم على البحر الاسود وعرفوا باسم القوط واقترن تاريخهم فى العصور الوسطى بما شابه من ظلام ووحشية ودمار » (٢) .

وفى أعقاب الجرمان جاءت قبائل الهون احدى فروع الجنس المغولى تمتطى أفراسها المغولية المعروفة (بالبراذين) تخوض البرارى الاسيوية فى آسيا نحو الجنوب الشرقى من اوروبا أواخر القرن الرابع الميلادى ، تشيع فى طريقها الخراب والدمار ، وتزيل كل عقبة فى طريقها كالعاصفة تقتلع كل ما يواجهها من جذوره ـ على حد تعبير فشر ـ وجاشت البقاع بتحركات الهون والجرمان مما غمض على التاريخ الا من اثاره التى تركت معالمها على صفحة التاريخ الاوروبى ، كان ابرزها ما كان من قيام احد مغامريهم ليقود صفوفهم ويسيطر بهم على كل البقاع الممتدة من نهر الراين الى جبال الاورال تسعة عشر عاما كاملة (٤٣٥ ـ ٤٥٤ م) ذلك المغامر هو الذى عرفه التاريخ باسم (الملك أتيلا) وهو أحد الأفراد القلائل الذين يحتلون ساحة التاريخ بين الحين والحين فيكتبون احداثه ، وكان آخر ما قام به سنة ٤٥٠ م ، أن أخذ الدولة الرومانية فى الغرب أخذ عزيز مقتدر ، وقد عرف انها فريسة سهلة لن يتعسر عليه اغتيالها ، وان لم يتسن له ان يسوى أمورها بما يتيح لدولته البقاء والامتداد وما لبث أن ادركته المنية عام ٤٥٤ م بعد ان تمزقت دولته وكأنها لم تكن .

ويبدو أن البيئة وطبيعة الحياة فى تلك البلاد التى تقسو فيها الحياة تحمل ابناءها على اكتساح المناطق الغنية بحياتها الرخية وانتهاب خيراتها ليعودوا بعدها الى حياتهم الطليقة الرحبة الخالية من القيود ، فاذا أتيح لهم الاقامة والاستقرار لاذوا بحياتهم الجديدة ، وهو ما كان من اهل السهوب الرعوية فى المناطق المدارية فى بلدان الشرق الادنى القديم ، حين يغيرون على ما جاورهم من البلدان العامرة ثم يرتدون الى منتجعاتهم الأولى حيث الحرية والانطلاق فى حياة عشائرية .

---

١ ـ تاريخ اوربا فى العصور الوسطى ، ترجمة زيادة والعرينى ، ف٤ ص ٦٠ ـ ٦١
٢ ـ المصدر السابق : الجزء الاول ف٢ ص ، ١٥ ـ ١٧

وقد نجت امبراطورية الروم الشرقية من ادران الجرمان والهون فى جولتهم المخربة وان صانت نفسها من تقاليدهم رغم ما تدنت اليه من مباذل وعهر وما حل بالبلاط الامبراطورى من فساد وما عصف بالكنيسة من جمود ونزوغ عن الاصلاح . فضلا عما ساد نظام ولاية العرش من فوضى يثيرها الجند والدهماء ، أو الطامحون لولاية العرش الامبراطورى على عكس ما كان للملوك المتبربرين من حقوق مرسومة لولاية الحكم غالبا ما تستند الى اصول دينية كما كانت عشائر الفيكنج التى انحدر منها هؤلاء الشماليـون البـرابرة ، أو قبـائل الجـرمان الغازيـة أن تعتنـق المسيحيـة ، فالالـه ثور الـه الرعد ، وأودين الـه الحرب والملاحم ، وفراى اله الخصب ، لا تدعو الى فضائل أو قيم اخلاقية مما درجت عليه الاديان العليا ، ولا يحكمها وازع من ضمير أو احساس بالخطيئة أو الفضيلة فكل ما تشتهيه النفس مباح فالحرب ملهاة والنساء متعة والخمور والاغانى مسلاة محببة ، والنهب والمذابح اعلاء للذات ، فاضت بها ملاحمهم وقصصهم . ولعل عصف الطبيعة والانواء البحرية القاسية ، والثلوج المتجمدة ، والاعاصير المدمرة ، قد غرست فى نفوسهم نوعا من القدرية لا يملكون من حياتهم غير ساعتهم ، فاذا فارقوها حملتهم آلهتهم الى جنات الفالهالا مثوى الشجعان والابطال .

وعلى ما بين غارات الشماليين من الفيكنج فى القرن التاسع الميلادى وغارات الجرمان بداية من القرن الثالث الميلادى ، ثم قبائل الهون أواخر القرن الرابع الميلادى كانت اوربا والامبراطورية الرومانية يواجهان انسياحا لا يهدأ وامواجا من البشر تتحرك كارجال الجراد ، لا تقيم ولكنها تترك ما وراءها خرابا يبابا ، وإن كانت فى الواقع تشكل احداث التاريخ الاوروبى القادمة ، وتصوغ صفحته فى عصر النهضة وما بعدها حتى قيام الدولة القومية الحديثة على اطلال النظام الاقطاعى .

وعندما اجتاح اتيلا ملك الهون الامبراطورية الرومانية ـ كما قلنا ـ وبقى تسعة عشر عاما يحكمها ، لم تكن لديه القدرة على البقاء لعجزه عن تمثل النظم الادارية التى تحتاجها الدولة فانسحب عزوفا عنها .

وفى اثره جاء (كلوفس) ملك الفرنجة البحريين ليضع اساس الدولة الميروفنجية (٤٨١ ـ ٥١١ م) واعتنق المسيحية بعد أن أصبح ملكا على الفرنجة واعلن انه فى سبيل الكاثوليكية من المجاهدين وكان ذلك التحالف بين السلطة الحاكمة والبابوية الذى امتد الفا وستمائة من السنين وكانت نهايته عام ١٨٣٠ وبفضله ـ كما يرى فشر ـ سادت الكاثوليكية من البحر المتوسط الى بحر المانش ومن الاطلنطى الى نهر الراين ورضى ان يكون طوع الكنيسة .

وبدأت مرحلة جديدة فى التاريخ الاوروبى وفى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية والبابوية بوجه خاص ، وفى حكم الميروفنجيين كان النذير للحروب الصليبية أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، وكان القضاء على الهراطقة الالبجنسيين أوائل القرن الثالث عشر . وهجرة الهيجونوت من فرنسا فى القرن السابع عشر ، مما أثرى البلاد التى اعتنقت البروتستانتية باوروبا اقتصاديا واغناها روحيا .

ومع ما كان لملـوك الفرنجـة من اتجاهات دينية شابها حماس كهنوتى لم يكونوا مسيحيين صالحين وكانوا يقترفون المنكرات وينغمسون فى الملذات دون حرج فهم نسل « ميرو فيوس » الذى ينحدر من اصلاب اله البحر العظيم كما جاء فى اغانى الفرنجة .

وكانت لهم قداستهم قبل اعتناقهم المسيحية وبقيت لهم ذوائب شعرهم المدلاة على ظهورهم ، وما كانوا بين عشيرتهم فى حاجة الى اسقف مسيحى او كاهن ، يؤيد سلطانهم أو يضمن لهم ولاء جنودهم الفرنجة - وان كانوا قد نعموا بعطف الكنيسة وتأييدها ، فلانهم اضفوا عليها حمايتهم ، فأثنت عليهم حين حملوا على الاريوسيين واليهود وحمدت لهم حروبهم وانتصاراتهم اذ رأتها انتصارا للكنيسة والدين ـ ولعل ذلك رغم فجورهم ومباذلهم وصراعاتهم الداخلية قد مد فى عمر دولتهم قرابة ثلثمائة سنة (٤٨١ ـ ٧١٦ م) .

وقد وجدت تلك الشعوب الشمالية فى الحركة الانسانية زادا لفرديتهم ورأوا فى الحياة بامتلائها المادى ما هو اكثر غنى ومتاعا من كل الوان الجمال الذى هامت به شعوب الجنوب فى حركة الاحياء الكلاسيكى وبدوا أكثر التصاقا بالفعل والواقع منهم بالخيال السابح فى اجواء الفن والجمال ، وأكثر محافظة على القديم لا عن تدين او تعلق بالكنيسة ولكن عن احساس صادق بالحوافز المادية والعقلية التى تسيطر على طبيعة الحياة فبينما اغرقت الحركة الانسانية الايطاليين فى موجة من الاستنارة الرائعة اتجه الشماليون الى التجارة والصناعة والعلم ، وكانوا اكثر تأثرا بالنظم والاخلاق الرومانية منهم بالكنيسة . فغدت الحياة لديهم واجبا اخلاقيا يقوم على الجدية والصراحة . وتعلقوا بالتربية والتعليم وساسوا حياتهم على اسس صارمة من تقدير الواجب حتى رأوا اخيرا فى حركة الاصلاح الدينى حافزا لنشاطهم وطموحهم بدلا من تلك القيود التى تكبلهم بها الكنيسة الكاثوليكية وسيطرة البابوية (١)

وقد ترى أن المسيحية الغربية قد اتسمت بالسياسة منذ البداية ومنذ اصبحت ديانة رسمية للدولة بعد أن اعتنقها قسطنطين ، ويشاء القدر ان تغدو القسطنطينية التى ابتناها على ضفاف البسفور حاضرة الامبراطورية رمزا الإمبراطورية الرومان التاريخية بعد ان سقطت فى الغرب باستيلاء (ادوكر) زعيم الجرمان الروجيين على السلطة فى روما ، وخلع آخر اباطرتها (روميلوس او جسطيلوس) وأبى أن يقيم نفسه إمبراطورا . واعترف بتبعيته لامبراطورية الشرق ، ولم يكن هؤلاء البرابرة من غزاة الدولة ممن يأبهون بالالقاب ومظاهر السلطة قدر مايابهون بالنفوذ وممارسة السلطة فى ذاتها وفق تقاليدهم العشائرية لسد مطالبهم الخاصة فى حياتهم الاثيرة ، وهى « تروح وتغدو فى هذه الامبراطورية التى اصابها الخلل وحلت بها الفوضى ، والتماسا للاسلاب والغنائم وبحثا عن مستقر عامر تطيبب فيه حياتها الجديدة » .

اللقاء الدامى

وكان هذا اللقاء الدامى بين الاسلام والمسيحية ، أو بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى ثمرة عوامل محلية عديدة وان لعب التعصب المسيحى الدور الأول . ثم كانت السياسة والتنافس على السيادة بين الكنيستين الشرقية فى بيزنطة والغربية فى روما دورها الفعال فضلا عن الهوى الدينى الذى اثاره امثال (ولتر المفلس) و (بطرس الناسك) والراهب الالمانى (هودسكال) وكان كل ما وعوه عن المسيحية لا يتعدى المواعظ الكنسية وقد انصبت جميعا على كراهية اليهود والمسلمين ، اما قيم المسيحية الحقة فلا يعون منها شيئا ، بل انهم اساءوا اليها وشوهوها ، ولم يكن من اتباعهم فى

١ ـ المؤلف : الفكر السياسى الحديث ص ١٦٠ المكتبة الثقافية ١٩٦٧

حملاتهم الثلاث غير المشعوذين ، والمفلسين والافاقين والطامعين فى حياة اكثر راحة والهاربين من العبودية ووقر الاقطاع ، فكان ما نال حملة (ولتر المفلس) أولى الحملات الصليبية على يد البلغار مما قضى عليهم وقد نسوا بغيتهم ، وانساحوا وراء مباذلهم وفجورهم ناهبين مدمرين فلم يصبر عليهم البلغار المسيحيون ففتكوا بهم وابادوهم عن آخرهم وحل بحملة (بطرس الناسك) ما حل من قبل بحملة (ولتر المفلس) فما أن انساحوا الى البلدان العامرة فى سهول المجر والبلغار حتى اخذوا فى النهب والسلب ، ولما جاءوا « ملفيل » وضعوا السيف فى رقاب اهلها انتقاما لما نال جماعة ولتر المفلس على ايديهم ، ويقال انهم احتزوا رءوس سبعة آلاف منهم ، وسارع الامبراطور البيزنطى بنقلهم الى آسيا الصغرى اتقاء لشرهم حيث تلقفتهم اسياف السلاجقة فلم تبق منهم على أحد

وكانت الحملة الثالثة فى « تلك الموجات الشعبية » ـ كما يسميها (جيبون) بقيادة الراهب هودسكال ، ولم تكن خيرا من حملة بطرس الناسك .

وجاءت الموجة الرابعة قذفت بها فرنسا وانجلترا واللورين والفاندرز ولم تكن فى وحشيتها وتبذلها وبعدها عن القيم المسيحية الحقة خيرا مما سبقها من تلك الموجات الشعبية الجاهلة المتعصبة التى يصفها : « سيد أمير على » فى كتابه « موجز تاريخ العرب ـ نقلا عن « ملز(١) بانها كانت عصابة من الوحوش التعساء انقضوا على يهود الراين وذبحوا الالاف منهم فى (كولون) والمدن الاخرى ويقال انهم قتلوا فى مدينة (اميان) وحدها سبعة الاف يهودى ومضوا قدما فى طريقهم جنوبا يخربون وينهبون حتى قضى عليهم الجيش المجرى وبقيت عظامهم تغطى ارض المعركة طويلا .

ولما بدات الحملات النظامية ، وطرقت اقدامهم بيت المقدس اخيرا كان ما جرى منهم موضع الجزع والأسى والاحتقار والجبن والخسة والنذالة . اختلطت جميعا فى اذهان من شهدوها أو قدر لهم ان يلموا بها ، او يسمعوا عنها ، واخيرا من تصدوا للكتابة عنها من الاجانب امثال : « جيبون وملز وميلمان وميشو » فضلا عن العرب ..

وكان من جزع اهل بغداد حين جاءهم النبأ وقد حمله اليهم المستنفرون من الشام فى رمضان .. صحبة القاضى (ابى سعد الهراوى) فأوردوا فى الديوان كلاما ابكى العيون ، واوجع القلوب ، وقاموا بالجامع يوم الجمعة ، فاستغاثوا وبكو وأبكوا .. وسخر منهم الشاعر ـ محمد بن احمد الابيوردى ـ مستنكرا البكاء دون المواجهة والعويل دون الجلاء والمقاومة ، فقال :

وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... اذا الحرب شبت نارها بالصوارم

ولم يكن هناك ابغض هوانا مما قيل ، الا ما كان من « اصحاب مصر العلويين حين خافوا قوة الدولة السلجوقية بعد ان استولت على الشام واقتربت من مصر ، فارسلوا الى الفرنج يدعونهم الى الشام ليملكوه فتكون بينهم وبين المسلمين (٢)

---

١ ـ ادوارد جيبون : اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها : الجزء الثالث ـ ترجمة محمد سليم سالم ـ عن المختصر الذى اعدد فى مجلد واحد نقله الى العربية فى ثلاثة مجلدات اشرف على المجلدين الاولين استاذنا احمد نجيب هاشم . واسقط المجلد الثالث الفصل الثامن والخمسين الذى يتناول بداية الحروب الصليبية واسبابها

٢ ـ الشيخ الخضرى . المصدر السابق . ص ٦١٤ ـ ٦١٥

وما من حرب تباينت اسبابها وتعددت اهدافها واختلفت كما كانت حول الحرب الصليبية ، ولم أقل الحروب ، فلاننى اسلم بصحة التسميتين ، فلم تكن الحروب الصليبية غير حرب واحدة امتدت مائتى عام ، واذا كان ثمة تباين فى التفاصيل فان الاطار العام لم ينله اى تغيير ، فاذا كان التعصب المسيحى الاهوج قد لعب الدور الاول فيها ـ كما قلنا ـ فان السياسة كان لها دورها الآخر ، حين استنجد الامبراطور ميخائيل السابع البيزنطى سنة ١٧١٣ بالبابا جريجورى السابع بعد هزيمة جيوش الامبراطورية امام السلاجقة بقيادة ـ الب ارسلان ـ (٤٦٣ هـ ـ ١٠٧١م) تلك الهزيمة الماحقة لاستعادة نفوذ البابوية على الكنيسة الشرقية وكانت قد انفصلت عنها قبل معركة ملازكرد بثمانية عشر عاما . لولا ما شغله من خلاف نشب بينه وبين الامبراطور الالمانى ـ هنرى الرابع ـ حول تعيين الاساقفة فى دولته .

وجدد الامبراطور ـ الكسيوس كومنين ـ الاستغاثة الى البابا ـ اربان الثانى ـ فرأى فيها سندا لسلطان البابوية ، بعد ان اهتز كيانها امام طموح الملكيات الاوروبية والصراعات الناشئة بين امراء الاقطاع ، كما رأى الملوك وامراء الاقطاع منافذ لمكاسب جديدة ، شأن التجار الذين ينشدون اسواقا جديدة ورجال البحر ممن تعتمد عليهم الحملات فى انتقالها للغزو .

وكانت الموجة الرابعة فى الحروب الصليبية جيشا نظاميا قذفت به انجلترا وفرنسا واللدرين والفلاندرز ، يقوده جود فرى دى بويون دوق اللورين واخوه بلدوين وروبرت كونت الفلاندرز وريموند الفرنسى وبوهيموند الانجليزى . وما ان طرقت اقدامهم القسطنطينية حتى أخذ عليهم الامبراطور الكسيوس كومنين العهود والمواثيق بان يستعيدوا له ما استولى عليه الاتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى واسرع بفتح أبواب البسفور امامهم ليتخلص من مخازيهم وعبثهم وامدهم بالزاد والمؤونة ومعالم الطريق ولم يجدوا مقاومة تذكر بعد أن ألم الضعف بالدولة السلجوقية ، فانسابوا فى آسيا الصغرى سنة ١٠٩٧ م . واغار بلدوين على مدينة الرها وامتلكها وأسس فيها أول امارة صليبية بالمشرق العربى فى العام التالى ومضت القوات الاخرى قاصدة بيت المقدس فاحتلت انطاكية واقامت بها الامارة اللاتينية الثانية ـ أو الامارة الصليبية بمعنى أدق ـ يحكمها بوهيموند ، ثم مضت الى بيت المقدس بقيادة جودفرى مارا بمدينة الرملة خالية من اية دفاعات ، حتى وصل بيت المقدس (٤٩٢ هـ ـ ١٠٩٩م) وداروا حولها حفاة امعانا فى التقوى ، وهم ينفخون فى الابواق لايقاع الرعب فى قلوب حاميتها الفاطمية ولم تكن من القوة التى تؤهلها للمقاومة فلما دخلوها كان من مخازيهم وقسوتهم ما جللهم بالعار على مدى التاريخ واختيــر جـود فـرى حاميـا للمدينـة المقدسة اجلالا لبلد المسيـح من صور الملك ومظاهره وهو الداعى الى الزهد والقناعة والابتعاد عن زخرف الحياة ومباهجها . فلم تصبح مملكة الا بعد وفاة جودفرى فنودى باخيه بلدوين ملكا عليها ليلة عيد الميلاد سنة (٤٩٢هـ ـ ١١٠٠م) واخذ يتسع فى مملكته فاستولى على ارسوف وقيصرية فى العام التالى ، وسلمت له عكا بعد ذلك بثلاثة اعوام وما لبث ان حاصر بيروت بعد ذلك بست سنوات وبعد حصار امتد احد عشر اسبوعا بمساعدة اساطيل البندقية وجنوى اقتحمها ووضع السيف فى رقاب اهلها واضاف الى شناعات الصليبيين شناعة جديدة واقام عند البحر الميت جنوبا حصن الشوبك حتى تكون له السيطرة على طريق

القوافل بين مصر والشام والحجاز وحاول ان يغزو مصر مرة عن طريق الطور والمرة الثانية عن طريق العريش ولحقت به المنية فى محاولته هذه قرب مكان لايزال يحمل اسمه محرفا حتى العصر الحاضر وهو سبخة البردويل على البحر المتوسط شرقى بورسعيد الحالية وبلغت مملكة بيت المقدس زمن بلدوين اقصى اتساعها الجغرافى فامتدت من العقبة الى البحر الاحمر الى بيروت على البحر المتوسط . (١)

واخذ ريموند كونت تولوز الفرنسى ، يرنو فى نفس الوقت الى مدينة طرابلس ، وبدا حصارها سنة ١١٠١م ، وحتى يعزلها عما يجاورها عن المنطقة الاسلامية المحيطة بها بنى حصنا على تل مجاور لها وطال الحصار .. واستولى على ثغر جيبل بمساعدة اسطول من جنوا ، ومات قبل أن تسقط طرابلس فى يده سنة ١١٠٥م حتى سقطت سنة ١١٠٩ في يد ابنه ، واصبحت امارات طرابلس والرها وانطاكية تابعة اسميا لمملكة بيت المقدس (٢) .

ولم يتسن للصليبيين احراز هذا النجاح الا بسبب تمزق العالم الاسلامى وضعفه ، وكانت الدولة العباسية فى رهق من امرها ، والدولة الفاطمية فى مصر فى دور الاحتضار ، وهى التى كانت تحكم هذه البلاد منذ مدت نفوذها اليها واستولت عليها ايام قوتها .

حتى اذا وجدوا القوة التى تتصدى لهم وتكبح جماحهم لم يعد لهم من جبروتهم القديم شيئا فقد اقتحم عليهم عماد الدين زنكى (١١٢٧ ــ ١١٤٦م) أول معاقلهم فى (الرها) شمال غربى العراق فلم تصمد امامه غير بضعة اسابيع فاحتلها عام ١١٤٤م . حتى دعيت (نصر الانصار) وحملت اسرة زنكى العبء فأتيح لولده (نور الدين محمود زنكى) أن يكمل مسيرة ابيه وكان له بين قائديه الكرديين (نجم الدين ايوب) و (اسد الدين شيركوه) خير معوان وكانا قد نشأ فى رحاب أبيه، وخاضا المعارك تحت إمرته .

وهاج التعصب الاوربى لسقوط الرها . وفشلت حملتهم بقيادة كنراد الثالث ملك المانيا ولويس السابع ملك فرنسا ــ وهى الحملة الثانية فى حملات الصليبيين ــ عن استردادها (١١٤٧ ــ ١١٤٩)

وبلغ الهوس الصليبى مداه بحشد فرسان الداوية والاسبتارية مددا لها فلم يغيروا مما حل بها من فشل شيئا حتى كان انتصار صلاح الدين الايوبى فى حطين فهاجت البابوية وماجت بالغضب وكانت قد بلغت الذروة من سلطانها على عهد البابا (انوسنت الثالث ــ ١١٩٨ ــ ١٢١٦م) فدعا الى صليبية جديدة هى التى عرفت بالحملة الصليبية الخامسة ، وبلغت النزوة الصليبية مداها حتى عصفت بألباب المراهقين فى تلك السن الحرجة التى تثور بالانفعالات الحادة فحملتهم على المجتمع فى حشد من أقرانهم فى فرنسا والمانيا بلغ الآلاف امتطوا البحر قاصدين فلسطين وقبل ان يصلوها اختطفهم قراصنة من المغرب وباعوهم فى اسواق الرقيق ، ولم يسمع بخبرهم احد حتى قدر لاحدهم ان يعود الى فرنسا ليروى قصتهم بعد نيف وعشرين عاما من قيامها وفشلت دعوة انوسنت الثالث فى مبتغاها و وغرقت دعوته فى مياه النيل وكانت مصر بفيئها بعد ان تمت هزيمتهم على يديها من قبل .

٢.١ ــ دكتور ابراهيم احمد العدوى : تاريخ العالم الاسلامى جـ ١ ص ٢٤ ــ ٢٧

وقدر لمصر أن تحمل العبء فى تلك الحقبة الحافلة من تاريخ العصور الوسطى امام الصليبيين فى البداية ثم امام التتار - أو المغول - فى النهاية قبل ان يتسنم العثمانيون غارب المجد فى تاريخ العالم ، وتقوم دولتهم لتبدأ دورة حافلة من دورات التاريخ لها طابعها المميز فى حضارة العالم وثقافته شهدت انهيار دولة الروم الشرقية - أو الدولة البيزنطية - كما تدعى وانسياقهم الى اوربا غازين ، كما شهدت انهيار دولة المسلمين فى الاندلس وأثار سقوط القسطنطينية شعار الغضب أو الهياج فى اوروبا حتى تحدث الناس بحرب صليبية - كما يقول ويلز - ولكن عهد الحروب الصليبية كان قد مضى وان لم يكن لسقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين فى الاندلس من اثر فى العالم الاسلامى ما كان لسقوط القسطنطينية فى العالم المسيحى ، فقد كانت سورة التعصب الدينى عند الاوربيين تفوق مثيلاتها فى الشعوب الاخرى مسيحية أو غير مسيحية - حتى عصفت بهم فيما بينهم فأغرقت اوربا فى بحر من دماء الهيجونوت والبروتستانت ، فكان المعذبون والمضطهدون فى الارض الاوروبية ابان الصراع الدموى الذى نشب بين الكاثوليك والبروتستانت يجدون فى الدولة العثمانية ملاذا ويلتمسون فى رحابها الامن والتسامح وكتب (مارتن لوثر) كتيبا نشره عام ١٥٤١ يقول فيه (١) « ان الفقراء المسيحيين الذين يظلمهم الامراء الجشعون واصحاب الاراضى يفضلون ان يعيشوا تحت حكم الاتراك ولا يعيشون فى كنف حكام المسيحيين يمارسون اساليب ظالمة فى حكم الفقراء » .

جولة المغول

كما شهدت تلك الحقبة انسياح المغول فى جولات عسكرية ظافرة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وان كانت كالسيل الدافق لا يلبث حتى ينحسر ، الا انهم تركوا بصماتهم جلية بارزة على صفحة التاريخ العالمى بما لم يتسن لشعب آخر ، قبلهم أو بعدهم ، اذا ما استثنينا العرب فى جولتهم الظافرة شرقا وغربا فى صدر الاسلام وصبحه الباكر . ولم ينل تاريخهم بعد من العناية ما هو جدير به ، فقد تقسمتهم الاديان العالمية الكبرى السماوية وغير السماوية من المسيحية والاسلام حتى الكونفوشية والبوذية ، وكانت اليهودية هى الديانة الوحيدة التى نأت عنهم ، أو نأوا عنها ، فلم تكن بينهم وبين اليهود مواجهة ما على أية صورة من الصور ، ولم يكن اليهود رغم تعصبهم من الدعاة لدينهم ، وان قيل ان يهود اليوم ينتمون الى سلالات وعناصر متفرقة ، كما قيل انهم قد اخذوا فى فترة من فترات تاريخهم يبشرون بدينهم بين غيرهم ، وكان ذلك حين طغت الثقافة الهيلينية وخافوا ان تغمرهم بفيضها الجارف ، ويقال أيضا ان تشتيت اليهود قد أدى الى انتشارها بين اجناس غريبة ينتمون اليها كيهود اسبانيا وشمال افريقيا ويهود المانيا والمعروف ان شعبا يهوديا عاش فى الحوض الشمالى لنهر الراين قبل ميلاد المسيح بقرنين أو ثلاثة (٢)

وتتسنم وقائع المغول التاريخية الذروة من احداث التاريخ وكان ظهورهم على مسرح التاريخ فى تلك الحقبة من الزمن اشبه بالشهاب الخاطف يشق عنان السماء ليتوارى سريعا ، وان بقيت معالمه ماثلة فى الاذهان ، فان هذا الشعب التترى القابع على ارضه شمال

١ - د . عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية جـ ١ ص ١٦

٢ - ارض الميعاد للمؤلف . الفصل الثامن

الصين ـ كما يقول ويلز ـ قد انساح فجأة فى بقاع آسيا ليتسنم غارب السيادة فى الشئون العالمية ، ويفوز بفتوح ليس لها ضريب فى التاريخ نظاماً وقسوة وتخريبا ، ولم يكن حتى بداية القرن الثالث عشر غير قطيع من الفرسان الرحل كأسلافهم الهون يعيشون اساسا على اللحم ولبن الافراس ، وفى خيام من اللباد ، وقد نفضوا عن نيرهم السيادة الصينية وحالفوا بعض انداده‍م من القبائل التركية ودخلوا معهم فى اتحاد عسكرى واتخذوا معسكرهم على نهر « انون بسيبيريا » .

ولم يكن هذا الشعب المغولى ـ كما قيل احيانا ـ هجميا أو وحشيا ينساق فى ارتال كالجراد يرمح بخيوله دون نظام أو خطة ، بل كان على مستوى رفيع من التنظيم والاعداد العسكريين ، وان كانوا اشبه بالموج الكاسح ينساح ليغرق ثم ينحسر فجأة وقد يرجع ذلك إلى طبيعته القبلية لا يألف الاقامة أو السكون ، وقد يفسر ذلك أيضا ما عرف عنهم من قسوة أو ميل إلى التخريب والتدمير ، أو حب الثأر ، فقد بدأوا جولتهم العسكرية ثأرا لقافلة مغولية ، عدا عليها السلطان محمد ملك خوارزم (خوارزم شاه) وانتهبها وقتل اربعمائة وخمسين رجلا من المرافقين لها فى سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨م) فلم تمض سنتان حتى استولى « جنكيز خان » عاهل المغول على خوارزم والتركستان وفارس وارمينية وتوغل فى الهند حتى لاهور وفى جنوب الروسيا حتى المجر وسيليزيا ، ومات وقد اصبح سيدا على امبراطورية فسيحة تمتد من المحيط الهادى حتى نهر الدنيبر ، وفى عهد خلفه « اوجداى خان » دمرت كييف عام ١٢٤٠ وخضعت الروسيا تقريبا لسلطانه وأحرز نصرا حاسما على البولنديين والالمان فى معركة « لجنتز » بسيليزيا فى العام التالى ، وما أن مات « اوجداى خان » حتى تراجع المغول منسحبين نحو الشرق عبر المجر وبولندا ليتجهوا بفتوحهم من بعد نحو الشرق فدانت لهم الصين ، وانساح فريق منهم بقيادة هولاكو حفيد جنكيز خان نحو فارس والعراق ، وكانوا قد اعتنقوا الاسلام ، فلم يكن اللقاء ـ كما كان من قبل ـ لقاء بين الاسلام والمسيحية ولكنه كان لقاء « فى قلب العالم الاسلامى بين معسكرين اسلاميين ... ولم يكن آتيا من الغرب ، بل كان آتيا من المشرق البعيد على يد جماعة من الغزاة الذين اعتنقوا الاسلام » (١) فقضوا على الخلافة العباسية بعد ان اجتاحوا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم بالله وذويه (٦٥٦ هـ ـ ١٢٦٨م) ولم يكتفوا بتدمير بغداد ونهبها بل دمروا نظام الرى ، ذلك النظام الفريد الذى جعل من ارض الجزيرة ارضا رخية ينعم اهلها برغد العيش منذ ايام سومر ، فاصبحت خرابا يبابا واطلالا تضيق بذلك العدد الضئيل من اهلها »

ورغم ما يسوقه ويلز تعليلا لهذا الذى جرى من عداوة مريرة للاسلام فى تلك الحقبة فان عداوتهم لم تكن فى الواقع للاسلام بقدر ما كانت للمسلمين ولحكامهم تسيطر عليهم نوازعهم الغريزية التى كانت تسيطر على انداده‍م من الهون والجرمان والنورمان والنيكينج فى جولاتهم .

---

١ ـ محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام : ف ١٢ معركة عين جالوت

ويبدو انّ عاطفة الولاء بين الحاكم والمحكوم قد فقدت حميتها مما ينجم عنه انطواء سواء الناس على أنفسهم خانعين ، وانضواء اعلامهم الى الحكم يرجون نواله ، فان لم يتسن لهم ذلك انصرفوا عنهم الى مناوئيهم وان كانوا اغرابا فقد اتخذ جانب المغول عندما حمل حنكيز خان على خوارزم ، بعض التجار المسلمين وكانوا ـ كما يقول بارتولد « من مستشارى جنكيز خان ومعاونيه وعاونوه معاونة كبيرة فى محاربة العالم الاسلامى ، والسبب الرئيسى لحروب جنكيز خان هذه هو السلطان محمد ملك خوارزم (خوارزمشاه) فقد نهب حاكم أوترار (فى التركستان) القريبة من الحدود قافلة قادمة من بلاد المغول وقتل اربعمائة وخمسين رجلا من المرافقين لها فى سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) وفى سنتى ٦١٧و٦١٨ هـ (١١٢٠ ـ ١٢٢١ م)استولى المغول على .. جميع التركستان وخوارزم ، ولم يكن بد من معاودة الحرب فى الشرق الأدنى مرات عدة ولم تقع بغداد فى ايدى المغول الا فى ٦٥٦ (١٢٥٨ م) وكان ممن قادوا المغول اليها اقرب الناس الى الخليفة العباسى وكان من الممالئين للشيعة كما أشرنا من قبل .

والزعم بان الحياة المدنية لم تدم الا فى البلاد التى نجت من هجمات المغول زعم خاطىء .. فتحت بلاد متحيز بأيدى قوم لم يتجاوزوا بعد درجة تقديم الانسان قربانا ، وضرب احيانا جميع الناس بالسيوف حين الاستيلاء على المدن ولم ينج من الموت الا الصناع الذين يحتاج اليهم القائمون على أن يكونوا اسرى فالذين شاهدوا امثال هذه المشاهد المخيفة ظنوا بالطبع ان اصلاح تلك المدن من جديد يحتاج الى آلاف من السنين والحقيقة ان استيلاء المغول على تلك البلاد انها لم تكن سيئة الى هذا الحد ، وأول اسباب هذا ان القائمين لم يستوطنوا هذه البلاد ، وقد اصطحب ملاك المغول مع قواتهم العسكرية .. مستشارين مدنيين للاستعانة بهم فى الشئون الادارية والتعمير ، فانا نرى فى تاريخ البلاد التى استولى عليها المغول فى الصين وفى البلاد الاسلامية وفى روسيا بعد القرن الثالث عشر الميلادى استقرارا سياسيا لم يكن من قبل .. وقد اجتهدوا لإنهاض المدن وترقية الصناعة والتجارة وقاموا بحماية العلوم ذات الطابع العملى كالطب والرياضة والهيئة وقد انشأ هولاكو حفيد جنكيز خان وفاتح ايران للعالم الفلكى نصير الدين الطوسى مرصدا فى المراغة باذربيجان مجهزا بادق الاجهزة المعروفة فى عصره

وان كنا لا نتخذ من نظرة بارتون الى « تاريخ الحضارة الاسلامية » قاعدة للاستشهاد او التدليل على اتجاه ، يغلف اتجاه المؤرخ الا انه ـ كما يقول استاذنا الدكتور عبد الوهاب عزام ـ « تضمن ابحاثا قيمة وآراء سديدة وتناول الجوانب الخفية ذات الخطر فى تاريخ الحضارة » كما يرى ان المؤلف غير متحيز فيما يكتب ، منصف حين يتكلم على الشرق والغرب المسلمين والمسيحيين لا يتردد فى الإعتراف للشرق بمزاياه وللمسلمين بالبر والاحسان وبما اجدوا على حضارة العالم كله فى العلوم والآداب والشرائع .. وان كنا نراه بدورنا قد اضاف شيئا الى تاريخ الاسلام والحضارة الاسلامية . (١)

تعصب الغرب المسيحى

ولعلنا نجد فرقا ما بين طبيعة الشرق الاسلامى والغرب المسيحى فيما كان من حروب صلاح الدين ومن سبقه من ابطال الحروب الاسلامية فى تلك الآونة التى حفلت بصرخات

١ ـ تاريخ نقله الى العربية حمزة طاهر وقدم له الاستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام بك

الحرب وصليل المعارك ما بين المسلمين والصليبيين ، وما بين المغول وغيرهم ممن اجتاح المغول اراضيهم فى موجات صاخبة من القتل والدمار ، فليس ثمة مجال للمقارنة بين ما كان من صلاح الدين مع الصليبيين بعد استيلائه على بيت المقدس وما كان من الصليبيين فى استيلائهم عليه من قبل ، حين ارتكبوا من المساوىء وضروب الوحشية والهمجية ما لا يخطر على بال انسان ، أو حتى حيوان ، فالحيوان يتألف وتتقى فصائله بعضها البعض ، فلم ينج من شر الصليبيين حتى اخوانهم فى الدين من المسيحيين الارثوذكس فكانوا يقتلون الاطفال بتحطيم رؤوسهم على الجدران ، ويقذفون بالرضع من اسوار المعاقل والحصون ، ويشوون الرجال على أسنة النيران احياء ويبقرون بطون الاحياء والاموات ليروا هل ابتلع اصحابها الذهب .

اما اليهود فقد ابقوهم الى النهاية واعدوا لهم مصيرا آخر اكثر اشباعا لانتقامهم وشهواتهم القاسية الحادة ، واختاروا لهم ان يحرقوا احياء فى معابدهم بعد ان كدسوهم بين جدرانها .

ولم تكن تلك الوحشية قاصرة على الجيوش النظامية التى قدر لها ان تجتاح الاراضى المقدسة وتملكها وتمتد الى جوارها من اطرافها بل كانت خلة الحملات الشعبية التى سبقتها ــ كما رأينا ــ وكأنهم قد ورثوا تلك القسوة الصاخبة عن اسلافهم من الهون والجرمان حين اجتاحوا اراضى الامبراطورية الرومانية العتيدة ، كما ورثوها عن اجدادهم من الرومان حين اعتنقوا المسيحية فاوقعوا بالوثنيين الرومان ما اوقعوه بهم من قبل .

ولحقت تلك الآفة من القسوة بالمسلمين حديثى الاسلام من بربر الشمال الافريقى واتراك ما وراء النهر . فقد كانت تلك طبيعة العصر وان كانت قسوة هؤلاء المسلمين فى حروبهم خلال العصر الوسيط قد صانت المروءة وان لم تخل من الاذلال وشتان ما بين المروءة والاذلال فالمروءة ألا يعدو المحارب قواعد الاخلاق ، أما الاذلال فمن قبيل الارغام الذى يقع على العدو عند التسليم ، فعلى قدر ما عرف به اتراك ما وراء النهر وبربر الشمال الافريقى من حمية للدين وحفاظا على شعائره ومراسمه كان ينقصهم تشرب روحه ومكنون جوهره ، فاذا اتيح لهم من تعاليمه ما يقهر فى نفوسهم تلك القسوة كان سمة مضيئة على تعاليم الاسلام ومكنون جوهره كما كان من السلطان « الب ارسلان » فى حواره مع « الامبراطور رومانوس » بعد مركة ملازكرد (٤٦٣ هـ ــ ١٠٧١م) وقد وقع اسيرا فى ايدى المسلمين وسأله الب ارسلان : ماذا كان يفعل به لو كان هو الذى انتصر ؟

وأجابه الامبراطور قائلا : انه حينذاك كان يجلد جسده بالسياط !!

ويقال ان الب ارسلان ضربه ثلاث مقارع وابنه على رفضه الهدنة ولكنه بعد ذلك اكرم وجوده وعقد معه صلحا مشرفا وقبل منه الفدية يؤديها بعد عودته وسيره الى ملكه بمال وحرس واطلق معه عددا من البطارقة والأشراف المأسورين وكان الامبراطور لقاء ما لقى من كرم السلطان وفيا بوعده فارسل اليه ما استطاع جمعه من الفدية معتذرا عن عجزه فقد رجع ليجد نفسه مخلوعا عن عرشه » (١)

وكثيرا ما كان الدين فى الغرب المسيحى « اداة لتبرير الاعتداء على الشعوب الضعيفة واسترقاقها تباركها الكنيسة ولصكوك الغفران من القوة ما يغفر اعتى الجرائم ــ ويفتح

---

١ ــ من صورالحرب فى الاسلام للمؤلف نشرت بمجلة رابطة العالم الاسلامى تباعا عام ١٩٧٤

ابواب الجنة امام مرتكبيها .. وكم كانت الانتهاكات الدولية والدينية لحقوق الانسان منذ باركت الكنيسة مذابح شرلمان فى سكسونيا ولم تغير البروتستانتية من تلك النزعات المجحفة رغم ما قال اصحابها من عسف الكاثوليكية ، ولا ننسى حروب الابادة لقبائل الهنود الحمر فى امريكا على ايدى جماعات البروتستانت التى تزحف الى امريكا فرارا من الاضطهاد الدينى ، وقد اجتمع الفريقان الكاثوليك والبروتستانت على انكار اى حق انسانى لغيرهما

ولم تعرض المسيحية للقيم والشرائع الدولية . وبدلا من ان يسلم المفكرون المحدثون بهذا النقص فى الديانة المسيحية اخذوا يسوقون التبريرات له .. وكانت تبريرات غريبة للفكر الانسانى فما هو خطأ فى حق الفرد يغدو صوابا فى حق الشعب ، والعكس بالعكس وغدا الدين والاخلاق بمعزل عن القانون بعيدا كل البعد عن الجماعات الانسانية ولم يعد غير مثار للمشاعر واحاديث المجالس وان سما احيانا الى ذروة القيم الفلسفية للاخلاق

ولم يغير ظهور البروتستانتية من الامر شيئا ، بل غدت اشد ميلا وتعصبا من الكاثوليكية ـ كما كانت المسيحية من الوثنية فى الأمبراطورية الرومانية من قبل ـ بالرغم مما عانته من اوضار التعصب الكاثوليكى فاصبح التعصب هو الخطيئة الكبرى الفتاكة فى الكنيسة البروتستانتية ـ كما يقول هالام ـ مما اودى بكل عاطفة طيبة واى حماس نزيه لقضيتهم ، كما بدت لدى صاحبها احوالهم وتكشفت له ميولهم وما من دارس نزيه للعقوبات التى نص عليها القانون الانجليزى ضد الكاثوليك والمنشقين والخارجين على الكنيسة الاسقفية الا واصيب بصدمة تهز تفكيره »

وكانت الحروب الصليبية ثمرة هذا التعصب الذى اجتاح اوربا فى تلك الاونة وبقى يجتاحها إلى ما بعد انتهائها ، وان انقلب تعصبا بين الطوائف المسيحية بعضها ضد بعض ، وغدت البابوية التى تزعمت اوربا المسيحية من قبل ، وليس لها من جاهها الاول نأمة تذكر ، وغلبت المصالح الخاصة على كل اعتبار آخر ، وان بقيت النزعة الدينية وهى تلفظ انفاسها فى الغرب المسيحى غالبة لم يستطع المجتمع الاوربى ان يتحرر منها ، ولكنها غدت مصلحة بذاتها الى جانب المصالح الدنيوية الاخرى . لم تنج منها الحركة الديرية بدورها بعد ان تخلت عن صرامتها الدينية وحماسها التبشيرى الجائح فى « غمرة من النقص والانحلال ـ كما يقول فشر ـ فأخذت فضلا عن ايوائها اهل التقوى والنسك والهدوء من عواصف الحياة القاسية فى العصور الوسطى . تقوم بخدمات للمجتمع فى تلك الآونة لم يعد المجتمع المعاصر فى حاجة اليها وقد اصبح قادرا على الوصول اليها بوسائل اخرى .. وغدا التعصب دنيويا اكثر منه دينيا يبتغى تحقيق مصالح خاصة فى الشرق والغرب على السواء ، وان بقى الهوس الدينى يسود اوساط العامة كما كان من البندقية بعد ان احتلت مركزها التجارى فى البحر المتوسط وغدت لها السيطرة على تجارة الشرق منذ قيامها عام ٥٧٠ م فلما عرفت اوربا تجارة الشرق ، واستهوت الأوربيين فى بواكير القرن الحادى عشر ، ازدادت اهميتها وقامت الى جانبها جنوى ، واثار التنافس التجارى فيما بينهما الحزازات والحروب ، وكانت الحروب الصليبية عليهما خيرا وبركة ، فقدت لهما تجارة اللفانت ولم يكن يعنيهما منها غير مصالحهما المادية والتجارية حتى ان انريكو داند ولو ـ دوج البندقية العجوز قد اغرى قواد الحملة الصليبية الرابعة بالدولة

البزنطية للقضاء على منافسة القسطنطينية وبيزا لتجارتها وبذل الوعود الكاذبة ليصرفهم عن الشواطىء الفلسطينية ومصر لما للبندقية من مصالح فيهما .

ومن امارات غلبة المصالح الدنيوية على الدينية فى تلك الآونة وما شابها من نزعة عنصرية . ما كان من تنكر الملك فيليب الرابع (الجميل) ملك فرنسا (١٢٨٥ ـ ١٣١٤) لكل القيم والمثل التى عرفت عن جده لويس التاسع . أو القديس لويس (١٢١٤ ـ ١٢٧٠) والتى حملته على القيام بحملتين صليبيتين « هلك فى احداهما ـ كما يقول فشرـ جيش فرنسى كبير بين جداول دلتا النيل ـ وفنى فى ثانيهما جيش آخر على شواطىء تونس وشمسها اللافحة »

وبينما حظى لويس التاسع بتمجيد البابوية والكنيسة فرفعته الى مصاف القديسين . لم يتردد فيليب الجميل فى القبض على البابا بونيفاس الثامن لاعتراضه على حق الملك فى فرض الضرائب على رجال الدين فى مملكته واحرق القرارات البابوية على رءوس الاشهاد وهو ما عجز عنه الامبراطور فردريك الثانى اعظم اباطرة اسرة الهوهنشتاوفن فى خلافه مع البابا انوسنت الرابع الذى اصدر قرارا بخلعه سنة ١٢٤٥م . اما فيليب الجميل فقد اعلن انه ليس من الضرورى ان يخضع الملك للبابا لكى يحظى بالجنة فى الحياة الآخرة وبعث بمن اختطف البابا العجوز من روما وحمله اسيرا الى فرنسا عام ١٢٢٩ م وما لبثت مدينة (أفنيون) الفرنسية ان غدت مقر البابوية عام ١٣٠٥ ، فى عهد البابا كليمنت الخامس ، وعرفت تلك الفترة التى بقيت فيها البابوية فى مقرها الفرنسى « بفترة » « الأسر البابلى للبابوية » وكانت قد اصابها الهوان من قبل على الامبراطور فردريك الثانى ـ وقد أطلق عليه لقب .. الزنديق الأعظم .. فلم يرضخ لرغبة البابا فى القيام بحملة صليبية لاستعادة بيت المقدس ، وحين قام بها فى عدة وعدد قليل عام ١٢٢٩ م . كانت تراوده فكرة التسوية بين المسلمين والصليبيين وهى الفكرة التى راودت ريتشارد « قلب الاسد » ملك انجلترا من قبل فى حروبه مع صلاح الدين الايوبى فقصد مصر وكان على رأسها الملك الكامل بن الملك العادل الايوبى ولم يقصد بيت المقدس ـ كما اراد البابا ـ حتى اصدر ضده قرار الحرمان ، ودارت بينه وبين الملك الكامل مفاوضات انتهت بتسوية لم يرض عنها الصليبيون والمسلمون على السواء فثار بها المسلمون فاستعادوا بيت المقدس وكان الملك الكامل قد تنازل عنها للامبراطور فردريك باعتباره ملك الصليبيين. كما ثار بها الصليبيون مما ادى الى حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر عام ١٢٤٨ ـ بعد عودة بيت المقدس الى ايدى المسلمين عام ١٢٤٤ .

ولم يأبه الامبراطور فردريك بغضب البابا واجبره حين عودته على ان يرفع عنه قرار الحرمان وما كان يهمه ذلك كثيرا لولا رغبته فى اذلال البابا فلم يكن يترك جارحة للبابا حتى يندد به ويكيل له الصاع صاعين ويسفه آراءه ، ويحمل عليه فى كتابات يوجهها الى امراء اوربا ، وكان اول من هاض البابوية وتركها كليمة موجوعة مما ادى فى النهاية الى اغلالها وكان الاسر البابلى للبابوية فى افنيون خاتمة المطاف فيما حظيت به من جاه ايام البابا أنوسنت الثالث .

سماحة الشرق الاسلامى

ولم تكن سماحة الشرق الاسلامى وليدة الطبيعة البشرية بقدر ما كانت وليدة التعاليم

الاسلامية التى حفل بها الاسلام وصانها رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام . وما كان تعصب المسيحية الغربية مما جاءت به تعاليم المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، وانما كانت وليدة البيئة الاوربية التى حفلت بغازات البرابرة من الهون والشعوب الشمالية من الجرمان والفيكنج قبل ان يعتنقوا المسيحية وما ورثوه عن الرومان فى تحولهم عن لوثنية واعتناقهم المسيحية وهو ما كان من التتار فى تحولهم الى الاسلام وما أخذ على يوسف بن تاشفين فى اذلاله للمعتمد بن عباد مع ما عرف عنه من تقوى وايمان بالاسلام وحماس لاعلاء كلمة المسلمين نشر بها على يد الفقيه المتصوف عبد الله بن ياسين ، فقد كان بربر الشمال الافريقى واتراك ما وراء النهر حديثى عهد بالاسلام كما كان المغول حين اجتاحوا بغداد ودمروها عام ١٢٥٨ م . فلم يكن قد مر على اعتناقهم الاسلام اكثر من خمسين عاما منذ توفى جنكيز خان على وثنيته عام ١٢٢٧م ولم يتشربوا روح الاسلام بعد .

وليس هناك حتى وقتنا هذا من تعاليم الحرب وآدابها او ما سنته القوانين الدولية لقواعدها ما يسمو على تعاليم الحرب وقواعدها فى الاسلام فللعهود والمواثيق قداستها فى التسليم والإذعان وطلب الامان للمستجير وان كان على غير الاسلام فى قوله تعالى :

« وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » التوبة : آية ٦

فان سمع هذا المشرك كلام الله ودخل فى الاسلام فهو منكم وان لم يدخل هذا المشرك المستجير فى الاسلام فابلغه مكانا يكون فيه آمنا

وفى الاسلام يتماثل حق الفرد وحق الدولة فى منح الامان فللفرد ان يجير ويؤمن ويعاهد فردا أو مجموعة من الناس وامانه وعهده مصونان بالحديث المأثور :

« ذمة المسلمين واحدة يسعى بها ادناهم »

وقد قبل الفاروق عمر امان العهد ، فحين كتب اليه ابو عبيدة بن الجراح - وهو من نعرف فى صفحة الاسلام فى صبحه المشرق « ان عبدا امن اهل بلد بالعراق » وسأله الرأى فكتب اليه عمر يقول : « ان الله عظم الوفاء فلا تكونوا اوفياء حتى تفوا » ووفى ابو عبيدة وانصرف المسلمون عن القرية واهلها واجاز الفاروق عمر امان العبد فلم يكن ثمة فرق بين العبد والحر فى رحاب الاسلام .

وأقر الاسلام امان المرأة : بقول رسوله عليه الصلاة والسلام « قد اجرنا من اجرت يا أم هانىء »

وان رأى بعض الفقها الا يكون للعبد أو المرأة عهد الا بإذن الامام أما عهد المسلم الحر فواجب الوفاء ، ولعل هذا مما حمل أبا عبيدة على الرجوع الى الفاروق عمر فى امان العبد .

وكفل الاسلام امان المحارب ، وعده الفاروق عمر الخليفة الثانى واقعا ولو بالاشارة او الكلمة فاذا قيل للمحارب لا تخف كان ذلك امانا له وان اشير اليه ولو بالاصبع ما يفيد ذلك ، كان ذلك امانا ايضا وقد سمع ان مسلما قال لمحارب فارسى : لا تخف ثم قتله فكتب الى امير الجيش يقول :

« يلغنى ان رجالا منكم يطلبون العلج حتى اذا اشتد فى الجبل وامتنع فيقول له : لا تخف فاذا ادركه قتله وانى والذى نفسى بيده لا يبلغنى ان احدا فعل ذلك الا لقطعت عنقه »

ومما يعزى اليه رضى الله عنه أنه قال :
« لو أن أحدكم اشار الى السماء باصابعه لمشرك، ثم نزل اليه على ذلك فقتله لقتلته به »

فاذا اجبر المسلمون على نقض العهد لتبين الخيانة فعليهم ان ينذروا بذلك ويعلنوه وليس لهم ان يفاجئوا القوم باجراء يترتب على نقض العهد مالا يعلم القوم بنقضه وان المسلمين فى حل منه بقوله تعالى :
« واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين » الانفال : آية ٥٨

وليس العدوان من تعاليم الاسلام كما جاء فى الذكر الحكيم
« وان جنحوا للسلم فاجنح بها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » الانفال : آية ٦١

فعلى المسلم اذا توقع من قوم خيانة بامارات بينه ان يقطع عليهم طريق الخيانة بان يعلن فسخه لعهدهم فاذا ارادوا السلم فخيرا هو ولا يحول ذلك بين المسلمين وبين الإعداد لكل بادرة تلوح لهم من العدو ليكونوا على تمام الاهبة للمواجهة حين لا يكون عنها بديل ، وحتى لا يكون فيهم ضعف يطمع اعداء الله فيهم فيحسبون انه الغالبون :

« ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا انهم لا يعجزون واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون » الانفال : اية ٥٩ ـ ٦٠

وفى ظل الاسلام تختفى الشعوبية والعنصرية وتتوارى الحدود والسدود فى عالم اسلامى كبير او فى دولة اسلامية لا تفرق بين ابيض واحمر واسود فالكل فى رعويتها سواء ، ولم يكن القتل والتخريب وانتهاك الحرمات من شعائر الاسلام وهو ما لم يقع من اى فاتح عربى من قبل ، وقد نهى عنها الاسلام منذ البداية ، فالحرب وان كانت لها اصولها من العدة والعدد والتجهيز لاى عدوان يقع على المسلمين ورده بالقوة فانها لا تعنى ايقاع الاذى بغير المحاربين كما كان من الصليبيين .ومن بعض المسلمين ممن غابت عنهم شعائر الاسلام وآدابه ، فعن رواح بن ربيعة ـ انه خرج مع رسول الله عليه الصلاة والسلام فمر رسول الله واصحابه على امرأة مقتولة فوقف عليها ثم قال : « ما كانت هذه لتقاتل » ثم نظر فى وجوه اصحابه وقال لاحدهم : « الحق بخالد بن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسيفا ولا امرأة »

وغضب عليه الصلاة والسلام حين سمع بقتل بعض الاطفال فى غزوة فقال غاضبا :
« ما بال قوم تجاوز بهم الطفل حتى قتلوا الذرية ، الا لا تقتلوا الذرية ألا لا تقتلوا الذرية ألا لا تقتلوا الذرية »

وفى بعث اسامة لحرب الروم ، وقف ابو بكر ـ رضى الله عنه ـ يخطب فى الجيش وهو يودعه قائلا :

« أيها الناس قفوا اوصكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا للمأكلة وسوف تمرون باناس قد فرغوا انفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له وسوف تقدمون

على قوم ياتونكم بآنية فيها الوان الطعام فاذا اكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه .. »

وقد نهى الاسلام عن المثلة وقد انتاب الغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى جثة عمه حمزة وقد مثل بها في معركة أحد فقال في ثورة غضبه : « والله لئن اظهرنا الله عليهم يوما من الدهر لأمثلن بهم مثلة لم يمثلها احد من العرب »

فنزل قوله تعالى : « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون » النحل : اية ١٢٦ ـ ١٢٧

وعن على بن ابى طالب رابع الخلفاء الراشدين كرم الله وجهه انه قال : لابنه الحسن ، فيما يحدث به عبد الرحمن بن ملجم الخارجى اذا قتل من طعنته « انظر ياحسن ان أنا مت من ضربتى فاضربه ضربة بضربة ولا تمثلن بالرجل لانى سمعت رسول الله صلوات الله عليه يقول :

« اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » (١) .

ولا نجد لهذا الارتقاء والسمو مثيلا في ثقافة عصر من العصور حتى وقتنا هذا ، وان كان ما وصى به ابو بكر الصديق رضى الله عنه جيش اسامة قد احتذاه العرب في كل فتوحاتهم فقد غرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كما يقول سيد امير على ـ في نفوسهم من ضبط النفس وانكار الذات ما لم يسبق له مثيل في التاريخ وان كانوا من قبل على حدة في الطبع وجبلوا على الغيرة والحمية وتتأجج في نفوسهم وصدورهم مراجل الغضب كما تتأجج شمس الصحراء اللافحة

«ولم تكن الالتزامات الدولية معروفة من قبل حتى جاءت دعوة الاسلام وكانت الحرب اذا نشبت بين القبائل والشعوب تسفر عن ذبح الاقوياء واسترقاق الابرياء ونهب المقدسات المنزلية .

واذا كانت سماحة الاسلام ورحمته وتعاليمه الانسانية الجليلة لم يكن لها من تأثير على التتار وابناء عمومتهم الاتراك ، كما كان تأثيرها على العرب فلان العرب في خروجهم الى العالم بعد اسلامهم لم يواجهوا ما واجه التتار والترك في خروجهم اليه ، فقد كان الاسلام في بواكيره وكان المسلمون مازالوا قريبى عهد بالرسالة العظيمة التى حملها محمد عليه الصلاة والسلام واصطفاه الله لها فتشرب العرب تعاليمه نقية سليمة معيارها الاخلاق والسلوك وهذا الوفاء بالعهد لا مين فيه ولا خداع ولا غدر فليس لمسلم ان ينصر مسلما على من بيدهم ميثاق المسلمين فقد جاء في القرآن : « وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » وذلك هو التقديس للعهود والمواثيق الذى يبقى ابد الدهر فيه الهدى للناس جميعا (٢)

وقد اهل الاسلام بنوره على البشرية والعالم بين سطوة الفرس من جانب والرومان من جانب آخر والموجات البشرية التى اجتاحت الدولة الرومانية في الغرب تروح وتغدو في

---

١ ـ د . حسن ابراهيم حسن : زعماء الاسلام : على بن ابى طالب .

٢ ـ عبد الرحمن عزام : بطل الابطال : ط ٢ ص ٢٧

سهوب اوربا وغياضها من الشمال الى الجنوب وارتال الهون تجتاح البقاع شرقا وغربا من مغانى التركستان والقوقاز والسهوب الروسية فى الشمال والغرب الاوربى حتى البحر المتوسط والصراع بين فارس وبيزنطة سيؤذن بدمارهما معا ، لم يلق احد بالا الى تلك القوى الجديدة التى تمور بها الصحراء العربية ولعل اول ما شدهم اليها رسل نبى الاسلام محمد عليه الصلاة والسلام الى كسرى فارس وهرقل الروم ونجاشى الحبشة .. وكانت اول هجرة للمسلمين اليه والمقوقس فى مصر والحارث الغسانى دعوهم الى الاسلام ويرى ـ ويلز ـ ان رسله اقبلت على (تاى تسنج ـ أحد اباطرة أسرة تانج فى الصين وقد ابحروا الى كانتون على ظهر احدى السفن التجارية وعلى النقيض مما كان من هرقل وقياذ الفى (تاى تسونج) أذنا صاغية واكرم وفادتهم وساعدهم فى بناء مسجد بمدينة كانتون ومازال هذا المسجد قائما الى وقتنا هذا فانه ـ كما يقال ـ اقدم مسجد فى العالم .

ولم تمض بضع سنوات حتى خفقت اعلام الاسلام فوق تلك البقاع من الصين شرقا حتى الاندلس غربا ومن بلاد ما وراء النهر شمالا حتى افريقيا جنوبا وجاوز الاسلام حدود الدولة الاسلامية الى ما بعدها على يد التجار والدعاة واصحاب المهن والصناع الذين انساحوا الى تلك البقاع . الى جانب ما كان من الفرق الصوفية التى قامت داعية الى الاسلام وكان لها الفضل الاعظم فى انتشاره فيما وراء الصحراء من القارة الافريقية ورأى الناس فى هؤلاء المسلمين على شتى صنوفهم مثلا حيا لعقيدة صافية وسلوك رفيع واخلاق عالية وقيم جليلة قويمة للحياة الانسانية والاخاء الاسلامى والتكافل الاجتماعى والتواضع الرقيق الرفيق فكانت القدوة كما كانت التعاليم الصافية التى يقبلها العقل وتستهوى الضمير خير داع للاسلام .

وبقى الاسلام الى وقتنا هذا العقيدة الوحيدة التى يقبل عليها الناس اذا ما عرفوا تعاليمه وان لم يقم بها دعاة أو مبشرون من آمن به لا يرضى عنه بديلا وفشل دون الرضى عنه كل دعوة الى ديانة اخرى وكل مذهب من المذاهب الاجتماعية حديثا او قديما وكل مين لفرق ضالة . تبغى الكيد له فكل من اعتنق الاسلام لا يرضى بغيره ففشلت امامه دعوة المبشرين ودعاة المذاهب المادية فانصرف عنه المبشرون بالدعوة الى مذاهبهم المتناحرة فى المسيحية ويئس منه دعاة المادية فلاذوا بمسالمته قائلين انهم يدعون الى ما يدعو اليه الاسلام من عدالة اجتماعية فلا يستمع اليهم مسلم لان ما جاء به الاسلام لا يفوقه ما يجىء به غيره وعدت الحرية السافرة على الاسلام والمسلمين سياسية اكثر منها دينية لتمزيق اوصاله وفصم عراه كما يجرى الآن فى بقاع العالم الاسلامى .

مصر فى حمى الاسلام

وشاء الله سبحانه وتعالى لمصر ان يكون انقاذ العالم الاسلامى والحضارة الاسلامية ، بل وحضارة العالم المتمدين على يديها ، مصداقا لما قيل على لسان نبى الاسلام العظيم ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ « مصر كنانة الله فى أرضه من أرادها بسوء قصمه الله ـ وكأنه يرى من وراء الغيب ، رسالة مصر فى حمى الاسلام دفاعا عنه وذودا عن حياضه ، فيقول : « اذا فتحتم مصر فاتخذوا من أهلها جندا كثيفا فانهم خير اجناد الارض ـ فيقولون : ولم يارسول الله ؟ فيقول : لأنهم فى رباط مع أهلهم الى يوم القيامة »

وليس ذلك ببعيد ، وقد نزل القرآن من قبل منبئا بانتصار الروم على الفرس قبل أن يخطر ذلك على بال أحد بعشر سنوات ، وكان الروم قد هزموا هزيمة نكراء على يد الفرس ، ونزلوا على بيت المقدس واغتصبوا الصليب الاعظم الى بلادهم ، ومازال الرسول بمكة ، بقوله تعالى فى سورة الروم :

« الم ، غلبت الروم ، فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، وعد الله لايخلف الله وعده ولكن اكثر الناس لايعلمون » الآيات ١ - ٦

وكانت نهاية الصليبيين على يد مصر فى حطين والمنصورة ، كما كانت نهاية التتار فى عين جالوت ، وكانتا على أرض فلسطين ، وكأنما قد انبعث المسلمون فى جلال الاستشهاد ، كما كان أسلافهم فى صبح الاسلام الباكر ، ولهم فى ذلك مآثر تروى على مدى الزمن ..

ففى حطين كان النصر بعد تسعين عاما من استيلاء الصليبيين على بيت المقدس فى شعبان ٤٩٢ هـ - يولية ١٠٩٩ م ، وكان حدثا مروعا هز أركان العالم الاسلامى وهلعت له نفوس المسلمين ، وكان النصر على يد بطل من أبطال الاسلام هو - الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى - وكان له من خلق الصحابة فى صدر الاسلام ماهز اعطاف الشرق والغرب ، فحل فى قلب خصمه - ريتشارد قلب الأسد - موضع الاكبار والاجلال ، ووجدت الفروسية الاوربية فى تقاليدها التى احتذتها خلال العصور الوسطى فيه القدوة والمثال فيما احتذته من شهامة ومروءة حفلت بها قصص الرواة من امثال اسكندر ديماس .

ولم يحفل الأدب الاوربى ببطل من أبطال المسلمين كما حفل بما أثر عن صلاح الدين من مروءة البطولة فى قصصه وملاحمه ، فقد كان صلاح الدين سمحا عفوا كريما تنزه عن اراقة الدماء ولم يعرض لشيخ ولا لامرأة أو طفل بسوء ، وأذن لملكة الفرنجة بالرحيل معززة مكرمة دون فدية مع أميراتها وحاشيتها ، وكان فرق مابينه وبين الصليبيين حين اغرقوا بيت المقدس فى بحر من الدماء يوم اقتحموها وقد أمنوا أهلها على أرواحهم فنكثوا عهد الامان وكان ماكان مما لطخ سيرتهم بالعار والنجاسة مما تنزهت عنه ديانة المسيح عليه السلام .

وكانت تعاليم الاسلام السمحة هى التى صانت صلاح الدين من شر ماوقع فيه الصليبيون ، فقد كان قبسا من روح الصحابة وأخوة الاسلام كرديا لايعرف الا أنه مسلم .

يقول فيه - العماد الاصفهانى - كاتبه وهو يصف مجلسه غداة يوم الفتح :

« وحبس السلطان البناء للقاء الاكابر والامراء والمتصوفة والعلماء ، وهو جالس على هيئة التواضع ، وهيبة الوقار بين الفقهاء واهل العلم جلسائه الابرار ، ووجهه بنور البشر سافر ، وأمله بعز النجح ظافر ، وبابه مفتوح ورفده ممنوح وحجابه مرفوع وخطابه مسموع .. الخ »

ويقول فيه المؤرخ محمد عبد الله عنان :

« كان صلاح الدين بطل الاسلام بلا مراء ، بل هو من اعظم ابطال الاسلام قاطبة ،

وكانت الفكرة الاسلامية تملأ نفسه ومشاعره ، يضطرم بها ولايؤمن بغيرها ، ولم تكن تحدوه فى جهاده أية فكرة قومية أو عنصرية أو اقليمية واذا كان عدوان الحملات الصليبية يتسم فى ظاهره بالصيغة الدينية ، ويرمى الى مهاجمة الاسلام والقضاء على سلطانه ، واعلاء كلمة النصرانية فقد كان صلاح الدين يضطرم بفكرة الدفاع عن الاسلام ، والذود عن ارضه وتراثه ، ولم يكن يخفى عليه أن يسحق الحملات الصليبية ، وانما يقضى فى نفس الوقت على مطامع الغرب الاستعمارية فى الشرق .

وكان وافر الحلم ، جم التواضع والبساطة ، متقشفا فى ملبسه وطعامه ، وافر الجود والبذل ، ينفق كل ماتصل اليه يده فى اغراض الجهاد ومصالح المسلمين ، لايهتم بشىء من اعراض هذه الدنيا ، من مال أو قصور أو غيرها حتى أنه لما توفى لم يخلف مالا ولا عقارا ، ولم يوجد فى خزانته شىء من الذهب أو الفضة سوى دينار واحد وسبعة واربعين درهما ، فكان ذلك دليلا مؤثرا على زهده وعفة نفسه وطهارة يده وصونه لمال المسلمين(١)

ويقول شهاب الدين القدسى ، (صاحب الروضتين) معلقا على وفاته :

« وكان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ الخلفاء الراشدين ، وعشى الطلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه الا الله تعالى »

ويقول آخر :

« وأغمد سيف الله الذى كان على أعدائه دائم التجريد وأصبح الاسلام وقد فقد ناصره ، ثاكلا لوحيده فهو اعظم فاقد لاعظم فقيد » .

ونقول اخيرا ان صلاح الدين كان قبسا من روح الاسلام الاصيلة ، وكان النصر على يديه ساس دولته بروح الاسلام ، ووثق بنصر الله فكان نصر الله له فى حطين ، واسترد بيت المقدس فى رجب ٥٨٣ هـ ـ سبتمبر ١١٨٧ م ، ليكون فى حمى الاسلام مرفوع الذرى خفاق اللواء .

وكانت حطين خاتمة التفوق الصليبى ، ان لم تكن خاتمة الجولة الصليبية فلم تقم لهم قائمة بعدها وفشلت كل محاولة لهم من بعد رغم اصرارهم ـ وكما كانت ملا زكرد بداية الانسياح الصليبى وعلته الاولى التى اثارت اوربا كانت حطين هى الخاتمة وقد وهب صلاح الدين حياته لهذه الغاية ، فكان النصر على يديه ، فى حمى مصر راعية الاسلام والعروبة ، كما كانت عين جالوت ، حين انساح التتار ـ وكانوا قد اعتنقوا الاسلام ، فاجتاحوا الدولة العباسية واسقطوا الخلافة ، ولم يكونوا قد تمثلوا روح الاسلام وتعاليمه السمحة الكريمة فبغيت فيهم شرة القتل وسفك الدماء ونزعة التدمير والتخريب التى ورثوها عن اسلافهم الهون والمغول حين اجتازوا بقيادة عاهلهم جنكيز خان شرقا وغربا مدمرين مخربين كل ماتطأ اقدامهم ، فما أن قضوا على الدولة العباسية حتى اجتازوا الفرات الى الجزيرة فاستولوا على ديار بكر وحران ونصيبين والرها فدمروها وذبحوا أهلها ، ونفذوا الى حلب فقتلوا من اهلها عشرات الالوف وسلمت لهم دمشق ودان لهم الشام كله ، ووقفوا قبالة مصر يتطلعون لها ويهيئون انفسهم لغزوها ، وبعث هولاكو برسله ينذر

---

١ ـ مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام .

الملك المظفر سيف الدين قطز ، ويقول له : « من ملك الملوك شرقا وغربا » ثم ينذر ويتوعد ، ويمضى فى رسالته قائلا : « فعليكم بالهرب ، وعلينا الطلب ، فأى ارض تأويكم ، وأى طريق تنجيكم ، وأى بلاد تحميكم ، فمالك من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق .. »

ولم يأبه قطز بتهديد هولاكو ، فأمر بقتل رسل التتار الاربعة ، وعلقت رؤوسهم فى جنبات القاهرة ، ووقف بين الامراء والفقهاء ورجال الدين من شيوخ الازهر يبصرهم بالخطر الداهم ويذكرهم بما وقع من التتار من بلاء وخراب حل بالبلاد التى نزلوا عليها ، ومايقع لمصر اذا ظفروا بها ، وحثهم على الجهاد انقاذا للاسلام والمسلمين ومآقيه تفيض بالدمع فتعالى البكاء واقسم الامراء على البذل والفداء انقاذا لمصر والاسلام من شرهم .

وشرع قطز بالسير لملاقاة التتار وكان بنفسه احن منهم منذ داسوا بلاده خوارزم التى ينتمى الى ملوكها ، وكانت جموعهم قد دخلت غزة ، وجعل على قيادة الطليعة ـ ركن الدين بيبرس البندقدارى ـ وكان على دراية بحروب التتار والصليبيين من قبل ، فأوقع بهم اول هزيمة تحل بهم وفروا امامه تاركين غزة ، وما أن وصل قطز بقوات مصر الاساسية اليها حتى بادر بالزحف لملاقاتهم ، وشاء القدر أن تكون ـ عين جالوت ـ من ارض فلسطين ، كما كانت حطين من قبل ميدان اللقاء ، ولقى التتار هزيمة ماحقة لم يلقوها من قبل ، وسقط قائدهم ـ كتبغا ـ قتيلا ، وكان نداء قطز فى المعركة ـ واسلاماه ـ وكان يردد « ياالله انصر عبدك قطز على التتار ، وذهب التتار بددا وسيوف المصريين تعمل فى اقفيتهم ، ونزل قطز عن جواده » ومرغ وجهه فى الارض وقبلها وصلى ركعتين شكرا لله .

وحملت رأس كتبغا الى القاهرة وجاء عيد الفطر (٦٥٨ هـ ـ ١٢٦٠ م) ليصبح العيد عيدين بعد أن تم للمصريين النصر ، وراح بيبرس يتعقب فلولهم وسيوف المصريين تعمل فى اقفيتهم ، وحرر الشام وارض الجزيرة منهم ولاينسى العالم ـ كما يجمع الرواة لمصر ذلك اليوم الاغر الذى رفعت فيه نير هؤلاء المتوحشين عن اعناق المسلمين ، بل والعالم اجمع .

ولم يفت المعاصرون أن يذكروا انتصار مصر على التتار بما هو جدير به ، فيقول ابو الفداء تنويها بهذا الحدث التاريخى (١)

« وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم فان القلوب قد يئست من لنصر على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام ولانهم ماقصدوا اقليما الا فتحوه ، ولا عسكرا الا هزموه »

« وكان يوم عين جالوت ـ كما يقول استاذنا محمد عبد الله عنان شيخ مؤرخى الاندلس (٢) يوما عظيمها لا في تاريخ مصر وتاريخ الاسلام فقط ولكن في تاريخ المدنية كلها ، ذلك أن هذا السيل التترى المخرب كان ينذر باقتحام المشرق الى المغرب ، ولو

---

١ ـ ابو الفداء : جـ ٢ ص ٢٠٥

٢ ـ مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام : ف ١٢ موقعة عين جالوت

اجتاح التتار مصر لاجتاحوا المغرب والاندلس وربما اوربا ، وانهارت صروح المدنية كلها من شرقية وغربية اسلامية ومسيحية ، ولكن مصر استطاعت فى عين جالوت أن تنقذ الاسلام والمدنية كلها ، ولم تكن موقعة عين جالوت اقل خطرا من موقعة (شالون) التى هزم فيها الهون قبل ذلك بثمانية قرون على يد القوط والرومان سنة ٤٥١ م ، بعد أن اجتاحوا أوربا كلها ، والتى تنوه التواريخ الغربية بفضلها فى انقاذ المدنية الرومانية »

« ولم يجرؤ التتار من بعد أن يتطلعوا الى مصر أو يقتربوا منها ، فحين اجتاح تيمور لنك الشام سنة ٨٠٣ هـ ، وهبت مصر لدفع الغزاة ، ارتد الغزاة منسحبين قبل أن يواجهوا القوات المصرية ، وكانوا بلا ريب يحسبون لقوة مصر حسابها ، ويذكرون ماكان لهذه القوة من أثر فى رد اسلافهم والقضاء على مشاريعهم » وتسنمت مصر من بعد زعامة العالم لاسلامى لثلاثة قرون تالية وحملت وحدها عبء اجلاء الصليبيين عن آخر معاقلهم فى لشام بعد قرنين من الزمان عام ٦٩١ هـ (١٢٩٢ م) منذ وطئت اقدامهم بلاد المسلمين واستولوا على الرها قبل عام من نزولهم على بيت المقدس (٤٩٢ هـ ـ ١٠٩٩ م) .

وقد ظل العالم الاسلامى بعد سقوط بغداد يجتاحه احساس عارم الى زعامته الدينية مما حمل السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وقد تولى سلطنة مصر بعد قطز (٦٥٨ هـ ـ ١٢٦٠ م) على دعوة (احمد ابا القاسم) العباسى الى القاهرة وكان قد نجا من مذبحة المغول ، وبايعه بالخلافة ، ولقب (المستنصر بالله) ونقش اسمه على السكة ودعى له فى الخطبة ، وقلد بيبرس منصب السلطان مع العقد والخلعة ، كما كانت المراسم من قبل ، واصبحت القاهرة منزل الخلافة وحاضرة العالم الاسلامى وموئل المسلمين ومناط رجائهم وحامية ديارهم ، ولم يكن هذا بجديد عليها ، فقد كانت مقرا لخلافة الفاطميين التى تضاءلت الى جانبها خلافة العباسيين حقبة من الزمن وطوى نفوذها ماكان خاضعا للخلافة العباسية فى الحجاز واليمن والشام ، وكانت جميعا قبل أن تخضع للفاطميين من توابع ولاة مصر منذ ولاية احمد بن طولون (٢٥٤ هـ ـ ٨٦٨ م) وقد اتخذ على امتداد الفسطاط (١) محاذيا الصحراء عاصمة جديدة اقطعها جنده ودعيت (القطائع) وامتد حكم الدولة الطولونية حتى عام ٩٠٥ م ، فلما وليها محمد بن طفج وابتنى مدينة العسكر على امتداد القطائع ووسع حكمه الحجاز ليغدو من بعد تابعا لمصر وتصبح مكة والمدينة وطريق الحاج فى حماها ، ولم يمض بها الزمن طويلا ، حتى دال ملكها الى الفاطميين . وقد اقتحم قائدهم جوهر الصقلى ابواب مصر من الغرب وقد سيره المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين لفتحها واختارها دارا لملكه وابتنى له قائده مدينة القاهرة على امتداد ماقبلها من حواضر محاذية لصحراء المقطم هى الاخرى (٢) وابتنى الازهر قرينا لمسجد

---

١ ـ ابتناها عمرو بن العاص مقرا لحكمه فى ولايته على مصر حيث نصب فسطاطه وهو البيت من جلد وشعر فى حصاره لحصن بابليون فلما تم الاستيلاء على الحصن وامر بتقويضه فى قصده الاسكندرية لفتحها فاذا بحمامة قد باضت فى عش لها اعلاه ، فقال ، لقد تحرمت بجوارنا ، اقروا الفسطاط فى موضعه ريثما ينقف بيضها ويطير فراخها ووكل به من يحفظه كيلا تهاج الحمامة فلما رجع بعد الفتح اختاره منزلا ودارا للولاية وبنى مسجده الجامع اول مسجد للمسلمين فى افريقيا واقامت قبائل الفتح فيما حولهما وكانت اول حاضرة للمسلمين فى القارة وعلى امتدادها قامت حواضر مصر حتى بنيت القاهرة . وبقى مسجد عمرو معلما بارزا لمصر الاسلامية حتى وقتنا هذا

٢ ـ ولم ينل القاهرة طوال تاريخها ماذالها فى الوقت الحاضر حين امتدت الى المزارع وحفافى النيل فاكلتها

عمرو بن العاص فى الفسطاط ,واعتزت مصر بالاثنين, وزاد الازهر على الفسطاط انه غدا الى جانب العبادة واقامة الشعائر الدينية منارة للعلم وجامعة يزدهى بها الاسلام ويفخر اعلامه وشيوخه وامجاده الى يومنا هذا .

وقد عدت لمصر هذه المكانة قبل العصر المملوكى بحقب طوال ، وقد حققت نوعا من لاستقلال الذاتى منذ صارت ولايتها لاحمد بن طولون وامتد نفوذها ليطوى المشرق الى عالى الشام ، وغدا البحر المتوسط او بحر الروم الى اقصى الغرب بحيرة اسلامية تخوضها سفائن المسلمين مابين تخومه من الشمال الافريقى الى صقلية وكور سيكا واقريطش (كريت) ومن قبل الى قبرص وردوس حتى جبل طارق .

ولولا فتح العرب لمصر - مع ماكان من تخوف الخليفة امير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب من الانسياح اليها ، لما كانت فتوح الاسلام فى الشمال الافريقى ثم انسياحهم الى الاندلس ليقيموا فيها اعز دولة وارقى حضارة وازهر منتجع غنى وثراء وترفا لم تر اسبانيا من قبل ولا من بعد له مثيلا ، وكانت مصر ومازالت واسطة العقد فى هذا المجتمع العربى الاسلامى الكبير ، وهو ماوعاه الغرب المسيحى من بعد حين سير حملاته اليها ، ومازالت تلك بغيته الى وقتنا هذا فيما يحيط بها من فتن ومؤامرات لم تفت مؤرخنا العظيم محمد عبد الله عنان ، فى ختام حديثه عن موقعة حطين بقوله :

« وهل نحن فى حاجة لان نقول ان عبرة التاريخ المؤلمة قد تجددت فى عصرنا بقيام دولة اسرائيل الغاصبة فى الاراضى المقدسة ، فى قلب العالم العربى والاسلامى ؟ ان قيام المملكة اللاتينية الصليبية ، لم يكن حسبما رأينا الا نتيجة لخلاف الدول الاسلامية وتنافسها وتنابذها ، فلما تألبت قوى الاسلام المتحدة ، التى استطاع صلاح الدين أن يجمع كلمتها فى صعيد واحد ، على عدوها المشترك ولما اضطر الصليبيون الى لقاء قوى الاسلام المتحدة ، بدا ضعفهم وانهارت مملكتهم التى قامت على اسس العنف والغصب تحدوها عوامل التعصب الدينى . وتغمرها الاساطير المغرقة وتستتر فى نفس الوقت بصبغتها الدينية لتحقيق مأربها الدنيوية »

« وقلما نجد فى التاريخ مثل هذا التماثل المدهش ، فى العوامل والظروف التى احاطت بوقوع ذينك الحدثين الخطيرين فى الاراضى المقدسة ، وهل قيام دولة اسرائيل فى فلسطين الا صورة مجددة مطابقة لقيام المملكة الفرنجية الصليبية ؟ دولة تقوم مثلها على مبادىء العنف والعدوان ، التى تغذيها الصهيونية الدولية الفارية ، وتحدوها اساطير دينية مغرقة ، كتلك التى اتسمت بها الغزوات الصليبية . وتقوم فى مثل ظروفها تظاهرها معظم الامم الغربية ، وتمدها « بالعون والتأييد ، كما كانت اوربا النصرانية تظاهر الصليبيين وتمدهم بعونها فى قلب العالم العربى بين امارات متنابذة ، مغرقة الرأى والكلمة . لم تعرف معنى الاتحاد حتى وقت الخطر الداهم ، ومازالت بتنابذها وتفرقها تفسح للعدو الغاصب سبيل الاستقرار والتوسع والتوطد »

« واذا كانت عبرة التاريخ ، قد تمثلت فى المحنة فى هذين الحدثين المؤلمين ، فى تاريخ العالم العربى والاسلامى ، فان لنا أن نؤمل أن تتمثل عبرة التاريخ ايضا فى تهيئة العوامل والظروف التى تعاون على تلافى هذه المحنة الجديدة ، واستئصال جذورها ، كما

عاونت من قبل فى القضاء على المملكة اللاتينية الصليبية » (١)

المسلمون سادة البحر

وقد انعقدت لمصر اعلام السيادة البحرية فى ظل الاسلام . كما كانت من قبل فى ظل الفراعنة الى نهاية الدولة البطلمية قبل أن تصبح اياله رومانية . ويبدو ان التاريخ يعيد نفسه ، وان قالة (لا جديد فى التاريخ) قول حق . فما أن استعادت مصر كيانها القومى فى ظل الاسلام بعد الفتح العربى حتى غذت قاعدة العمليات البحرية فى بحر الروم او البحر المتوسط . وكان الاقباط المصريون على خبرة واسعة بصناعة السفن وعلوم البحر ولم يكن غريبا ولما يمض على الفتح العربى لمصر سنوات حتى كانت معركة ذات الصوارى فى ولاية عبد الله بن سعد بن ابى السرح عام ٣١ هـ . ومن قبل كان معاوية على ولاية الشام قد اقتحم البحر الى قبرص عام ٢٩ هـ (٦٤٨ م) وفرض عليها الجزية . ومالبث عام ٣٢ هـ ان سار اليها فى اسطول ضخم واستولى عليها واتبعها ولايته . وفى خلافته غزا العرب صقلية لاول مرة وافتتحوا جزيرة رودس . وفى خلافة الوليد بن عبد الملك غزوا اقريطش وصقلية وسردانية وافتتحوا جزائر البليار (ميورقة ومنورقة ويابسة) (٢) وكانت محاولات فتح القسطنطينية على أيام الامويين تسير فى ركاب الاساطيل البحرية

وغالبا ماكانت سيادة البحار خلال تلك الحقبة من تاريخ العصور الوسطى والى مابعد كشف الامريكتين للمغامرين من رجال البحر المسلمين والنصارى على حد سواء يعملون لحساب انفسهم او لمن يتشيعون لهم ، فكان فتح اقريطش (كريت) على ايديهم . وقد اجتاحها بحار مغامر هو ابو عمر حفص بن ابى عيسى الاندلسى المعروف بالاقريطشى او البلوطى ، سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) وقد اتخذها مقاما وسكنا . وقال لرجاله حين احرق سفنه « فيم شكواكم ؟ لقد حملتكم الى ارض تفيض باللبن والشهد ، هذه ارضكم الحقة فاستريحوا وانسوا اوطانكم المجدبة » فقالوا : « واولادنا ؟ » قال : « سوف تؤدى الاسيرات الحسان لكم وظائف الزوجات ، ومن ثم تصبحون اباء جيل جديد » وظلوا بها زهاء قرن وثلث القرن ، حتى استعادتها بينزنطة فى عهد الامبراطور رومانوس الثانى سنة ٩٦١ م (٣٥٠ هـ) .

وفى نفس الوقت الذى افتتح المسلمون فيه اقريطش ، استولوا على جزيرة صقلية وكانت لاتساعها وثروتها وقربها من الشواطىء الافريقية تبدو لدولة الاغالبة فى تونس جديرة بالغنم ، فسير اليها اميرها زيادة الله بن الاغلب اسطوله بقيادة الفقيه العالم اسد بن الفرات بن بشر المرى قاضى القيروان . وكان الى جانب علمه الغزير جنديا جريئا وبحارا مغامرا شارك فى غزوات الاغالبة البحرية ، وتوفى وهو على حصار صقلية (٢١٣ هـ) واستمرت حملات المسلمين عليها حتى تم لهم الاستيلاء عليها سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م وقامت فيها دولة اسلامية ازدهرت فيها الجزيرة زهاء قرنين حتى بدأ الانحسار الاسلامى عن جزر المتوسط واستعادها المنورمان سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م) « وانتهت بذلك دولة الاسلام فى صقلية كما ينتهى الحلم السعيد » (٣)

---

١ ـ مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام : ط ٤ ص ١٤ من الفصل التاسع

٢ ـ البلاذرى : فتوح البلدان . ص ٢٧٨

٣ ـ محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة ص ٩ ويشير فى الهامش الى ابن الاثير ج ٦ ص ١١٣ ـ ١١٥ وابن خلدون ج ٤ ص ١٩٨ ومابعدها . ومعجم ياقوت تحت كلمة صقلية

ومن اعلام تلك الحقبة من مغامرى البحر المسلمين ، ويراه المؤرخ عنان (اعظم بحار فى ذلك العصر ، واعظم بحار مسلم على الاطلاق ، وهو امير البحر الذى تعرفه الرواية البيزنطية باسم ليون الطرابلسى ويطلق عليه المسلمون اسم - غلام زراقة - واعظم ماقام به غزو تسالونيكا - وهى ثغر سلانيك الحالى سنة (٢٩١ هـ - ٩٠٤ م)

ويسهب المؤرخ عنان فى سرد مغامراته البحرية ، ومن انضم اليه من خوارج البحر ويرى فى مغامراتهم دليلا على أن السيادة البحرية فى بحر الروم كانت للمسلمين مدى احقاب طويلة - ويراها لاتقل - فى الاهمية والجرأة عن غزوات البحارة الاسبان والانجليز فى القرن السادس عشر فى المياه الامريكية ، وليست اعمال بحارة كأبى حفص عمر البلوطى وليون الطرابلسى ، اقل رنينا وروعة من اعمال امراء البحر المحدثين مثل اندريا دوريا ، وجون هوكنس ، وفرنسيس دريك ، وكورتيز ، وبيزارو ، وغيرهم ممن تملأ سيرهم واعمالهم صحفا من ابدع وامتع صحف التاريخ الحديث -- وكان خوارج البحر المسلمون - يؤدون الى الحكومات الاسلامية خدمات جليلة باضعاف جيوش الدولة البيزنطية واساطيلها واستبدال اسرى المسلمين بمن يأسرون فى غزواتهم ، ثم نلاحظ فى النهاية أن البحارة المسلمين كانوا مستعمرين حقا ، فقد استعمروا أقريطش ، وغيرها من جزر الارخبيل عصورا ، وكانوا عضدا قويا للدولة الاسلامية التى قامت فى صقلية وازدهرت زهاء قرنين

« وكان القرن الثامن الميلادى عصر التجارب البحرية بالنسبة للاساطيل الاسلامية ، فنراها تقنع بالدفاع ، ولاتقدم على الهجوم أو التوغل فى عرض البحر الا فى فرص نادرة ، ولكن لم يبزغ فجر القرن التاسع حتى تبدلت الحال ، وحتى كانت هذه الاساطيل تجوس خلال البحر المتوسط من اقصاه الى اقصاه ، وتفتتح جزائره وتثخن فى شواطئه وثغوره ، فكان القرن التاسع كما رأيت عصر السيادة البحرية الاسلامية »

ويصف ابن خلدون سيادة المسلمين البحرية فيقول : « وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على بحر الروم من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للامم النصرانية قبل بأساطيلهم بشىء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر ايامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه ، مثل ميورقة ، ومنورقة ، ويابسة ، وسردانية وصقلية ، وقوصرة ، ومالطة ، واقريطش ، وقبرص ، وسائر ممالك الروم والافرنج ، وكان ابو القاسم الشيعى وأبناؤه يغزون اساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة ، وافتتح مجاهد العامرى صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية فى اساطيله سنة خمس واربعمائة وارتجعها النصارى لوقتها ، والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر فى الاساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية ، فتوقع بملوك الافرنج وتثخن فى ممالكهم »

ولم تكن معركة حطين خاتمة اللقاء مع الصليبيين ، ولم تكن معركة عين جالوت هى الأخرى خاتمة اللقاء مع التتار وإن لم يقتربوا من مصر ولكنهم ظلوا يخوضون فى ربوع

الشام ، وشغلت مصر فى الحالين بالقضاء على الصليبيين وبالتصدى للتتار مما عاق المماليك عن الانسياح الى ماوراء ذلك فى الشمال الافريقى او فى بحر الروم وان بقيت تسيطر على تجارة الشرق تضفى عليها الغنى والثراء فلا ترهق المواطنين بالضرائب اذ تجد فى مكوس التجارة ما يغنيها ، وتحمل الشعوب الاوربية على مصانعتها حرصا على مصالحها الاقتصادية فى تجارتها مع الشرق تحملها اساطيل جنوى والبندقية وبيزا وقد عرفنا كيف اغرى « أنريكو داندولو » دوج البندقية العجوز قواد الحملة الصليبية الرابعة بالدولة البيزنطية ، وبذل الوعود الكاذبة لهم ليصرفهم عن مصر وفلسطين لما للبندقية فيها من مصالح تجارية ، كما كان للفرنجة حاجتهم لمصانعة المماليك تأمينا للحجاج المسيحيين فى طريقهم الى مثوى المسيح وكنيسته فضلا عن رعاية مصالحهم التجارية والاقتصادية ولم يكن للاوربيين عنها غناء .

مصر دار الاسلام

وغدت مصر المملوكية دار الخلافة وموئل الاسلام والمسلمين وجامعة الذمار وازدانت بحضارة الدنيا شرقا وغربا ، فلم يكن مايطاولها علما وثقافة وفنا بعد سقوط بغداد غير ذبالة تشع باخر ضوء من طليطلة وابهائها وميادينها الحزينة

وكان لها من مكوس تجارة الشرق مايغنيها ويفيض عليها الخير والنماء ، والمال عصب الحضارة ، وقامها الاعظم اذا ماتلقفته أيد حكيمة وصانته عقول واعية ليكون دعامة العمران ، والبناء ، كما هو أداة الابداع والابتكار ، مادام فى راحة البدن والعقل مايفسح للانسان مجال التفكير والتأمل وهما أداة الاختراع والابداع ، فاذا نضب معينه شقى المجتمع بلقمة العيش واضناه السعى اليها ، ولم يعد لديه بال ولا وقت للتأمل والتفكير ، بل والمتاع بالحياة .

وازدانت القاهرة المعزية بمعالم الرخاء فقامت المدارس والاسبلة والبيمارستانات وحفلت بالمساجد والاضرحة التى بقيت الى وقتنا سمة على ارتقاء فن العمارة الاسلامية ، كما كان لها فى ميدان الادب والشعر والتاريخ والعلم بل وفن الحرب يد طولى ، ففى ميدان اللغة والادب كان النويرى صاحب (نهاية الارب فى فنون الادب) وكان من رجال الناصر محمد بن قلاوون . وابن فضل الله العمرى صاحب (مسالك الابصار فى ممالك الانصار) تولى القضاء فى مصر (١٣٠١ - ١٣٤٨) وكان معاصرا للنويرى ، ويفوقه فى حسن الاداء والتعبير ومن موظفى الدولة ايضا كالعمرى . ابو العباس احمد القلقشندى . صاحب (صبح الاعشى) المتوفى عام ١٤١٨ قبل قرن من الفتح العثمانى ، ويبدو أن المماليك كانوا يعهدون بوظائف الدولة الى كبار الكتاب والمفكرين ، وكانت لهم الحظوة لديهم ، كالمقريزى - احمد بن على - شيخ مؤرخى مصر فى تلك الحقبة من القرنين الرابع عشر والخامس عشر . ولد عام ١٣٦٤ م (٧٦٠ هـ) بحارة برجوان بالجمالية ، وتوفى عام ١٤٤٢ م (٨٤٥ هـ) وولاه السلطان برقوق وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى . ومن اثاره القلمية (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار) و (السلوك لمعرفة دول الملوك) وقد اعد اطارا لدائرة معارف يسجل فيها حياة اعلام المصريين ، اتم منها ستة عشر جزءا . الى

عدد من البحوث فى علم الحديث ، وغير ذلك من المؤلفات العديدة ومن معاصريه احمد بن حجر ، ومن كتبه (الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة) ومن ابرزهم ، ابو المحاسن بن تغرى بردى ، من مواليد حى القلعة بالقاهرة (١٤١١ م) وينتمى الى اسرة مملوكية ، وكانت ابنته زوجا للسلطان فرج ، وتقلد وظائف هامة منها نيابة دمشق ، واتابكية العساكر بمصر ، وقد ترك العديد من المؤلفات منها «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » و « البحر الزاخر فى علم الاوائل والاواخر » و « نزهة الالباب فى اختلاف الاسماء والالقاب » وتوفى سنة ١٤٧٠ م وممن ينتمون مثله الى المماليك ابن اياس ـ محمد بن احمد بن اياس المصرى ـ ولد بالقاهرة (١٤٤٨) وبلغ من العمر اربعة وثمانين عاما ، وكانت حياته رضية ناعمة ، ومن مؤلفاته « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » و « عقود الجمان فى وقائع الزمان » و « نزهة الامم فى العجائب والحكم » وكانت وفاته عام ١٥٢٤ م ، بعد الفتح العثمانى لمصر بسبع سنوات (١٥١٧ م) .

ومن اقران ابن اياس ومعاصريه ـ السيوطى ـ جلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطى ـ خاض بقلمه فى العديد من الموضوعات ، يذكر المستشرق الالمانى بروكلمان(١) أن مؤلفاته بلغت الفا وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين مؤلفا ـ وفاق بذلك أى مؤلف اخر فى العربية ، وان بدا فيما رواه نوع من المغالاة ، ومن مؤلفاته فى التاريخ « حسن المحاضرة باخبار مصر والقاهرة » و « تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين » و « تاريخ السلطان الأشرف قايتباى » و « الشماريخ فى علم التاريخ » و « نظم العقيان فى أعيان الأعيان » و « الملتقط من الدرر الكامنة » كما كتب « تاريخ اسيوط » مسقط رأسه ونسبته ، وقد تولى الإفتاء بمصر ، وقضى اخريات حياته بعد تقاعده بجزيرة الروضة بعد حياة امتدت ستين عاما (١٤٤٥ ـ ١٥٠٥ م) وان لم يطاوله فيما كتب من ابحاث ومؤلفات كاتب آخر فى العربية ، حتى تاه فى تعدادها بروكلمان .

ولعل تلك الحقبة من اواخر العصر المملوكى كانت اخصب ماابدعت العقول من بحوث وافكار ، وكانت الدنيا مازالت تقبل على المماليك بالغنى والمال عصب الحضارة واشعاع الفكر بقيت معالمها زينة القاهرة المعزية ، الى وقتنا هذا ، وليس ادل على ذلك مما وصف به الاثرى الاسلامى « كرزويل » فى كتابه « الفن المصرى » مسجد السلطان حسن ومدرسته (١٣٥٦ ـ ١٣٦٨) بقوله :

« عندما يدنو الرائى من مدخل الصحن العظيم ، ويرنو الى تلك الزخارف الرائعة ومازالت على طلاوتها وبساطتها ، ويتأمل سعة البناء ، وجذره السامقة ، ومئذنته التى تتوج ركنه الجنوبى فانه لاينى أن يقرر أن هذا البناء صورة رائعة لاجمل واروع ابنية العمارة الاثرية فى العالم اجمع »

وبقيت القاهرة ، وبقى الازهر الشريف ملاذ المسلمين والعالم الاسلامى فى تلك الحقبة التى غدا فيها سلطان الدنيا لمصر ، حتى عندما دالت دولة المماليك وغدت مصر ايالة عثمانية فكان اذا غضب شيوخه على وال من الولاة العثمانيين ، لايملك السلطان العثمانى غير النزول على غايتهم والاخذ برأيهم .

---

١ ـ قام الدكتور عبد الحليم النجار بترجمة بروكلمان الى العربية تحت اشراف الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية .

وكان العصر منذ بدات جولة الصليبيين عصر التصوف والصوفية - كما سبق القول - وكان لهم الفضل الاكبر فى نشر الاسلام فى افريقيا ، وفى جولتهم الظافرة فى حماية الاندلس الاسلامية منذ وطأتها جحافل يوسف بن تاشفين ليمد فى عمر الاندلس الاسلامية اربعة قرون تالية ، كما كان لهم دورهم مع صلاح الدين الايوبى فاحتفى بهم واقام لهم الخواتق ومنها « الخانقاه الصلاحية » للفقراء والمتصوفة واجرى عليهم الارزاق ، والاوقاف لنفقتها

وانتشى الشعر بنغمة التصوف ، ومن اعلامه « ابن الفارض - العارف بالله عمر بن على ابن مرشد الحموى الاصل ، المصرى المولد والدار والوفاة (١١٨١ - ١٢٣٥ م) وبقى شعره نشيدا للصوفية ، وبقيت تائيته ملحمة بلغت ابياتها سبعمائة وخمسين بيتا ، ومطلعها :

نعـم بالصبـا قلبـى صبـا لأحبتـى ... فياحبـذا ذاك الشـذا حيـن هبـت
سـرت فأسـرت للفـؤاد غذيـة ... أحـاديث جيـران العـذيب فسـرت

وكانت موضوعا لدراسات المستشرقين ، وترجم نيكلسون الكثير من اشعاره الى الانجليزية ومن تلك النغمات الصوفية قصيدة البوصيرى - محمد بن سعيد - المتوفى عام ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) وتدعى (البردة) فى مدح الرسول (صلعم) وهى من عيون الشعر جزالة ومعنى ، اهتم المستشرقون بدراستها وترجمت الى عدد من اللغات ، ومازالت حتى يومنا هذا نشيد الجنازات وتعويذة للتبرك ، ومطلعها :

امـن تذكـر جيـران بـذى سلـم ... مزجـت دمعـا جـرى مـن مقلة بـدم
أم هبـت الريـح من تلقـاء كاظمـة ... وأومض البـرق فى الظلمـاء من إضم
فمـا لعينيـك إن قلـت أكففا همتـا ... وما لقلبـك إن قلـت استفـق يهـم
أيحسـب الصـب أن الحـب منكتـم ... مـا بيـن منسجـم منـه ومضطـرم
لـولا الهـوى لم تـرق دمعـا على طـلل ... ولا أرقـت لذكـر البـان والعلـم
فكيـف تنكـر حبـا بعدمـا شهـدت ... بـه عليـك عيـون الدمـع والسقـم

وعارضها امير الشعراء احمد شوقى بقصيدته الرائعة ومطلعها :

ريـم علـى القـاع بيـن البـان والعلـم ... أحـل سفـك دمى فى الأشهـر الحـرم

وقد لبثت مصر طوال تلك الحقبة من الزمن التى امتدت نيفا وثلاثة قرون منذ اوقع صلاح الدين هزيمة ماحقه بالصليبيين واستعاد بيت المقدس الى حمى المسلمين عام ١١٨٧ م حتى فتح العثمانيين لمصر عام ١٥١٧ ، سيدة العالم الاسلامى وملاذه ورجاؤه ، بما كانت عليه من قوة وصولة فى البر والبحر وموارد اقتصادية تتدفق عليها من تجارة المرور ، حتى نضبت هذه الموارد بعد تحول التجارة الى الطريق البحرى حول رأس الرجاء الصالح ، فوهنت قواها ، ولم يطل بها الوقت حتى سقطت صريعة الغزو العثمانى ، واصبحت ايالة من ايلات الدولة العثمانية وغاضت معالم حضارتها وافلت شمس كانت باهرة الضياء ، ليخيم الظلام والجهل والخرافة اشد مما كان عندما غدت من قبل ولاية

رومانية ، ويشاء الله لها ان تكون اليقظة الاسلامية الحديثة من واديها ، وان كانت لعبة الغرب البروتستانتى فى كنف الصهيونية تعوق مسيرتها وتعرقل خطاها اليوم بعد أن لمست حيويتها الدافقة فى اعقاب الحرب العالمية الاولى وثورة ١٩١٩ .

الباب الخامس

حكمة التاريخ

هل يتسنى للانسان أن يحكم احداث التاريخ او يدرك مسارها . وهذه الاحداث أهى ملك للانسان الفرد ، هذا الانسان الفرد الذى نصفه بالبطولة ، ونضفى عليه امجادها ام ان هذا الفرد البطل ، هو نفسه ظاهرة تحكمها مجريات الاحداث ليبرز ويسيطر ويتبعه القطيع البشرى طائعا مختارا ، ويصبح وله وحده السلطان عليها .

وهل تدفع المصادفة وحدها هذا الفرد البطل ليتسنم مع دورة الاحداث قمتها ، ويمثل وحده محراب التاريخ ،

وهل يتسنى لأى فيلسوف من فلاسفة التاريخ أن يتنبأ بمجرى التاريخ ويدرك اتجاهاته ؟

وهل نرى لأى هاو من هواة النبوءات التاريخية من القدرة على ادراك مسار الاحداث ليدرك ماتسفر عنه ؟ ولكن ، وان كان له من القدرة على التنبؤ ، قد تفجاه الاحداث بما يخلف ادراكه ، أو ظنه ، اذا كان هذا الادراك لايعدو دائرة الظن .. وان كان فى قدرته ان يدرك وقع الاحداث من مسارها الجارى ، أو القائم فى حقبة يعاصرها ، فما يعجم عليه مثلا أن يدرك من سياسة صلاح الدين الايوبى ، وقد راح يوحد العالم الاسلامى او العربى لمواجهة الصليبيين ، مايمكن أن يقوم به أو يتم على يديه ، ومايعجم عليه ايضا ان يدرك ماينتويه نابليون فى عودته من مصر الى فرنسا ، ليمسك بزمام الامور فى مصيرها ، أو يدرك بعد ما الت اليه دولة الروم الشرقية ، أو الدولة البيزنطية من هوان أن تستعصى على الاتراك العثمانيين ويكون سقوط القسطنطينية على ايديهم بعد ما استعصت على المسلمين طويلا .

ولكن ماكان فى قدرة أى دارس لمسار التاريخ أن يدرك ماينجم عن انسياح تلك الشراذم المتواضعة من اتراك ماوراء النهر حين فروا من موطنهم فى التركستان امام الزحف المغولى الى ارض تبحث فيه عن منتجع أمن ويابى عليها سلطان قونية السلجوقى أن تقيم فى رحابه ، فارتدوا عن بلاده وفى عبورهم النهر غرق زعيمهم سليمان فاثروا السلامة عن العبور ، وارتدوا الى ارضروم بقيادة ارطغرول ولد زعيمهم الغريق ، ويسمح لهم سلطان قونية بالاقامة قرب انقره ، ويحارب عثمان ولد ارطغرول الى جانب أخدانه السلاجقة ضد الروم البيزنطيين ، ويقطعه السلطان السلجوقى ماانتزع من املاك بيزنطة وتكون البداية لملحمة عظمى من ملاحم التاريخ كان للاتراك العثمانيين اعظم الاثر فى مساره لتسعة قرون تالية

تلك هى لعبة القدر - أو اليد الخفية - كما أسميها فى مجرى التاريخ ، وقد نرى فى

مقالة « هـ . ج . ويلز » مايعبر عنها فيما كان من ظهور العرب المسلمين على مسرح التاريخ بقوله :

« لو أن هاويا من هواة النبوءات التاريخية استقرأ احداث العالم فى مستهل القرن السابع الميلادى لادرك أنه لن تمر بصفة قرون الا وتقع آسيا واوربا جميعا فى قبضة المغول فقد اخذت الشيخوخة تدب فى كيان الدولتين الكبيرتين حينذاك . روما وفارس . وأن صراعهما معا سينتهى بالدمار لكليهما سويا ، كما كانت الهند نهبا للانقسام والفوضى ، بينما تسنمت الصين غارب المجد فى شرق آسيا ، واخذت تحالف القوة المغولية الناشئة فى اواسط القارة القديمة »

« أما الذى لم يكن فى قدرة هذا المتنبىء أن يراه فهى الاحداث الجديدة التى تمور بها الصحراء العربية وتوشك أن تتفجر عن قوى باهرة الضياء تعصف بالقيم القديمة لتقيم على انقاضها عقيدة لاتزال ـ كما يقول ويلز ـ من اعظم القوى الحيوية فى العالم »

وقد انبعث هذا الضياء الباهر من قلب الصحراء العربية ، حين دانت برسالة نبى الاسلام العظيم ، فصنعت من هذا الشتيت المتنافر من العرب امة داعية الى الاسلام فما لبثت أن طوت العالم فى مدى قرن واحد حفل بالابهة والجلال والفخامة ، واصبحت الدولة العربية الوليدة النور الذى يكشف الى جداره كل ضياء ، وامتدت رقعتها من الاندلس الى حدود الصين فالتهمت دولة فارس واملاك الدولة البيزنطيـــة فى اسيا وافريقيا واخذت تقرع ابواب اوربا اللاتينية واليونانية من الغرب ومن الشرق »

واذا كانت الاحداث قد اخلفت نبوءة العراف أو المتنبىء ، فان (ويلز) يراها قد صدقت فى النهاية « فقد علا ـ كما يقول ـ نجم الشعوب التركية والمغولية فتغلغلت عناصر من اتراك ماوراء النهر الى قلب الدولة العربية التى تحكم عالم الاسلام وازاحوا العرب عن مركز الصدارة ، واحتلوا مكانتهم فى دولة الاسلام ، وان بقيت الدولة عربية ، وان بقيت ثقافتها عالية الذرى تربط العرب بوحدة لاتنفصم عراها تستمد جذوتها من روح الاسلام ، ومن حضارة العرب وثقافتهم ومن وحدة الولاء للخليفة العربى ، هذا الولاء الذى بقى يربط المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها بوحدة لاتنفصم عراها بقيت ملاذ المسلمين حتى دهمتها جحافل الغرب النصرانية لتعمل على تحطيم هذه الوحدة وتمزيق عراها بعد أن فشلت فى النيل من الاسلام وخابت احلام المبشرين فى النيل من عقيدة المسلمين ، مما حمل الغرب المسيحى على نهج سياسى جديد يبدو فيما كان سياسة حكومة الاحرار البريطانية عام ١٩٠٧ عندما دعا « كاميل بانرمان » رئيس الوزارة البريطانية عام ١٩٠٧ ، وقد هاله الخطر الذى يتهدد الامبراطورية من اليقظة الاسلامية التى اخذت تسفر عن معالمها فى مصر واخذ يتردد صداها قويا فى الهند (درة التاج البريطانى) وينساح فى القارة الافريقية مكتسحا امامه جهود المبشرين وتعاليمهم ، وهداه تفكيره الى بحث الوسائل التى تبقى على الاستعمار وتمد فى اجل الامبراطورية البريطانية عندما غدت النزعة الدينية فى خدمة الاستعمار ولم تعد فى ذاتها بغية المستعمر وان غدت وسيلة من وسائله .

وكان أول ماشغل بانرمان صمود المسلمين فى الشمال الافريقى وفى غرب افريقيا امام

الزحف الاستعمارى ، وماكان للعقيدة الاسلامية بينهم من اثر فى هذا الصمود فضلا عن فشل التبشير المسيحى فى ردهم عنها ، وفى مقتهم للاستعمار بسببها ، وكان أن كلف لجنة من المفكرين واساتذة الجامعات ببحث هذه الظاهرة واستقراء مستقبل الاستعمار البريطانى على ضوئها ، وجاء تقرير اللجنة بأن مصدر التهديد هو هذا النطاق الاسلامى وعقيدته الاسلامية ، وعلينا أن نغذيها بما يفسدها عن ثقافة الغرب وسيطرته المادية .

وكانت العقدة الكامنة فى اعماق الضمير المسيحى ماكان للعقيدة الاسلامية من أثر فى انسياح المسلمين فى صدر الاسلام ليقضوا قضاء مبرما على امبراطوريتى الروم والفرس ، ثم ماكان من قوة العقيدة وجلالها وبساطتها فى اقبال الشعوب عليها فيتعدى الاسلام نطاق الدولة الاسلامية الى بقاع لم يصل اليها انسياح الدولة الاسلامية ونفوذها ثم ماكان من اقتحامهم الغرب المسيحى شرقا وغربا غالبين مسيطرين ، ولم يحل بهم الوهن الا بعد أن وهن جلال العقيدة فى ضمائرهم ، وهو ماأشار اليه « دوسون » واستشهد به سيد امير على ، وتناوله الدكتور هيكل مما اشرنا اليه من قبل .

نبوءة العراف أو لعبة القدر .

واذا كانت نبوءة العراف قد صدقت ـ كما يرى ويلز ـ وعلا نجم الشعوب التركية وازاحوا العرب عن مركز الصدارة ، فما كان فى قدرته أن يتنبأ بأن عظمة الاسلام فى دوره الثانى ستكون على يد تلك الشعوب المغولية والتركية ، فقد أسس المغول دولة اسلامية عظمى فى الهند ، ووحد السلطان اكبر المغولى القارة الهندية الفسيحة تحت لواء الاسلام ، وغدا عصره ازهى عصور الهند التاريخية حتى عده الهنادكة اسمهم قرينا لازوكا حامى البوذية فى تاريخ الهند القديم ، كما أسس الاتراك العثمانيون دولة اسلامية عظمى رفعت اعلام الاسلام على بقاع وقف دونها عاجزا من قبل ، واقاموا حكما توحدت فى ظله كلمة الاسلام ، ووحدوا صفوف العرب فى حكم مركزى وطيد بعد أن تقسمته دويلات متفرقة لم يكن يربطها غير رباط الولاء للخلافة الاسلامية فى بغداد ، وقبل أن تقوم عليه مصر فى ظل الايوبيين والمماليك .

وقد ورث العثمانيون الخلافة عن العباسيين ، وانتقلت اليهم بعد أن قامت فى حمى مصر لثلاثة قرون طوال ، فأحيوا شعائرها ، وغدت الرباط الاكبر للعروبة فى ظل الدولة لعثمانية ، وامتد نفوذها الروحى الى مابعد العالم العربى فى الشرق الاقصى اذا استثنينا المسلمين الذين يدينون بالمذهب الشيعى تحت حكم الصفويين فى فارس فأنهم لايعترفون بالولاء لخليفة سنى .

واثار هذا الولاء الروحى للخلافة العثمانية فى الشرق البعيد وقد ناشه الاستعمار الاوربى من قبل ، قلق المستعمرين ، وبريطانيا بنوع خاص حين اخذت الصحوة الاسلامية فى الهند تثير قلق الانجليز ، وتقض مضاجعهم خوفا عليها وقد غدت درة التاج البريطانى ، واصبح اجنادها عدتهم فى حروبهم .

وغدا العثمانيون شديدى التعصب للاسلام ، كما كان الفرنجة فى اسبانيا النصرانية وفى

روما والقسطنطينية حاضرة الدولة البيزنطية ، ولكنهم كانوا جميعا ابعد مايكونون عن روح الدين سواء فى المسيحية أو فى الاسلام ، فكان مايقترفون من مخاز على السواء ، أبعد مايكون عما شرع الاسلام من اخاء وماشرعت المسيحية من محبة وكان التعصب المسيحى الاوربى دينيا اغرق اوربا فى بحر من الدماء فى الصراع بين الفرق الدينية العديدة التى شاعت وانتشرت بعد حركة الاصلاح الدينى وتنكر الملوك والامراء للبابوية والكنيسة الكاثوليكية. بينما كان فى الشرق الاسلامى سياسيا يؤججه التنافس على السلطة وشهوة الحكم والسلطان ، فلما قضى هذا التنافس بزوال اصحابه ، ولم يعد على امرة المسلمين غير العثمانيين ، كان العداء بينهم وبين الغرب المسيحى سياسيا وان بقى التعصب الدينى اداة الغرب للقضاء على .وحدة الاسلام والمسلمين وهدم اليقظة الاسلامية بحرمان المسلمين فى مستعمراتهم من التعليم وتشويه العقيدة الاسلامية ونسبة كل تخلف اليها واغراق المسلمين بافكار شائهة ضالة وهو ماانتهى اليه تفكير حكومة الاحرار فى بريطانيا عام ١٩٠٧ ، كما اشرنا من قبل ، ومن صور التعصب الاوربى فى الغرب المسيحى ماكان من نصارى اسبانيا فى نكثهم للعهود التى قطعوها للمسلمين بعد تسليمهم غرناطة فعملوا على تشريد المسلمين وابادتهم والقضاء على اية نأمة للمقاومة أو نبذ التنصر بالاحراق فى محارق ابتدعها ديوان التحقيق لاعدام فرائسه من المسلمين واليهود فلا تتنجس ايديهم بدمائهم اذا اعدموهم قتلا .

فاذا ذكر ماكان من فرسان المسلمين فى حصارهم لملكة قشتالة زوج الفونسو السابع ، فى قلعة ازيكا (٥٣٤ هـ ـ ١١٣٩ م) فانبت الملكة الفرسان المسلمين على مسلكهم ، ورمتهم بنقص فى الشجاعة والمروءة لانهم هاجموا قلعة تدافع عنها سيدة ، فتقبلوا منها التأنيب ، وطلبوا اليها أن تطل عليهم من شرفة القلعة ، ليقدموا لها اعتذارهم واحترامهم ، ورفعوا الحصار ، ومضوا فى سبيلهم مبتعدين .

كانت تلك هى شيمة المسلمين فى بواكير الاسلام ، ولم يكن على تلك الخلال من اعتنقوا الاسلام من المغول والترك فى وقت متأخر ، كما كان الفرنجة هم الاخرون ، الا أن الفرنجة حين اعتنقوا المسيحية ، ساقتهم البابوية الى فرض سيادتها وسلطانها على الشعوب الاوربية بعد سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب غدت البابوية صاحبة السلطان الاعلى ولم تعد الامبراطورية أو الامبراطور غير ستار للبابوية الحاكمة ، فأورت سعار التعصب ، بين الشعوب الاوربية وما أن وهن سلطانها حتى غدا التعصب الدينى شيمة الغرب المسيحى .

ولم يكن الاتراك العثمانيون ولا أخدانهم من المغول المسلمين خيرا من العناصر المائجة فى الغرب الاوربى ، ولم يكن لهم جميعا من الدين اسلاما أو مسيحية غير شعائر باهتة بعيدة عن سماحة المسيحية وعدالة الاسلام وتسامحه ، الا أن مسيحيى الغرب وان ناشتهم الفرقة كانوا يجمعون على عداوة الاسلام والتناحر ضده ، على غير ماكان المغول والاتراك العثمانيون ، فقد لقى المسلمون من اجتياح هولاكو المسلم وتيمورلنك من بعد وكان مسلما هو الاخر مالم يلقوه من الصليبيين فى العصور الوسطى ولا من المستعمر الاوربى فى عصر النهضة .

وقد اخذ الاتراك العثمانيون الاسلام عن اندادهم الاتراك السلاجقة ولكنهم عجزوا - وكانت تلك روح العصر فى الشرق والغرب على السواء - عن تفهم جوهر الاسلام كما كان الاتراك السلاجقة فى حمى الاسلام حماته وزادته فالتركى العثمانى قد اعتنق الاسلام وتمسك بتقاليده وتعصب لها وحفل بشعائره وطقوسه اكثر مما حفل بها العربى ، ولكنه بقى بعيدا عن روح الاسلام الحقة ، فهو يحفظ القرآن ويردده دون أن يفهمه الا بقدر مايؤدى به فرائض الدين وشعائره ، ولكنه بقى على سماحته وتسامحه فمما يذكر للسلطان محمد الثانى (١٤٥١ - ١٤٨١ م) وقد اصبح - محمد الفاتح - بعد فتح القسطنطينية (١٤٥٣ م) رغم غيرته الدينية وحماسه للاسلام تسامحه الدينى فقد منح الطوائف المسيحية حريتهم الدينية ، وممارسة شعائرهم وفقا لعقيدهم وتعدد مذاهبهم ، وحل ماينجم بينهم من خلافات بأنفسهم مع احبارهم ، وكان عونا للبطريرك فى التوفيق بين رعاياه المسيحيين من الترك واليونان .

وكان السلطان سليمان القانونى - أو سليمان المعظم - أو الاكبر - كما دعاه الاوربيون - لما منحه - كما أرى - للاوربيين من مزايا فى الدولة العثمانية ، هى التى تحولت فيما بعد الى ماعرف (بالامتيازات الاجنبية) كانت دليلا على التسامح والعدالة والانصاف مع الاوربيين المسيحيين منها على أى عامل آخر فقد كان حينذاك اقوى عواهل الشرق والغرب على السواء ، وقد عرف بزهده وتدينه وثقافته الفريدة الواسعة حتى انه خط بيده ثمان نسخ من القرآن الكريم مازالت محفوظة فى مسجده بالاستانة حيث دفن ، وتمنى مارتن لوتر داعية البروتستانتية كما سبقت الاشارة - لو أنه عاش فى ظل الدولة العثمانية منه فى اوربا .

وقد شهد عصره من الاحداث ماغلف تاريخ اوربا وساد مساره فيما بعد ، فكان من معاصريه « مارتن لوثر » و « شارل الخامس » فى اسبانيا فى اعظم عهودها و « هنرى الثامن » فى انجلترا ، وكان من نزاعه مع البابا ان فصل الكنيسة الانجليزية عن كنيسة روما ، ومنهم ايضا « فرنسوا الاول » ملك فرنسا وكان حكمه البداية التى تبوأتها فرنسا بين دول اوربا والتى بلغت اوجها فى عهد لويس الرابع عشر - أو الملك الشمس - كما دعى .

وامتد حكم سليمان القانونى ، اطول مما امتد اليه حكم أى من سلاطين ال عثمان (١٥٢٠ - ١٥٦٦ م) وبلغت الدولة العثمانية فى عهده اعظم مابلغت من قوة واتساع فانساح بفتوحه غربا حتى اسوار فينا وشرقا حتى تبريز واجتاح العراق ، حيث اعاد بناء قبر الامام أبى حنيفة النعمان فى بغداد ، وكان سلفه السلطان سليم الاول (١٥١٢ - ١٥٢٠ م) قد اجتاح الشام وفتح مصر وقضى على الدولة المملوكية وضم املاكها اليه وغدت ولايات عثمانية منذ ذلك الحين .

ومن اقطاب دولته - سنان باشا - اعظم مهندس العمارة فى عصره ، والمشرع - كمال زادة - المستشار القانونى للدولة ، وخير الدين بربروسا - اعظم رجال البحر فى عصره ، وغدت للدولة العثمانية سيادة البحر المتوسط فى عصره ، فاستولت على رودس (١٥٢٢) وكانت تحت امرة فرسان القديس يوحنا منذ الحروب الصليبية ، وعوضهم شارل الخامس عنها بجزيرة مالطة ، وبقيت فى ايديهم حتى انتزعها منهم نابليون بونابرت (١٧٩٨)

وكانت رودس قاعدة بحرية تهدد الملاحة البحرية للبلاد الاسلامية ، كما كان لانتصارات لبحرية العثمانية على البحرية الفرنسية فى عهد فرنسوا الاول مأأدى الى سقوط نيس فى ايديهم ، كما وقع فرنسوا الاول اسيرا فى يد العثمانيين فى بافيا ، وارغم على محالفة السلطان سليمان ، وكان مسيحيا متعصبا ، وان لم يعد للنزعة الصليبية سورتها الاولى وعلت عليها المصالح السياسية .

ولم ينقض القرن السادس عشر حتى تم لسلاطين ال عثمان فتح البلاد العربية ، وانساحوا بفتوحهم الى القوقاز ، واستولوا - على تفليس (١٥٧٧ م) واستعادوا تبريز فى العام التالى وحرروا قبرص ، ومن بعد كريت (١٦٤٥ م) من سيطرة البندقية وغدت لهم السيادة العليا على البحر المتوسط ، وبقيت لهم قوتهم وسيادتهم الى مابعد حكم سليمان القانونى بأمد ، حتى بدات موجتهم فى الانحسار بعد معاهدة - كارلوفتز - (١٦٩٩ م) ولكنهم ظلوا سدا منيعا امام الامتداد الاوربى الى البلاد العربية ، ولم ينفذ اليها الاستعمار البريطانى والفرنسى فى اعقاب الحرب العالمية الاولى الا بالخديعة والاحتيال المشين ، وكانت صحوة العالم الاسلامى قد بدأت ومازالت هما يؤرق جنوبهم .

دورة الفلك

كانت معاهدة كارلوفتز بداية الوهن فى تاريخ الدولة العثمانية فقد ارغمت على الجلاء عن المجر والجزء الاكبر من سلوفينيا وكرواتيا للهابسبورج فضلا عن بادوليا ، واوكرانيا والمورة وبعض ولماشيا للبندقية واصبح البحر الاسود فى متناول قياصرة روسيا ، وان واجهوا هزيمة ماحقة عام ١٧١١ وارغموا على الانسحاب من ازوف ، ومالبث البنادقة أن خسروا مونتجومرى اخر ماكان لهم فى المورة ، وحين اعتلى السلطان مصطفى الثالث العرش عام ١٧٥٧ ، استطاع أن يعيد للدولة هيبتها حتى سعى الامبراطور فردريك الاكبر فى بروسيا الى محالفته فى حرب السنوات السبع ضد النمسا ، وابرمت بينهما معاهدة صداقة فى مارس ١٧٦١

الا ان الجيش العثمانى لم تعد له قدراته القتالية امام الجيوش الاوربية فى تنظيمها الحديث ، ففى عام ١٧٧٠ تقدمت القوات الروسية واجتاحت ملدافيا ووالیشیا الى الدانوب ، وظهر الاسطول الروسى لاول مرة فى بحر أيجه ، وأوقعوا هزيمة بالاسطول العثمانى على سواحل اسيا الصغرى واجتاحوا القرم ، وان كان لتدخل بروسيا والنمسا ماأرغمهم على ابرام هدنة مع العثمانيين عام ١٧٧٢ ، واستطاعت القوات العثمانية أن تتصدى لهم عام ١٧٧٣ وتحول دون تقدمهم الى الدانوب ، الا أن وفاة السلطان مصطفى الثالث واعتلاء اخيه السلطان عبد الحميد الاول العرش ، ولم يكن من القوة كما كان أخوه فاضطر الى عقد معاهدة - كجوك كينارحى - (يولية ١٧٧٤) مع كاترين الثانية قيصر روسيا ، سلم بمقتضاها للروس :

- بأهم القواعد العسكرية على البحر الاسود وحق المرور بالبواغيز ، واستقلال تتار القرم - ومنح حرية ممارسة الشعائر الدينية لاهل ملدافيا ، ومالبث الاسطول العثمانى أن واجه هزيمة ماحقة عام ١٧٨٨ ، واعلنت النمسا الحرب على الدولة العثمانية ولقيت القوات

العثمانية أشد العناء فى مواجهتها ، وفى عام ١٧٩٢ سلمت تركيا فى معاهدة جاسى بالقرم الى روسيا .

وبدأت دورة الفلك تأخذ طريقا آخر

ولم يبق لهم من امبراطوريتهم الفسيحة التى انساحوا بها الى اسوار فينا ، وداعب السلطان محمد الفاتح بعد أن قضى على دولة الروم الشرقية ووقعت القسطنطينية لقمة سائغة فى يديه ، احلام الاستيلاء على روما والقضاء على الامبراطورية الرومانية ، الا أن تاريخ الدولة العثمانية تمثل فى سلاطين اقوياء وآخرين ضعاف ، ولكن الدولة بفضل تنظيمها الادارى الفذ قد استطاعت أن تبقى على نفوذها فى العالم العربى الذى خضع لسلطانها ، فقد كان العثمانيون فى هذا المضمار اشبه بالرومان منهم بالاغريق ، فلم يكن للرومان ذكاء الاغريق ولكن الدولة الرومانية عمرت اكثر مما عمرت دولة الاغريق مبدعة الحضارة الهيلينية وصاحبتها وذلك بفضل القدرة على التنظيم الادارى وقوة الشرائع الرومانية .

وقد اتسم الحكم فى الامبراطورية العثمانية بالمركزية الشديدة ، وفى سبيل توطيد سلطة الدولة فى ولاياتها لم يكن الولاة يبقون طويلا فى ولاياتهم حتى لايعظم سلطانهم فيتراءى لاحدهم الانفصال عن الدولة ، وماكانت الدولة من ناحيتها لتغتفر لوال من الولاة الخروج على طاعتها ، وكانت تقدم هذا الامر على أى امر آخر فى اهميته حتى وإن شغلت بمناجزة عدو خارجى ، فاذا أغضت عنه لهذا الشاغل عادت اليه بعد أن تفرغ من شواغلها لتنزل به القصاص على عصيانه ، وماكانت تحجم فى سبيل ذلك عن اقتراف مايجافى الخلق والضمير فنراها تغرى محمد بك ابو الدهب - بعلى بك الكبير ، ويخرج المولى على طاعة سيده ويفتك به ، ويعود سلطان الدولة الى ماكان عليه من قبل بل وماكانت تحجم عن الغدر والغيلة بكافة السبل مع كل خارج عليها .

وادى هذا الوسواس فى السلاطين الى ضرب نطاق من العزلة حول املاكهم وساعد على ذلك تحول الطريق التجارى عبر البلاد العربية الى البحار المفتوحة بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح فحرم العرب من مورد مالى كان عاملا هاما فى رفع مستوى المعيشة وفى تقدم البلاد ورخائها بما كان يعود على الافراد من تبادل التجارة وعلى الدولة من المكوس المضروبة على تجارة المرور .

ومن اثار هذه العزلة التى ضربها سلاطين آل عثمان حول املاكهم انقطاع الصلة بين البلاد العربية والشرق الاسلامى خاصة والشرق الاقصى عامة فقد كانت الرواحل العربية تجوب بلاد فارس وبلاد الخستان ، ووادى السند وتصل الى اعماق الهند والصين وجزر اندونيسيا والملايو ، وكانت سمرقند ونجارى وطهران وكابول مراكز هامة للتجارة العربية ، وبانقطاع هذه الصلات ركدت التجارة وضعفت العلاقات الثقافية واهملت طرق المواصلات وتفكك العالم الاسلامى ، وقد رأينا كيف ترك العثمانيون دولة الاندلس تواجه مصيرها منفردة دون أن يمدوا لها يد العون ، بل انهم تحالفوا مع اعدائها ومنحوهم كثيرا من الامتيازات فى الدولة وهى الامتيازات التى غدت من ضعف العثمانيين حقوقا لهؤلاء الاجانب تعرف بالامتيازات الاجنبية .

وفى الوقت الذى بدأت فيه البلاد العربية والشرق الاسلامى غفوتها الطويلة كانت اوربا تستيقظ وتنفض عنها غبار العصور الوسطى ، وتقوم بمحاولات جريئة للتعرف على هذا العالم الفسيح ، وتقودها محاولاتها الى كشف الامريكتين واستراليا والطرق البحرية المجهولة فتضرب فى اعماق البحار طليقة لتسيطر على بقاع جديدة تدخل فى حوزتها وتبدأ مرحلة الاستعمار الاوربى الحديث فلا ينتهى القرن التاسع عشر الا والعالم القديم مستعمرة اوربية .

وبدأت البلاد العربية سنة من النوم طالت فأظلمت العقول وهجرت المدارس ودور العلم ولم يبق فى هذا العالم الفسيح غير الازهر يشع بذبالة من الضوء لاتشبع العقل ولاتغذى الفكر فعم الجهل وانتشرت الخرافة والبدعة وفتكت الاوبئة بالناس وزاد معدل الوفيات من الاطفال فأخذ تعداد الشعوب يتضاءل يوما بعد الآخر ، فلم يكن تعداد مصر يوم جاءتها الحملة الفرنسية يتجاوز ثلاثة ملايين من الانفس ، وعلى ايديهم كانت انتصارات محمد على التى واجه بها الدولة العثمانية ظافرا منتصرا ، حتى كان له الفوز الاعظم فى الشام حتى اعالى الفرات وفى المورة ، حتى تكاتفت ضده الدول الاوربية وحطمت اسطوله فى نافارين ، فلم يرض العالم المسيحى أن يكون له هذا الفوز الذى يمكن أن يعيد الى العالم العربى قدرته واصالته التاريخية ، وكانت معاهدة لندن ١٨٤٠ ختام جولته الظافرة لبعث مصر الحديثة .

وكان الناس قد التفوا حول المشعوذين والدجالين والدراويش وهم طائفة ادعت الولاية والقربى الى الله واتخذتها صناعة رائجة ، وحج المسلمون الى اضرحة الأولياء ، كما لاذ المسيحيون بنصب القديسين واتجهوا اليها دون الله فراجت صناعة الاحجبة والتمائم والتعاويذ ولاذ الناس بالخرافة والسحر وانحدرت الى دركات الظلم والفساد ، وأخذ الحكام يتخلصون من منافسيهم بالغدر والغيلة فانتشرت صناعة السموم وغدا استخدامها وسيلة عادية للانتقام ولم يتورع الخليفة أو الخان الاكبر فى دولة المغول بالهند من اقترافها ، وعمت الرشوة فلم يحجم عنها خليفة أو امير أو حاكم من حكام المقاطعات واستبد الحكام بالرعية وكان كل مرءوس يقلد رئيسه فى الوان الفساد والظلم فالكبير ينهب الصغير والمضرة كلها تقع على كاهل الفلاح والتاجر والصانع من سواد الناس فهجر الناس مزارعهم وصناعاتهم وتجمع الاقوياء منهم فى عصابات لقطع الطريق عرفت فى مصر - بالمنسر - واصبح شيخ المنسر أو زعيم العصابة فاتكا مهابا يفرض سلطانه على الناس ويتحدى سلطة الدولة ، أما الضعاف فاتخذوا من التسول حرفة ومن الشعوذة وسيلة للعيش ، وهكذا اهل القرن الثامن عشر على العرب وهم امة مستضعفة تغط فى سبات نوم عميق من الجهل والتخلف والمرض ، ولم يكن مانزل بمسلمى الشرق الاقصى فى الهند واندونيسيا وماليزيا وغيرها اقل سوءا مما حل بالعرب .

ولكن بقيت الخلافة الاسلامية فى هذا العالم المتخلف تجمع المسلمين فى رباط واحد من الولاء الدينى ، وبقيت الدولة العثمانية تربط بين العرب فى اطار واحد من الوحدة التاريخية كما تربط المسلمين فى الشرق الاقصى بنوع من الولاء الدينى لخليفة الاسلام الرجاء الباقى للمسلمين فى كافة بقاع العالم الاسلامى .

الباب السادس

الحضارة وحركة التاريخ

الحضارة ـ كما قلنا فى بداية بحثنا هذا ـ هى التقدم والارتقاء فى اى منتجع تبرز فيه لتمثل فى مداها من الزمن ارقى صور التقدم بين المنتجعات العديدة ، فالمجتمعات الانسانية حتى فى وقتنا هذا ، حيث غدت هذه الكرة الارضية ، وهذا المجتمع الصاخب الضئيل بما حوى من شعوب واجناس عالم صغير لاتفصل بقاعه حدود او سدود ، قد بقى ولكل مجتمع مستواه الحضارى تقدما أو تخلفا عن ارقى تقدم حضارى قائم ، تنسب اليه فى الواقع حضارة العصر ، وقد لاندرك ذلك من خلال الاحداث والوقائع التى تكون مجرى التاريخ فى ظاهره ، وانما ندركه فى تلك القوى الخفية التى تكمن وراء الاحداث وتحدد مسار الوقائع ، وهى التى تغيب على الراوية الذى يكتفى بوصف مايرى ، دون ماتنطوى

عليه ، ويكتفى بالتسجيل التاريخى ـ وقد يعسر على من يقوم بتسجيل الوقائع والاحداث أن يضمن دقة الرواية وصدق التسجيل ، حتى وان استمد روايته من مصادر رسمية قد تكون لها غاية من غوية الواقعة أو تحريف الحدث واخفاء الحقيقة التى تكمن وراءها ومن العسير ادراكها فى عالمنا هذا المعاصر ، وقد يطول الزمن قبل أن تكشف الوثائق عما تخفيه ، وفقا لما يراه صاحبها وحاجته اليها .

فاذا كانت الوقائع الجارية لاتصدقنا الحقيقة الكامنة وراءها ، فليس لنا من سبيل لمعرفة منحى التاريخ ومجراه الا أن نتبين الاثر الناجم عنه ، فاذا قلنا ـ ليس هناك تاريخ معاصر وكل التاريخ معاصر ـ فاننا نعنى أن الواقع المشاهد لايصدق فى مدلوله ولا ينم عن حقيقته ، الا أن حركة التاريخ تمضى فى مسارها امتدادا لماضيها لندرك من رؤية الماضى مسيرة الحاضر ومدلوله .

واذا كان لكل بيئة طابعها الحضارى المتميز فانها جزء من الكل الحضارى السائد ، فالحضارة هى تراث الانسانية الممتد ، أما ماقبل ذلك فمن قبيل الاستقراء والتخمين ، فلسنا نعرف مثلا متى وجد الانسان على الارض ، بينما تثبت حقائق التربة وجيولوجية القشرة الارضية وخباياها امتدادها الى ملايين السنين .

وقد نجح العلم اخيرا فى تحديد اعمار الصخور والتكلسات الارضية الى اقدم ماذهبت ليه فى نشأتها وتكوينها ، أما هذا الانسان الذى عاش على اديمها سواء فى قلب الكهوف أو فوق الاشجار فلا ندرى عنه الا لبضع مئات من الوف السنين .

ولانرى فيما ذهب اليه ازفلد شبنجلر ، وارنولد توينبى فى تقسيمهما النمطى للحضارات ، الا أنه قد اقترب بهما من علم المجتمع منهما الى فلسفة التاريخ ، وان كنا

لانباعد بينهما ، الا أن نفترض اقتراب علم المجتمع من الواقع التاريخى منه الى فلسفة التاريخ وحاجتها الى الاستقراء القائم على الفروض والتخيل والعديد من التوقعات ، « فالسيد توينبى ـ كما يقول مؤرخ بريطانيا الكبير هـ . ا . ل . فشر ـ لم يحصر نفسه تماما فى الوقائع ، واخصب مايسفر عنه فكره التاريخى مقارناته الواعية .. وأنه لم يعرف التحيف ابدا »

الا أن « معيار البحث التاريخى ـ كما يراه الباحث الانجليزى ـ ج . م . تريفليان ـ هو الحقيقة حيث تتواكب النظرتان العلمية والادبية للتاريخ » وقد وضع ـ جاكوب بوركهارت ـ بطريقته العلمية فى دراسة التاريخ ، هذين العنصرين ـ عنصر الحقيقة وعنصر الخيال معا ـ امامه فى نظرته للتاريخ « فغاية التاريخ ـ كما يقول ـ أن يسفر عن هاتين الصورتين المتوائمتين فى تميزهما وتشابههما ، بداية من الحقيقة التى يكسوها اول مايكسوها الخيال فى أى ميدان يتجلى فيه ، فهذا الخيال له صورته التاريخية التى يبدو فى ظلها وكأنه متغير ، أو أمر عارض ، أو وهلة عابرة هى جزء من كل فسيح لانستطيع أن نتكهنه ، كما أن لكل حدث اطاره الخيالى الذى يشترك معه فى فحواه »(١)

ولايعنى الخيال ـ كما ترى ـ فى تصور كبنيث و . تومسون ـ فى منهج توينبى التاريخى ، البعد عن الواقع الفعلى لحركة التاريخ ، بقدر مايعنى القدرة على الاستقراء ، وهى قدرة تقوم على التخيل وتصور الماضى كما تمليه حركة التاريخ فى مسارها العام حيث تحل النظرة الكلية محل النظرة الجزئية ، وحيث تتواءم الاحداث لتسفر عن الحقيقة فى حركة التاريخ العام .

الا أن اعظم ماتمخض عنه فكر توينبى ، مما ينم عن مرونته الفعلية ، نظرته للحضارة كملحمة من ملاحم البطولة الانسانية ، يرى تومسون انها قادته فى النهاية الى الفكر الدينى مغلفا بالنظرة المسيحية ، ورأى فيها قواما للدولة القومية ، ثم عزف عنها الى ـ العالمية اساسا ـ أو على حد تعبير تومسون ـ « فلسفة مثالية للعلاقات الدولية .. فان الشعوب اذا بقيت مقيدة ومحصورة داخل دولة ضيقة تكافح فى سبيل وجودها وبقائها ، فان مصيرها لن يكون اكثر مما كان مصير دولة المدينة اليونانية »

الا أن حركة التاريخ ـ كما نتصورها ـ تمضى عادة تحت سلطان القوة الدولية الكبرى ، التى تقود الاحداث ، وتمضى بالوقائع التاريخية الى مسارها الذى تنشده ، كما كانت مصر الفراعنة فى التاريخ القديم ، وكما كانت امبراطورية الاسكندر والامبراطورية الرومانية ، وامبراطورية فارس ، ومن بعدهما الأمبراطورية الأسلامية ، حتى اديل منها الى الامبراطوريات الاستعمارية ، وكان لكل منها سياسته التى تتوخى المصلحة الخاصة ، فقد قيل فى هذا الصدد أن البرتغاليين حين شقوا طريقهم الى الهند ، وجاء بعدهم الانجليز فى « رحلة بدأت من بليموث عام ١٥٩١ ، أى بعد مضى نحو قرن على اقتحام البرتغاليين لبحر

---

١ ـ قادة الفكر الدولى فى القرن العشرين : تاليف : كينيث و . تومسون ، وترجمة الدكتور حسين فوزى النجار : الباب الرابع . ارنولد توينبى ص ٢٤٠ ـ ٢٤٥

الهند ، رأسها جيمس لانكستر متجها الى جزر الهند الشرقية ، وسجلها ريتشارد هاكليوت نقلا عن مساعده لانكستر اثناء تلك الرحلة »

« كانت سفن لانكستر الثلاث راسية فى مياه جزيرة زنجبار ، وقد اسرت فلوكة للمسلمين ـ كان عليها رجل دين لهم يدعونه فى لسانهم (الشريف) وقد عاملناه احسن معاملة ، مما افاء علينا رضاء الملك، فلرجال الدين عنده مقام كبير وقدم لناميرة تكفينا شهرين وعلمنا من هؤلاء المسلمين بما يشيعه البرتغاليون بينهم عن الانجليز ، فكان اهل زنجبار يعتقدون أننا قوم قساة القلوب ، ومن آكلة لحوم البشر ، والبرتغاليون يحذرونهم من الاقتراب منا ، اذا طلبوا لانفسهم السلامة ، واوضح أن البرتغاليين يفعلون هذا ليحولوا بيننا وبين الاطلاع على شئون البلاد وتجارتها »(١).

وقد غدت القوة الدولية حينذاك ، للبرتغال واسبانيا عندما اقتحما البحار شرقا وغربا ، وفى اعقابهم الهولنديون ، ليزحمهم الانجليز ويزيحونهم عنها ، ويخوض الفرنسيون متأخرين فى الساحل الشمالى لافريقيا ، وتبدأ مرحلة الصراع الاستعمارى وتقود اوربا الى الحربين العالميتين الاولى والثانية ، ولم تكونا غير حرب واحدة بينهما هدنة امتدت من عام ١٩١٨ الى عام ١٩٣٩ ، لتسفر عن قوتين جديدتين : امريكا والاتحاد السوفيتى ، يمدان ظلهما على العالم اجمع ، مما حمل المؤرخين وفلاسفة التاريخ بل ورجال علم الاجتماع والعلاقات الدولية والسياسية والاقتصادية والاستراتيجية على رؤى جديدة .

وكان من وعى توينبى بحركة التاريخ مالم يكن لغيره من معاصريه ، وكان لتجربة حياته وتجواله الفسيح فى القارة الاوربية منذ وقت مبكر من حياته ، وماكان من التحاقه بالخدمة العسكرية فى الحرب العالمية الاولى ، واختياره للعمل بادارة المخابرات السياسية بوزارة الخارجية عام ١٩١٨ ، وفى مؤتمر الصلح بباريس عام ١٩١٩ عضوا بلجنة الشرق الاوسط ، ومرة اخرى فى اعقاب الحرب العالمية الثانية عضوا بالوفد البريطانى الى مؤتمر السلام ، ثم مديرا للبحوث الاجنبية والمطبوعات بالمعهد الملكى للشئون الخارجية ، ثم مديرا لادارة البحوث بوزارة الخارجية ، الى جانب ماشغله من مناصب الاستاذية فى عدد من الجامعات والمامه بخمس لغات ، مما يفسر وعيه الدقيق بحركة التاريخ كما يفسر مرونته العقلية وتطوره الفكرى الدائب تطورا يسبق به الاحداث كما كان منه فى اخريات حياته ، حتى قيل انه قفز من القرن الثامن عشر الى القرن الحادى والعشرين متخطيا القرنين التاسع عشر والعشرين ، وكان قد الم بالشرقين الاقصى والاوسط واتصل بالعالم الاسلامى فى اعقاب الحرب الاخيرة وزار مصر وفلسطين ، وشهد ماكان من انسياح النفوذ الامريكى والسوفيتى الى العالم الجديد ، عالم مابعد الحرب العالمية الثانية ، واخيرا قيام اسرائيل ، نقيضا لاستواء حركة التاريخ ، وتفاقم الحركات العنصرية تفاقما يوشك أن يصيب الحضارة الانسانية بالخلل والحث عليه فكرة أن الغرب

---

١ ـ جمهورية مصر العربية : الشعبة القومية للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو) : اثر العرب والاسلام فى النهضة الاوربية : بحث للدكتور حسين فوزى ـ عن المعارف الملاحية ـ الفصل السادس .

يدنو من نهايته التاريخية ، ولمح فى تاريخ الحضارات الاخرى من النذر ماتبدو ملامحه فى حضارته .(١)

وكان اتجاهه الجديد « ايمانا منه بوحدة الحياة ووحدة الفكر ، نحو نظام عالمى ، والحل السياسى العاجل هو الاستقرار السياسى ، والحل السياسى النهائى هو قيام حكومة عالمية والاساس العقلى للاستقرار السياسى هو الواقعية السياسية ، كما هو المثالية السياسية لقيام حكومة عالمية والزمن وحده هو الكفيل بالاستقرار ، وليس غير الحكومة العالمية مايكفل الاستقرار العالمى »

« والحرب والطبقية ـ كما يقول ـ هما آفة العالم ومشكلته الكبرى ، فقد كانت الحرب سببا فى فناء الحضارات السابقة ، وهى النذير الذى يهدد كل ماحققته الانسانية من مكاسب فى هذا العصر ، أما الطبقية فهى الاخرى تهديد مسبق بسبب الحاجة الى اعادة تقويم المجتمع ، وهى حاجة تمتد بجذوزها الى القرن التاسع عشر وقد حول التقدم التكنولوجى المعاصر الحرب والطبقية الى ادوات شنيعة بشعة ، قد يكون فيها دمار العالم ، والحضارات جميعا وليس دنيانا وحضارتنا وحدهما .

واذا كان قد ود ـ كما يقول ـ ان يكون تلميذا صغيرا فى خدمة الشئون الانسانية قبل الشئون السياسية والثقافية والاقتصادية والدينية ، فقد كان له ماأراد ، وقد ولج وحده بؤرة الصراع العالمى ، وكان وعيه بحركة التاريخ ، اسبق من غيره ، ولكنه حين اقترح الحلول لاقامة الدولة العالمية ، كان اكثر تفاؤلا مما كان نبض الاحداث وحقيقة الكوامن الخفية للطبيعة البشرية .

واذا كانت القوى الروحية ـ كما يقول ـ دون القوى المادية هى التى تحكم صفحات التاريخ ، فقد وضع يده على اسباب انهيار ، أو بداية انهيار حضارة الغرب بصورتها المادية التى سيطرت على عقول اربابها ، ولكنه لايرى صلاحا لهذه البادرة المظلمة الا من خلال الوفاق السياسى بين القوى الكبرى الحاكمة ، وان بقى على يقينه بان الايمان الدينى بقى ومازال عاملا على تلطيف وكبح جماح تطلعات الشعوب ، وان كانت ثورة التكنولوجيا قد غدت مولها طابعها الاخلاقى مادامت قد حملت الشعوب على الايمان بالوحدة العالمية ، الا أن هذا الطابع الاخلاقى قد غلفته القوى السياسية ، وكان الايمان السياسى بديلا للايمان الدينى ، والخوف بديلا للرجاء فى حضارة تخضع القوى الكبرى فيها لعدو مشترك هو الطاقة النووية ، فان ماتخشاه امريكا هو نفسه ماتخشاه روسيا حين يصبح العالم رهنا بارادة مجنون ، أو خطأ فى اجهزة الانذار ، وغدا كل همهما الوصول الى حل للسباق النووى وحرب الصواريخ فيما بينهما ، وهى محاولات لايبدو فى طياتها امل لنجاح بين ثقافتين [illegible] بينهما طريق ، أو بادرة وفاق الا أن يكون الخوف هو الغالب عليهما .

---

١ ـ الفكر الدولى فى القرن العشرين ، ص ٢٥٧

ويبدو ان التاريخ يعيد كرته فى عالم لاجديد فيه مادام الانسان هو الانسان بكل مافيه من نوازع الخير والشر على السواء . فما كان من قبل بين فارس وبيزنطة منذ الفى عام هو مابين روسيا وامريكا اليوم .

خلل الحضارة الأوربية

وقبل ان يبدأ الصراع النووى والعقائدى بين القوتين الكبيرتين ، امريكا وروسيا . وقبل أن تفجأ الحرب العالمية الثانية العالم بالكارثة التى تنجم عنها . كانت النذر قد اخذت تلوح وتبرز على السنة المفكرين وكتاباتهم وفى محافلهم بما يتهدد الحضارة الاوربية من مصير مظلم ، وان الخلل ناجم عن النزعة المادية التى عصفت بالفكر الاوربى . وراحوا ينشدون فى قيم الشرق وروحانيته انقاذا للانسانية من الكوارث التى المت بها ، ففى مؤتمر الاديان العالمى الذى عقد بجامعة عليكرة عام ١٩٣٨ ، والحرب العالمية الثانية تدق الابواب . وتنذر العالم بشر المحن . قام لورد لوتشيان فى خطابه الافتتاحى بالقاء هذا السؤال :

« هل يستطيع دينا الهند العظيمان : الاسلام والهندوكية ان يصمدا لضغط النظرة العلمية الحديثة الناقدة باكثر مما استطاعت الاديان الارثوذكسية فى الغرب ؟ »

ثم يقول . « هذا سؤال هام على قادة الهند الدينيين ان يواجهوه . اذا كان للهند ان تتجنب الكوارث التى المت بالغرب ، ان النظرة العلمية ستذيب بالتدريج مابقى فى نفوسنا من خرافة وهذيان وجهل ، ولكن هل تتزعزع من هذا قيمة التعاليم الروحية التى بشر بها الدينان العظيمان بيد المثقفين من الجامعيين والجامعيات الذين سيقودون خلال الجيل أو الجيلين القادمين الحياة السياسية والثقافية والصناعية فى الهند ؟ فالانسان بعد ان تراكمت عليه مشاكل العلم وازدادت دون حل يلتمس فى الدين الهداية فى حكلة الشكوك والمشاكل ، وعلى الدين ـ اذا أراد ان يستعيد مكانته أو يبقى عليها ، أن يقدم حلولا روحية علمية تؤدى الى نتائج حتمية »

ومايعنيه لورد لوتشيان أن خروج الغرب على الدين وانكاره لتعاليمه قاده الى تلك الحياة المادية التى افرزها العلم وغصت بها حياته ، وفقد فيها روحانيته فقد أودى بالتالى بجلال العقيدة الدينية وتأثيرها فى النفس وأهدر وازع الضمير والأخلاق ، وما لم يكن وازع للانسان يخشاه ويرجو رضاه فأن قانون الاخلاق لن يغنيه عن التحلل ولن يحول بينه وبين الرذيلة بل والجريمة حين يجد فيها وسيلة الى مأرب أو تحقيق غاية

وما ادركه لورد لوتشيان من فلسفة الغرب المادية وحذر منها كان قد حدده وانتهى اليه ـ البرت شفيتسر ـ قبله بنصف قرن من الزمان بصورة كانت تعن الخاطر ، لم ينكر فيه المسيحية ولم يعرض لها ولعله استهدى سماحتها وان غدا في نظرته الى العالم الفسيح من حوله اقرب الى روح الاسلام مما انتهت اليه مسيحية الغرب الاوربى وكان ذلك قبل أن يصدر ارنولد توينبى برؤيته لعالم موحد في ظل حكومة عالمية واحدة وديانة يدين بها البشر جميعا وان لم يشر البرت شفيتسر في كتابه ـ فلسفة الحضارة ـ الى الإسلام من قريب

او بعيد مع اقترابه من روح الاسلام في نزعته الى التصوف ونظرته الى العالم ككل والى الحضارة في اطار انسانى شامل يسع الانسانية جمعاء والمساواة بين البشر اجمعين لا فرق بين اسود وابيض مما حمله الى سواد القارة الافريقية يضع جهده وخبرته في خدمة حياة يفترسها الجهل والمرض كما يفترسها جشع المستعمر الابيض .

وكانت فلسفته نبع ذاته وتفكيره فمنذ طفولته الباكرة تسمو ..فطرته على كل حوافز البيئة وسلوك المجتمع وغدت اراؤه ومثله هديا لنهجه في الحياة فمن ذكريات صباه انه صارع رفيقا من رفاق المدرسة وغلبه رغم تقدم الاخر عليه في السن وتفوقه عليه في الحجم وقال له هذا الاخر بعد غلبه : انني لو كنت اتناول الحساء الدسم مرتين في عشائى كل اسبوع كما تتناوله لغدوت مثلك قوة وصحة بدن .

وفقد الحساء طعمه في فمه تلك الليلة حين فكر في حرمان الاخر منه وبدا يلحظ التفاوت بين حياته اللينة الرخية وحياة رفاقه الخشنة حتى لا يتميز عليهم ورفض أن يتدثر بمعطف وهم لا يجدون ما يتدثرون به او بمثله ولم يجد في هذا زجر ابويه او ملاطفتهم له حتى يقلع عن اصراره فيما انتواه ونفذه ولم يقبل ان تكون له قلنسوة ليس لرفاقه مثلها ، وقال للبائعة التى عجبت لأمره : لا أريد قلنسوة مما تأتين به ، وانما اريد واحدة مما يلبسه الصبية فى القرية .

وكانت تلك فلسفته التى اهتداها بنفسه ولم يكن عجيبا حين استقام على نهجه الذى اختاره ومضت عليه حياته من بعد ان حصل على درجة الدكتوراة في اللاهوت والفلسفة وبرز في الموسيقى حتى قارب ان يكون علما من اعلامها واصبح عميدا لكلية اللاهوت التى تخرج فيها والف كتابا عن - باخ الشاعر الموسيقار واخر عن يسوع في التاريخ وبدا المستقبل مشرقا امامه .

وكان حينذاك في الحادية والعشرين حين عثر على نشرة قرأ فيها مقالا عنوانه - حاجة بعثة الكونغو الدينية - وفيه يصف كاتب المقال حاجة اقليم جابون في افريقيا الاستوائية الفرنسية ويهيب بالناس في طلب المعونة لسد حاجة الأهلية الملحة اليها وقد اقترب من الثلاثين ولم ير فيما يقوم به من خدمات اجتماعية مع رفاقه ما يحقق ذاته في الخدمة العامة وقد ذكر تمثال - حديقة كولمر - وقد انحنى راسه اسى وحزنا وكانه ينهض من انحناءته الذليلة واصبحت وجهته افريقيا - أفريقيا التى يخيم عليها البؤس والعوز ويقتلها الاستعمار .

وتغيرت حياة رجل اللاهوت فاخذ في دراسة الطب حتى يعد نفسه للعمل العظيم الذى لك عليه غايته وبين استنكار الناس ودهشتهم مضى في سبيله لتحقيق الرسالة التى وهب سه لها في نزعة صوفية ملكت عليه وجدانه وكان هذا العمل الانسانى الجليل هو الذى نال عليه جائزة نوبل للسلام - وخلد به أكثر مما كان يخلد بكتبه وابحاثه في الموسيقى والحضارة والتاريخ

واستوت فكرته عن الحضارة حين امتدت غاشية الظلام اوائل عام ١٩١٤ لتشمل العالم م يكن قد مضى عليه في منتجعه الجديد سوى عام واحد فقد توالت الانباء بان القوم في يا يعبئون الجيوش وما لبث أن سمع في يوم من أيام شهر أغسطس بان الحرب قد لنت وأن القوم يصلون نارها وما لبث أن جاءه الامر بان يعد نفسه وزوجة اسيرى حرب

بصفتهما من رعايا المانيا التى تشتبك معها فرنسا صاحبة المستعمرة في حرب مدمرة .

وراح يمتد بتفكيره الى اوربا والى قوم يتقاتلون وشباب يرقد في الخنادق متربصا بعضه ببعض فهل تكون خاتمة المطاف في حضارة العصر وهل هى النهاية الأليمة أم انها بداية النهاية في افول الحضارة ؟

واخذ يردد في تفكيره : « أنا حياة تريد أن تحيا في محيط من الحياة يريد أن يحيا وما من كائن حى الا ويملك ارادة الحياة مثله سواء بسواء وينبغى أن يكـون ـ توقير الحياة ـ هدف حياتنا ومبتغانا في كفاحنا الدائم للارتقاء المادى والروحى ففى توقير الحياة ـ يتمثل كل ما يمكن ان نصفه بالحب والولاء والرحمة في هنائنا وشقائنا أو حتى في كفاحنا ..

والمت به نزعة صوفية وقد تجلت له حكمة الحياة والخلق فالحياة عنده مقدسة لا يقبل أن تمتهن او يعتورها الشقاء اوتستهدف للموت الا من اجل الحياة نفسها وفي سبيلها فالقتل اثم والقضاء على حياة حيوان أو طائر أو حتى زهرة نامية هو الاخر اثم ما لم يكن لمنفعة الحياة ذاتها فقد يقتطف الفلاح "الاف" الازهار علفا لماشيته ولكن ليس من حقه أن يقتطف زهرة واحدة بقصد المتعة أو أرضاء لنزعته واذا كان علينا ان نذبح الأبقار لنقتات بلحومها فعلينا ان نتوخى ايسر سبل الذبح حتى لا نطيل الم الذبيح ففى معاناة الالم امتهان لتوفير الحياة وعلى كل انسان ان يحول ما استطاع دون ايقاع الألم بالغير واننا لننوء بالذنوب حين لا نلقى بالا الى حيوان يتعذب .

ونراه يقترب من شعيرة الاسلام ولم يكن يدرى عنه شيئا بل ان نزعته الصوفية قد واتته بعد تفكير واستقراء هو ما الم بشيخ المتصوفة الامام ابو حامد الغزالى وقد جاء في وقته ـ كما سبق القول ليرسى التصوف على اصول وقواعد منهجية في حقبة عصيبة في تاريخ الاسلام وقد قضى عشر سنوات في التأمل والمقارنة حتى استقر يقينه وقرت روحه على النور الالهى الذى يضفيه الله تعالى على المختارين من عباده وهذه السنوات العشر هى التى قضاها شفيتسر ليستقر يقينه هو الاخر على ما آمن به وكانت المعاناة هى نفس المعاناة وما الم بالاسلام والحضارة الاسلامية هو ما الم بالحضارة الاوربية هى الأخرى .

ثم كانت دعوته الى العالمية على أساس من توقير الحياة واعلاء الكرامة الانسانية وأن ارادة الحياة من أجل التقدم تقدم المعرفة وتقدم التنظيم الاجتماعى للانسانية والتقدم الروحى والدينى للمجتمع فضلا عن التنظيم السياسى وطالما ارتبطت المعرفة المادية بالروح كان ارتباطها بالاخلاق والسلوك الاخلاقى قويا كارتباطها بالعلم والمعرفة ولعله لم يدرك أن ما نادى به قد بشر به الاسلام قبل اربعة عشر قرنا وهو ما أدركه ـ توينبى ـ بعد نصف قرن وأخذ يفكر في وضع الاطار العملى لتنفيذه باقامة حكومة عالمية في ظل ديانة واحدة مما حمله في أخريات ايامه على دراسة الإسلام والتعرف على الشعوب الإسلامية في الشرقين الأقصى والأوسط ، ووافته المنية (١٩٧٥) قبل أن ينتهى الى راى معلم وإن ابدى كثيرا من التعاطف مع القضية الفلسطينية بوجه خاص وقضايا الشعوب الإسلامية بوجه عام .

ولكن اذا كان توينبى ينشد اقامة حكومة عالمية وهى التى نوه بها شفيتسر بما دعاه وحدة عالمية في ظل قانون اخلاقى تهتديه البشرية ويراها ضرورة حتمية لتحقيق السلام العالمى والرخاء العام فإن الوفاق بين الدينين السماويين هو الخطوة الأولى لتحقيق الغاية

المنشودة أمام الزحف المادى السائد وفي عالم غدا قسمة بين فريق يؤمن باله قادر وفريق يؤمن بالمادية الملحدة ويرى الدين افيون الشعوب فان التقارب بين الإسلام والمسيحية ما يتصدى لهذا الالحاد ما داما يمتان الى اصل واحد يقوم على الايمان باله قادر فإما حمدا واما حلت بهما الهزيمة وعليهما أن يجابها هذه القوى المادية الملحدة ويجردانها من فلسفتها الضالة احياء للقوى الروحية لكل منهما في تعاون تام واخاء وثيق في خدمة الله رب البشرية جمعاء

الا ان الثقة بين الفريقين أضعف من أن تؤدى الى مثل هذا الوفاق ومن العسير أن يسلم أيهما بجريرته ضد الاخر أو يعترف للاخر بحقه عليه بل أن الأحداث المتردية التى يجتازها العالم تزيد الهوة اتساعا أمام اى اتفاق او تعاون بين اصحاب الدينين السماويين وقد تكون أسبابها وعواملها بعيدة عنهما

الا ان ما يغيب على المسيحيين وخاصة في الغرب ان الإسلام يعترف بالمسيحية ويوقرها ويعلى من شأن المسيح ويكبر العذراء مريم وافرد لها سورة في القرآن الكريم بقوله تعالى :

« واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت إنى اعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما ذكيا . قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم اك بغيا . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله اية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا » (مريم : ١٦ ـ ٢١)

هذا بينما لا يؤمن المسيحيون بنبى الاسلام (صلى الله عليه وسلم) ولا يسلمون برسالته فكيف يتأتى أن يكون بين ارباب الدينين وفاق ؟ وان رأى المنادون بالوفاق أن ذلك يحرر المسلمين من عزلتهم كما يعزف المسيحيون عن مناقضة الإسلام والحملة عليه .

ومنذ البداية وللإسلام منته على المسيحية واعترافه بها وقد زود المسلمون العالم المسيحى بكل أسباب الحضارة ومازال بقاؤهما في عالمنا حجة على ما لكل منهما من تأثير في الآخر وأثر كل منهما على الأخر ومازال للمسلمين من اسباب التميز والايجابية ما يقدمونه للمجتمع العالمى ولا يبغون من الغرب غير الاستجابة العادلة لمكانتهم العالمية على قدم المساواة على أساس من حرية الدعوة والتعاون المتبادل وهو ما كان من وصية نبى الإسلام للخليفة من بعده عندما حضرته الوفاة :

« أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفهم فوق طاقتهم .

وقد أجرى الخليفة عمر بن الخطاب الصدقة على يهودى كفيف البصر وأمر له برزق مستمر من بيت مال المسلمين وقال لخازن بيت المال : « انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفنا أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم انما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب ثم وضع الجزية عنه وعن ضربائه »

وأوصى عليه الصلاة والسلام بالذميين ونهى عن ايذائهم ومما يؤثر عنه قوله : « من اذى ذميا فقد اذانى وقوله : « من قذف ذميا حد له يوم القيامة بسياط من نار » ومن وصية عمر بن الخطاب ، لعمرو بن العاص في ولاية مصر قوله : ان معك اهل الذمة والعهد فاحذر ياعمرو ان يكون رسول الله خصمك » .

وذلك على خلاف ما كان من تعصب الغرب المسيحى ضد الإسلام وهو ما اشار اليه ـ برتراندرسل بقوله : « وفي المعارك الأولى بين الإسلام والمسيحية كان المسيحيون هم المتعصبون والمسلمون هم المنتصرون » *

وقد ذهب ـ كينيث هـ كرندال ـ في دعوته الى التعاون بين الإسلام والمسيحية الى انقاذ العالم من موجة الالحاد والمروق من الدين التى تعصف به وأول ما يراه : « أن يتحرر كل من الجانبين الإسلامى والمسيحى مما يعروهما من جهل بأهداف الاخر ومراميه ، وما للماضي الملىء بالشك فالاحن الناجمة عن اخطاء الماضى ومظانه الخاوية ومازالت تلك الاحن والشكوك قائمة الى وقتنا هذا وما من سبيل للتحرر من اوضار الماضى الا بادراك القوى الكامنة الخلاقة في الإسلام والمسيحية على السواء مما يتجلى في صلة المسلمين والمسيحيين بالله في الوقت الحاضر .

إلا ان ما ذهب اليه . كراندال طالب اللاهوت بجامعة ييل وخريج مدرسة اللاهوت بالجامعة وهى حدى المدارس التابعة للجامعات الأمريكية وتقوم باعداد القسس للطوائف البروتستانية الامريكية والمبشرين التابعين لها في الخارج وكان يعمل ـ حين كتب بحثه هذا راعيا للكنيسة المشيخية ويكنجتون الينوى .

ـ ونال عليه الجائزة الأولى في المسابقة التى اجرتها ـ جمعية أصدقاء الشرق الأوسط بأمريكا وكان من أقطابها ـ المر برجر ـ صديق عرفته خلال الخمسينات بأمريكا أثناء عملى بالجامعة العربية وهو من المفكرين للتعصب الصهيونى وسياسة اسرائيل العدوانية ومن دعاة التعايش السلمى الفلسطينيين واليهود كما كانوا من قبل .

وكان ما كتبه كراندال اكبارا للاسلام وما قدمه المسلمون للغرب المسيحى من زاد علمى وثقافى كان اساسا النهضة للغرب وحضارته الحديثة وقد ختم بحثه بالعبارة التالية .

« في أى عالم وبالذات في عالم ممزق بين من يؤمنون بالله ومن يكفرون به من دعاة المادية والالحاد نرى في الإسلام والمسيحية الكثير مما يمكن ان يقدمانه للوقوف معا في مواجهة هذا المروق والكفر ما داما ينتميان الى أصل واحد ويؤمنان بالله فأما سقطا معا وكانت النهاية واما صمدا وكتب لهما البقاء وعليهما أن يدركا ألا محيص لهما عن ذلك وعليهما منذ اليوم أن يقفا صفا واحدا وان يتكاتفا معا لمواجهة هذا الموقف وان يواجها معا تحديات العصر بما يقدمان من تعاليم وثقافات دنيوية وأن يهىء كل منهما للآخر ما يمكنه من ابراز قواه الروحية وأن يعملا معا كروحين في جسد واحد لخدمة الله رب البشر اجمعين »

ومن عواقب هذا الاتجاه قيام جمعية التضامن الاسلامى المسيحى لتبدأ أول اجتماعاتها عام ١٩٥٤ في بحمدون بلبنان بسبعين عضوا من صفوة المسلمين والمسيحيين في العالم يحدوهم ايمان عارم للاعلان عن القيم الروحية لكلا الدينين وكانت للبداية لقيام تلك الجماعة .

وكانت جائزة كراندال عن البحث رحلة الى بلدان الشرق الاوسط وقامت جمعية اصدقاء الشرق الأوسط بنشرها في يناير ١٩٥٣ وفي العام التالى كانت طبعتها الثانية ثم لثالثة كما ترجمت الى اللغة العربية ولقيت اقبالا واسعا من القراء

وكان الاجتماع التالى للجمعية في الاسكندرية بمصر عام ١٩٥٥ تم مرة أخرى في بحمدون عام ١٩٥٦ واتخذت مقرها الدائم دمشق بسوريا وواشنطن بأمريكا حتى عصفت بها عقابيل السياسة ولم يعد لها خبر او ذكر .

ولم تكن تلك الدعوة للتوفيق بين الأديان السماوية هى الأولى من نوعها فقد سبقها دعوة الفاتيكان عام ١٩٤٨ وفشلت بسبب تمسك البابا برئاستها وأن يكون مقرها الفاتيكان بروما كما قامت دعوة للتوفيق بين الشيعة والسنة اتخذت القاهرة مقرا اواخر الاربعينات .
واذا كانت مثل هذه الاتجاهات قد اتخذت طابعا دينيا فان ما دعا اليه توينبى كان اتجاها سياسيا يستهدى قيام حكومة : عالمية إن رأى في الوحدة الدينية دعامة لها .

ومازال الفلاسفة يحلمون ويغرق المفكرون في التخيل والساسة ورجال الحكم يلعبون او يكذبون وان بقيت اليد الخفية تحكم احداث التاريخ وليس للإنسان من فضل الا أنه يكشف كل يوم ما غاب من قبل وان لم يؤت بعد من العلم الا القليل وبقى السر الأعظم ملكا لخالقه ليس لنا منه غير الرمز وما تطيقه عقولنا ولا يغرب عن خيالنا أو قدرتنا على التخيل في حدود ما نقيه من دنيانا فسبحان الذى بيده الملك وهو على شىء قدير .

اللقاء العسير

واذا كانت حضارة العصر امتدادا لحضارة الإسلام في العصور الوسطى وهى العصور التى يراها الاوربيون عصور الإظلام في تطورهم الحضارى فان اللقاء بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى في الحروب الصليبية ثم ما كان من انحسار الإسلام عن بقاع ظل يعمرها من قبل طوال ثمانية قرون فان اللقاء بين الدينين العظيمين الاسلام والمسيحية وان كانا يمتان الى جذور واحدة - تبدأ برسالة ابراهيم أبى الانبياء عليه السلام - كان لقاء عسيرا غلفته الاحن والتراث والعداوات الى وقتنا هذا يلخصها - لوثروب ستودارد - نقلا عن جمال الدين الافغانى بقوله : (١)
« انها تنحصر في أن الغرب ناهض للشرق والروح الصليبية لم تبرح كامنة في الصدور كما كانت في قلب بطرس الناسك ولم يزل التعصب كامنا في عناصرها وهى تحاول بكل الوسائل القضاء على كل حركة حاولها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الاصلاح والنهضة »

وكان الأفغانى يأخذ على المسلمين مازلنا نأخذه على أنفسنا فنحن نعيش في ماضينا أكثر مما نعيش في حاضرنا أو لمستقبلنا فيقول في حديث له مع - شكيب ارسلان « ان المسلمين أصبحوا كلما قال لهم انسان : كونوا بنى ادم أجابوه : أن اباءنا كانوا كذا وكذا وعاشوا في خيال ما فعل اباؤهم غير مفكرين أن ما كان عليه اباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه من الخمول والضعة ان المسلمين قد سقطت هممهم ونامت عزائمهم وماتت خواطرهم وقام شىء واحد فيهم هو شهوتهم وان اقتل ادواء دولهم داء انقسام أهله وتشتت ارائهم واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف . (٢)

واعيد هذا الكلام للافغانى بعد أن مضى عليه اكثر من قرن لأقول أن الحال مازالت هى الحال ان لم تزد نكرا فالفرقة مازالت قائمة بل وتفاقمت وانقلبت اخيرا الى حرب ضروس لا تخفى فيها يد الغرب المتعصب فان ما يحدث اليوم على ساحة العالم الاسلامى هو ما كان من قبل من حروب بين العثمانيين والصفويين (١٥٠٢ - ١٧٢٢) لما كان بين السنة والشيعة

١ - حاضر العالم الاسلامى : ترجمة عجاج نويهض ، ص ١٢٧
٢ - احمد امين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث : السيد جمال الدين الافغانى .

من عداء مرير واصرار الشيعة على اجتياح العراق حيث النجف الأشرف محج الشيعة وقدس اقداسهم الى جانب كربلاء حيث استشهد الحسين - رضى الله عنه - في كربلاء - وغدا العراق بعد ان اجتاحه السلطان سليمان القانونى عام ١٥٣٥ وأقام قبر الامام أبى حنيفة محورا للصراع الدامى بين السنة والشيعة وغلب عليه الطابع الدينى منذ ذلك الحين وهى الصورة التى نراها ماثلة اليوم في الحرب الدائرة بين العراق وايران وكأن التاريخ يعيد نفسه .

واذا كان الاستعمار قد فقد سلطانه على البلاد العربية والاسلامية فلابد ان يستعيض عنها بالتضليل الفكرى الخفى فيرميها بافكار مبهمة وألفاظ مجردة غائمة المعنى تثير الجدل وقد ينتهى الجدل الى تحزب، ويؤدى التحزب الى الخصومة والشقاق ويذهب الناس فرقا شتى متناحرة يرى كل منها انه على الحق

وكثيرا مايرميهم بما يشغلهم عن الدعوة الى دينهم والتعريف بشريعته وبنائه الانسانى العظيم بمقاومة ما يثور من انحرافات تتبناها فرق ضالة دخيلة على الاسلام كالبهائية والماسونية والقاديانية وغيرها وليس ذلك بجديد على المسلمين فهى تكرار لما كان من البابكية والخرمية والقرمطية وغيرها من الفرق الضالة من قبل الى جانب البعوث الكنسية والمنح الدراسية التى تغذى المسلمين بالمعرفة الباطلة فضلا عن التبشير الدينى المبرمج .

ومع ما كان من اكبار الغرب المسيحى للاسلام والمسلمين في حروبهم مع صلاح الدين ومن بعد خلال مائتى عام من الحروب الصليبية أخذ يتعرف فيها على الاسلام والمسلمين فان إلحاحه في القضاء على الاسلام وتحويل المسلمين عن عقيدتهم بقى كما كان من قبل وان تغيرت الاداة من السيف الى التضليل الفكرى والسياسى وبينما اخذ الغرب عنا محاسن ديننا رمانا بما كان يقعد به من خرافة وهذيان .

ومازالت الحملة على الاسلام والمسلمين قائمة الى يومنا هذا وان حلت الصهيونية والبروتستانية محل الكاثوليكية وان لم يكن لها جميعا اثر في تحويل المسلمين عن عقيدتهم فالاسلام عقدية اذا نفذت الى عقل المرء ووجدانه لا يتحول عنها ابدا الا انها غلفت عقولهم وقد يكون ذلك بسبب ماترددو فيه من جهل بشىء من الابهام فأخذتهم الحيرة فيما يكون او لا يكون وان بدت في ظاهرها اداة سياسية لحماية المد الاستعمارى الجديد الا انها تخفى في استارها عداء مريرا للاسلام والمسلمين .

وعلينا ان نواجه التحدى بتحد أكبر فلا نكتفى بتمجيد ماضينا يتلى علينا من غيرنا او الحملة على من يكيد لنا او يعرض لديننا بسوء او نلقى بجهدنا كله في محاربة الفرق الضالة وليست الا تكرارا لما قبلها - كما قلنا - او الحملة على منظمات دولية تفتح ابوابها للجميع ولها رسالتها الاجتماعية والثقافية بعيدا عن السياسة كأندية الليونز والروتارى بقصد ابعادنا عنها والانفراد بها لمن يعملون على اقصائنا عنها كما أن الحملة على المستشرقين في بلادنا وان كان القصد منها التحذير الا انها تتضمن نشر افكارهم في بلادنا بدلا من التصدى لهم في بلادهم وتفنيد افكارهم حيث ينشرونها في بلادهم ولا تساوى الحملة عليها التنويه بها فقد برهن الاسلام على صمود وتعلق اصحابه به بما لا يصرفهم عنه وقد فشلت معهم كل حملات التبشير ولم تكن تزيدهم غير الحماس لدينهم - رغم ما بذلوه من جهد وما يقدمون من خدمات وهو ما أشار اليه سير ولفردبلنت فى كتابه « مستقبل الاسلام فى افريقيا .

فى اشارته الى الفارق بين سلوك التاجر او الدرويش المسلم في مؤاخاته للافريقيين ومعاملتهم على حد سواء لا فرق بينه وبينهم بينما يقدم لهم المبشر المسيحى كل ما ينشدونه من خدمات وهبات ثم لا يعاشرهم ولا يختلط بهم ثم يقول : ولن يلبث الاسلام ان يكتسح افريقيا .

وقد عرضت لكل هذا في اجتماعات ـ لجنة الحضارة بالمجلس الاعلى للشئون الاسلامية وتضم صفوة من المفكرين في مصر ـ وكانوا قد شغلوا بالحملة على البهائية وقد حفلت بها الصحف في حينها وعارضت هذا الاهتمام البالغ الذى يصرفنا عن الدعوة الى الاسلام ليكون لنا دورنا في اكتمالها وثار البعض قائلين ومستنكرين الم تكتمل الدعوة ؟ وقلت في هدوء : نعم لم تكتمل الدعوة الى الاسلام ولن تكتمل حتى تعم دعوته العالم أجمع ليصبح الاسلام دين العالمين وهناك فرق بين كمال الدين والدعوة الى الدين وقد كمل دين الاسلام وكملت عقيدته في كل ما يمس البشرية من قيم وتعاليم دنيوية وروحية ـ مادية ومعنوية وختمت به رسالات السماء ومر نيف واربعة عشر قرنا على ختام الرسالة - وفي قوله تعالى تقرير ذلك :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا »

وتوج بها عليه الصلاة والسلام خطبته في حجة الوداع اما الدعوة الى الاسلام فانها لا تكتمل ما لم يعم الاسلام الأرض وتقوم الدولة الاسلامية التى تتوحد في ظلها شعوب الأرض جميعا في أمة واحدة « هى امة الاسلام كما راح ينشدها ـ ارنولد توينبى ـ دون أن يصل الى جوهرها في الاسلام وان اشار الى ان التشيع الدينى يوشك ان يستسلم لعالمية سمحة وأن الانكباب على دراسة الشئون الانسانية يفسح المكان تدريجيا لنظرة واعية شاملة للظروف العالمية وبدلا من تلك الألحن التى تسيطر على القرن العشرين يبزغ فجر جديد للوحدة العالمية في القرن الحادى والعشرين (١) وهو ما عرض له البرت شفيتسر في « فلسفة الحضارة قبل أن يعرض له توينبى بنصف قرن وقد أخذ يبدى اهتماما بتعاليم الاسلام والحضارة الاسلامية واتخذ جانب الفلسطينيين ضد الصهيونية العالمية وزار مصر وأخذ يطوف بالاقطار الاسلامية في الشرقين الاقصى والأوسط حتى وافته المنية عام ١٩٧٥

وهناك اتجاه بارز اليوم في اوربا وأمريكا لدراسة الاسلام لدى الكثيرين من شباب الدارسين وعلى الأزهر وغيره من الجامعات الاسلامية العريقة والناشئة في البلاد العربية والاسلامية أن تتبنى هذا الاتجاه وترعاه وتخصص المنح الدراسية للراغبين في هذه الدراسة وأخص الجامعات العربية بالذات قديمها وحديثها حتى يتسنى للدارس الالمام باللغة العربية وهى قوام دراسة القرآن، وفهمه وعلوم الشريعة دراسة واعية فان الجهل باللغة العربية لا يمكنهم من استيعاب معانى القرآن فالقرآن ـ كما يقول العقاد (٢) « هو الذى جعل من العقيدة قوة غالبة وجعل من أمة الاسلام على مدار العصور قوة صامدة » .

وكان انتشار اللغة العربية وبقاؤها حتى غدت أقدم لغة حية الان بفضل القرآن والقرآن هو الذى أقام من العرب أمة واحدة وهو الذى نشر الحروف العربية التى تكتب بها اللغة الأردية في باكستان والفارسية في ايران والتركية الى عهد قريب وقد عمت اللغة العربية

١ ـ كينبث و . توسون : المصدر السابق ، ص ٣٥٤

٢ ـ الاسلام دعوة عالمية : ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩ كتاب الهلال العدد ٢٣٧

بلاد فارس امدا طويلا وبرز فيها العديد من شعراء فارس وكتابهم ممن ازدان بكتاباتهم الفكر والأدب العربي وكان حريا بها أن تبقى وتنتشر في غيرها لولا ما كان من شعوبية الدولة العربية مما نأى بمسلمى فارس وبلاد ما وراء النهر وارتدادهم الى عنصريتهم وان ظلوا على اسلامهم مؤمنين وذائدين عن ذماره .

التحدى والاستجابة

ومع هذا اللقاء العسير بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى وبين الحضارتين الاسلامية والمسيحية كان هناك من مفكرى الغرب الاوربى والامريكى من انصفوا الاسلام وشهدوا لرسوله العظيم وأولهم توماس كارليل (١٧٩٥ - ١٨٨١) في كتابه - الابطال - وقد أنكر ما ذهب اليه بعض الغربيين من أن - محمد - عول على السيف لحمل الناس على الايمان بدعوته وعده « سخفا لا يجوز فمن غير المعقول أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل الناس ويدينوا بدعوته فاذا امن بها القادرون على الحرب ومواجهة الاعداء فقدآمنوابها طائعين مصدقين وتعرضوا للعدوان قبل أن يقدروا على رده ».

وكان جيمس هنرى برستد (١٨٦٧ - ١٩٣٥) طليعة هؤلاء المنصفين في القرن العشرين حين رد الحضارة الحديثة الى اصولها الشرقية حيث ازدهت أول ما ازهدت على ضفاف النيل في كتابه « فجر الضمير » ونقله الى اللغة العربية عالم الاثار المصرى المرحوم احمد فخرى . ومـن معاصريه - سير توماس ارنولد - (١٨٦٤ - ١٩٣٠) وما من كتاب في انتشار الدعوة الاسلامية يعدل كتابه - الدعوة الى الاسلام - وقد ترجم الى العربية باشراف المؤرخ الاسلامى المرحوم الدكتور حسن ابراهيم حسن ، واثرى ارنولد أيضا المكتبة بغيره من الكتابات المنصفة الرصينة .

ومن اضرابه في هذا الميدان - رينولد الينى نيكلسون - (١٨٦٨ - ١٩٤٥)بالعديدمن مؤلفاته في التاريخ الاسلامى والتصوف والآداب العربية والفارسية . وممن اشادوا بالحضارة العربية عالم الاجتماع الفرنسى - جوستاف لوبون - (١٨٤١ - ١٩٣١) في كتابه حضارة العرب وترجم بدوره الى اللغة العربية .

وكان أقربهم مودة وألفة الى الاسلام والمسلمين - دكتور بايرود دوج - المدير الأسبق للجامعة الأمريكية في بيروت والمستشار الثقافى لأمريكا في الشرق قبل أن يتقاعد اوائل الستينات وكان الرجل صديقا لا يزور مصر الا ويقوم بزيارتى ولا يصدر كتابا الا أهدانيه وكان اخر ما كتبه عن تاريخ الأزهر وأثره الحضارى والعلمى ، ويرى من التوافق بين الإسلام والعلم ، والإسلام والمعرفة ، والإسلام والعقل ، والإسلام والفكر والإسلام والعمل ما يجعـل منه ديانـة العصر وكان يقول دائما ـ العلم شجـرة والعمل ثمرتها « مستشهدا فى ذلك بمقولة - ابى حامد الغزالى « أيها الولد ، العمل بلا علم جنون والعمل بلا علم لا يكون .. فالعلم شجرة والعمل ثمرتها وتلك عبارة جاءت على لسان رجل من أحكم الحكماء الذين عاشوا على ارضنا هذه أبى حامد الغزالى » .

وكان عاشقا للغزالى ولا ينطق اسمه الا بلغته « ابى حامد الغزالى » بصوت كأنه النشيد وقد دعى لالقاء خطاب التخرج للجامعة الأمريكية يوم الخميس ١١ يونيه سنة ١٩٥٩ وكنت من مستمعيه وقد بدأه بتلك العبارة المأثورة من « أقوال أبى حامد الغزالى هذه العبارة ..

الخ وكانت صداقة امتدت منذ ذلك الحين حتى وفاته عام ١٩٧٤ في مسقط راسه برنستون بامريكا الضاحية التى عاش فيها الرئيس الأمريكى «ودرو ويلسون» ومازال بيته بلونه الاسود قائما يراه كل زائر للضاحية التى تضم جامعة برنستون أكثر الجامعات الامريكية حفاوة بالدراسات الاسلامية .

ويقول في خطابه هذا : « وليس أجدر بالرثاء من خريج الجامعة لا يكاد يخرج من امتحانه النهائى حتى يغلق كتبه وينصرف الى جمع المال وغشيان السينما والاستماع الى الراديو موجها ذكاءه فى هذا السبيل وقد صدقت الآية القرآنية من سورة النجم آية « ٣٨ » وأن ليس للانسان الا ما سعى » .

« ويجدر بنا أن نزيد على ما قاله الغزالى مثلا مأثورا من أمثال كونفشيوس الا وهو ـ العمل بلا علم باطل وأن أكبر علماء هذا العصر أشد الناس اجلالا لخفايا هذا الكون الروحية لأنهم لا يقصرون جهودهم على طلب المعرفة وانما يحاولون على ذلك ادراك ما تنطوى عليه دقائق تلك المعرفة من فلسفة فان اختبارات الحياة لا تزال أمامكم .

قال المسيح من ثمارهم تعرفونهم ـ ومن ثم يصبح فوزكم في الحياة .وقفا على ما تنتجونه من ثمار أعنى ما تؤدونه من خدمات وستدركون مدى الحاجة الى هذه الخدمات ففى الوقت الذى كنتم تجتازون مرحلة الدراسة الثانوية والجامعية كانت بلادكم تعمل جاهدة في سبيل النجاح بعد أن فازت اخر الأمر باستقلالها على أن هذا ليس بالأمر اليسير .
فاذا علمنا أن هناك مليون لاجىء فلسطينى
وأن زيادة السكان في اطراد سريع

وان حركة النهضة الحديثة العظيمة تتحدى العقائد القديمة وتقلب الأوضاع الاجتماعية لم يسعنا الا أن ندرك حاجة البلاد الملحة الى فئة مثقفة من نساء ورجال لا يهمهم نفع أنفسهم قدر ما يهمهم نفع من حولهم من ذوى الحاجة ولا سبيل الى حل مشاكل الشرق الأوسط الا اذا تضافر خريجو الجامعات في غير اثره ولا انانية على مكافحة الجهل والخرافة والفقر وانى لأدعو لكم بالمزيد من المعرفة المزدهرة بأطيب الثمار طوال سنى حياتكم في اداء واجبكم نحو الله والناس »

وكثيرا ما كان يسهب في ايراد الأمثلة من تفسيرات الشيخ محمد عبده على التوافق بين الاسلام والعلم الحديث ولكنه يقول : « ان الناشئة تنبذ فرائض دينها ويلوح لى أن هوليود قد أثرت في الجيل الحاضر من المسلمين أكثر من تأثير مدارسهم الدينية . » .

ويقول في بعض ما كتب منكرا ان تحل فكرة القومية « ذات الصبغة المادية في الفكر الاسلامى والمجتمع محل الصورة الدينية للوحدة الاسلامية مما يؤدى بالطبع الى مناهضة فكرة الوحدة الاسلامية أو الخلافة وأن الاسلام اخوة تربط بين المسلمين في نظام شامل ..

وهكذا أخذ الفكر الاوربى يقترب رويدا من الفكر الاسلامى ولعل اقربهم الى الواقع المعاصر « ول ديوارنت » في موسوعته الرائعة عن قصة الحضارة ـ وقد قامت جامعة الدول العربية بنقلها الى العربية ـ منوها برسالة نبى الاسلام العظيم وتعاليم الاسلام في جزء من أجزائها أفرده لذلك ويبرز كيف جمعت تعاليم الاسلام بين الدين والدنيا في رباط من التوافق والانساق -اذ أن « القانون والاخلاق في القرآن شىء واحد فالسلوك الدينى يتضمن

السلوك الدنيوى والقران يشمل قواعد للآداب وصحة الجسم والزواج والطلاق ومعاملة الابناء والعبيد والحرب والسلم » وللقرآن ـ كما يقول ـ « أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الاخلاقى والثقافى اذ أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعى والوحدة الاجتماعية وحضهم على اتباع القواعد الصحية وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ونفوسهم من الظلم والقسوة وحسن أحوال الأرقاء وبعث في نفوس الاذلاء الكرامة والعزة وطبع المسلمين اذا استثنينا ما كان يقترفه بعض الخلفاء المتأخرين ـ على الاعتدال والبعد عن الشهوات الى حد لم يكن له مثيل في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض وشرح القران الدين وحدده تحديدا لا يجد المسيحى ولا اليهودى الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله فالأخلاق الاسلامية هى التى فتحت القلوب المغلقة للاسلام فلم تمض بضع سنوات على بعث الدعوة حتى ارتفعت راية الاسلام في ارجاء العالم القديم وأوقع ابناء البادية الهزيمة بجيوش كسرى وقيصر .

وبدت النزعة الى التعرف على الاسلام ودراسة تعاليمه في السنوات العشر الاخيرة لدى الاوربيين والآمريكيين حتى من الغمار وعامة الناس امام النزعة العامة للتحرر من الخواء الروحى الذى عصف بالناس في السنوات الاخيرة وحاجتهم الى الايمان بتعاليم تتفق ومسار الحياة في العالم الحاضر وفلسفة الحضارة المرجوة فلا يرى فيها نقيضا لما جاء به الدين أو بلفظ ادق ـ لما جاء به رجال الدين فاذا كان اتباع الاديان السماوية الثلاثة يؤمنون بوجود إله قادر فان ما يشكل على اتباعها مدى اتفاق العقيدة مع الواقع القائم لحضارة العصر وهى حضارة يحكمها العقل ويسيرها العلم « فالدين ـ كما يرى البرت اينشتين ـ لا يناقض العلم والعلاقة بينهما متبادلة لأن كل منهما يعتمد على الاخر في بعض نواحيه فالدين يحدد غايته وهدفه ولكنه يأخذ عن العلم الوسائل التى يصل بها غايته وهدفه » ويقول : « لا استطيع ان اتصور عالما حقا بغير هذا الايمان العميق وهو ما يمكن أن يعبر عنه بأن (العلم بغير دين أعرج والدين بغير علم أعمى) .

ولم تكن الثورة على الدين في الغرب انكارا للايمان باله قادر وان لم تعد للتعاليم اللاهوتية قداستها الأولى وهو ما يعبر عنه ـ ديديرو ـ حين راح يفند رأى من يربط سواد الناس بأفكار تقليدية قديمة فيقول :

« أية أفكار تقليدية قديمة وما جدواها وما جدوى التقيد بها اذا امن الانسان بالله وانه حق وعرف ما هو الشر وما هو الخير في عرف الاخلاق وآمن بالخلود والثواب والعقاب في العالم الآخر ؟

ولنتصور أنه الم بكل الاسرار الكنسية في القربان المقدس والثالوث واتحاد الاقانيم والقدر والتجسد وما سوى ذلك فهى ترى المامه بها يجعل منه انسانا أفضل ؟

وهو ما يعبر عنه برتراندرسل بصورة أو أخرى اذ يرى : « أن الدين قد بعث لخير الانسان فما هو بقيد عليه وما يجب أن يكون وقارا عارضا او حرمات خرافية او داعيا الى الزهادة والحزن ـ وقد دعا الى تحرير المسيحية من طقوسها واسرارها ومن سيطرة رجال الكهنوت المحترفين وان يقوم به رجال لهم أعمالهم الأخرى يدفعهم الحماس دون الأجر » .

وقد كان الاحتراف الدينى في الأديان عامة السماوية وغير السماوية علة ما نالها من هذيان وما عصف بها من خرافات لا يبغى كهانها وشيوخها غير مصالحهم المادية

ونفوذهم السياسى ومكانتهم في الدولة ولا يرى ما ذهبوا اليه ـ حتى وقتنا هذا ـ من ضعف الايمـان الدينـى مصـدرا لشـرور العصـر ففـى العالـم اليـوم مـن الايمـان مـا يفـوق مـا كـان منـذ عهـد بعيـد وأن مـا يلـم بنـا من أخطـار يكـاد يكـون بعيـدا تماما عما يدين به الناس من معتقدات فاذا كان هناك ما يرى أن الايمان بالمسيحية يحول دون الحروب فان هذا أمر لاقدرة لى على فهمه ابدا ومثل هؤلاء الناس ـ كما يبدو ـ عاجزون تماما عن أن يتعلموا شيئا من التاريخ فالدولة الرومانية أصبحت مسيحية في عهدقسطنطين وظلت منذ ذلك الحين في حالة حرب حتى اختفت من الوجود بل ان حروبا أكثر وحشية وقعت لخلافات نشبت بين العديد من الطوائف المسيحية ولا استطيع أن أعى حربا مقدسة واحدة حققت خيرا من أى نوع كان وفي المعارك الأولى بين الاسلام والمسيحية كان المسيحيون هم المتعصبون والمسلمون هم المنتصرون وخاصة ما تناول منها القرون الأولى وقد حفلت الدعاية المسيحية بشتى الأقاويل عن التعصب الاسلامى وكانت جميعا كاذبة فقد تعلم كل مسيحى قصة الخليفة الذى دمر مكتبة الاسكندرية مع انها دمرت أكثر من مرة وكان أول من دمرها يوليوس قيصر وكانت اخر مرة وجدت فيها المكتبة قبل ظهور رسول الاسلام .

وكان المسلمون أكثر تسامحا من المسيحيين مع من يسمونهم ـ أهل الكتاب ـ ويكتفون منهم بدفع الجزية ولسعة أفقهم كانوا يقابلون بالترحاب وهو ما يسر لهم فتوحاتهم على عكس المسيحيين الذين لم يضطهدوا الوثنيين فحسب بل اضطهدوا بعضهم بعضا فاذا انتقلنا الى العصور التالية نرى أن أسبانيا دمرها تعصبها ضد اليهود والمسلمين على السواء كما نرى فرنسا بلغت أدنى درجات الفقر وحلت بها الكوارث بسبب اضطهادهاللهيجونوت (١)

وكان التعصب دائما من جانب رجال الدين ومازالوا هم مصدره حتى يومنا هذا وان وجد فيهم رجال السياسة ما يؤيد مصالحهم أو مصلحة الدولة التى يحكمونها فالبعوث التبشيرية لا يقوم بها غير رجال الدين والجماعات الدينية في اوربا وفي امريكا وقد يكون من مصلحة الدولة في مستعمرتها ان تفرق المواطنين شيعا دينية متناحرة حتى لا تكون لهم القدرة على التصدى لاستعمارها او تغرس فيهم قيما ثقافية وفلسفية وفكرية تنسيهم ثقافتهم وفلسفة وجودهم وتراثهم الفكرى وتبقيهم على حالهم من التخلف الحضارى والثقافى حتى لا تتاح لهم فرصة للتقدم أو للبقاء كما كانت سياسة أمريكا مع الهنود الحمر ، وما كان من اضطهادهم للزنوج في بلادهم وأن وضعوا مصلحة الدولة فوق أى اعتبار اخر فالمثل والقيم والدين تتلاشى جميعا أمام الصالح العام للدولة ـ وهو ما أشار اليه ـ ابو الأعلى المودودى ـ بقوله : (٢)

« ان الاستعباد الذى ابتلينا به في القرن الماضى انما كان نتيجة لانحطاطنا الدينى والخلقى والفكرى الذى كنا مترددين فيه من قرون عديدة ولا يزال الدين الاسلامى في كل عصر في حاجة الى رجال أقوياء يأتون ويسددون خطى الزمان ويوجهون مسيره الى الاسلام والتجديد في حقيقته هو تنقية الاسلام من كل جزء من أجزاء الجاهلية ثم العمل على احيائه خالصا محضا . »

---

١ ـ براتراند رسل وترجمة عبد الكريم احمد : المجتمع البشرى في الاخلاق والسياسة الفصل السابع
٢ ـ موجز تجديد الاسلام واحيائه : ص ٥٢

ولكن كيف يتسنى لنا ذلك ومؤامرة الغرب الذى تتزعمه أمريكا وتمسك بزمامه في الوقت الحاضر والتى يعبر عنها في صراحة قاسية القسيس الأمريكى - جوزيا سترونج - في كتابه « بلدنا : مستقبله المحتمل وأزمته الحاضرة » (١) بقوله

« ان بلدنا كان اختبارا قاسيا للتفوق الانجلو أمريكى في العالم - فشعب الانجلو ساكسون - كما كتب - يتكاثر أكثر من أى شعب أوربى اخر ففى قبضته الآن ثلث الأرض وسيغدو له الكثير منها

« في نموه واتساعه ، ففى عام ١٩٨٠ يصل تعداده الى ما لا يقل عن سبعمائة وثلاثة عشر مليونا وطالما كانت أمريكا الشمالية أكبر بكثير من الجزيرة الانجليزية فانها ستغدو منتجع الانجلوساكسون ومملكته » ثم يتساءل : « أهناك شك في أن هذا العنصر ما لم يدمره التدخين والخمر سيقضى على كثير من الشعوب المتهاوية ويستوعب الاخرين ويصوغ البقية الباقية على شاكلته ليصبح الجميع حقا وبكل معنى بشرا انجلو ساكسون »

ويرى سترونج :

« أن التوسع الأمريكى ليس قدر أمة قررت مصيرها ولكنه ارادة العلى القدير في وصيته - تجهزوا أيها الناس لمشيئة الرب » .

وقد لقى هذا الكتاب انتشارا واسعا حال صدوره وبيع منه مائة وسبعون الف نسخة وترجم الى لغات عديدة وكانت كتابته - كما يقرر - روبرت هـ فرل ، صدى قوى لهذا الصوت الذى غمر الكليات الامريكية وأصبح على لسان الآلاف المؤلفة من طلبة الجامعات الذين انساحوا في العالم مبشرين حاملين رسالة - جون د . موت - زعيم جمعيات الشبان المسيحيين عاملين على نشر المذهب في العالم خلال هذا الجيل .

ومن سخرية القدر أن يعصف بالمجتمع الامريكى ما كان يخشاه وليت الأمر قد قصر على التدخين والخمر فقد اجتاحه مرض (الايدز) واثار فيه من الفزع ما لم يثره عارض أخر الى جانب الشذوذ الجنسى والمخدرات على الاخلاق وفضائل الدين

وكان المتحدى في تعاليم الاسلام مما راح يبشر بها المنصفون من المفكرين في اوربا وأمريكا ممن أشرنا اليهم وكانت الاستجابة ما نراه من سواد الناس في دراستهم للاسلام فاذا اعتنقوه كانوا أشد حفاوة وأكثر ادراكا لتعاليمه من المسلمين أنفسهم .

---

١ - انظر : امريكا والعالم للمؤلف ص ١١٢

الباب السابع

حضارة عالمية

غدت العالمية سمة على حضارة العصر ولم تعد بعد حضارة اقليمية تنتمى الى أقليم بعينه كحضارة مصر القديمة والحضارة الأغريقية وحضارة الصين الى غير ذلك من الحضارات التاريخية المعروفة كما عرض لها مؤرخو الحضارات .

وقد أصبح العالم بعد أن غذته وسائل الاعلام الحديثة - كما يقول مارشال داكلوهان - قرية صغيرة وكان أعظم ما قدمته هو امتداد المعرفة وشيوعها وأن حفلت بالكم والتنوع الا أن التماثل هو الصفة الغالبة عليها فقد تقاربت الثقافات العامة الى حد بعيد وان بقى لكل ثقافة محلية اطارها الخاص مغلفا بما تغذيها به أجهزة الاعلام فان بقى لهذا الاطار الخاص زاده من القوة والاستمرار الا أنه لا يلبث أن يسلم للتيار الغالب في ثقافة العصر تغذيه تكنولوجيا الاعلام بقوى جديدة تشيع التماثل بين الوان البشر الا أن التماثل الذى لا يسلم من افة القديم وتأثير الماضى فاذا بدت صورته في الوان الرداء - كالجينز الامريكى - مثلا - فان ميراث الماضى ماثلا على الأقل في الانفعالات النفسية والسلوك الاجتماعى الخاص وبعض القيم الباقية يبقى قائما سمة على نوع من التباين الثقافى بين شعب وآخر .

ومع ما للماضى من مقوماته الثقافية الباقية فان ثورة الاعلام المعاصر قد أخذت تشيع بين الناس قوى جديدة تعلى من شأن الانسان في ذاته وفي علاقاته بالآخرين وتطيح بالعنصرية والتعصب القومى وتشيع نظما اقتصادية وسياسية جديدة وتبتدع قواما اجتماعيا لعالم كبير يتقارب في تفكيره ومن ثم في وعيه الثقافى ما يؤدى في النهاية الى نزعة عالمية - يراها ارنولد توينبى - كما قلنا - بادرة لقيام حكومة عالمية وديانة واحدة تتآلف مع روح العصر ونزعته العقلية السائدة .

إلا أن هذه الحضارة العالمية والسائدة والغالبة - كما عرفنا - حضارة اوربية سدة ولحمة لها فلسفتها ولها اطارها الفكرى الخالص وتعاليمها التى امتدت ونمت وتطورت معها منذ القرن الخامس عشر وغدت ولها ادراكها للطبيعة البشرية ولطبيعة العالم من حولها على اتساعه وامتداده بما لم يتسن لحضارة سابقة في اتساعها ونموها الدائب المستمر حتى استقامت على فلسفتها القائمة منذ القرن الثامن عشر وان جاءت الحرب العالمية الثانية وقلبت الأوضاع الدولية رأسا على عقب وأصبح العالم قسمة بين عالمين لكل منهما فلسفته السياسية والاقتصادية والاجتماعية الخاصة وان اصبح العالم بين هاتين القوتين من الناحيتين السياسية والاقتصادية عوالم عديدة ما بين عالم الفقراء وعالم الأغنياء ولعالم الأغنياء مستوياته من الغنى والرفاه ولعالم الفقراء مستوياته، من العوز والحاجة حتى عصفت المجاعات ببعضها مما لم يحدث لها من قبل في ظل النظام الاستعمارى السابق .

ولم تكن فلسفة الغرب الحضارية وليدة يوم او اخر ولم تكن ظاهرة بسيطة او مجردة بل غذتها طوال القرن الأخير مذاهب فلسفية وفكرية عديدة تناولت الطبيعة البشرية

والانسان في ذاته وغدت لها الغلبة شعوريا او لا شعوريا وطوت حضارة الانسان وثقافته في كل جانب من جنبات الارض وان بدت بين مكان او اخر معالم متباينة الا انها لا تذكر حيالها . فهذا القبيل من الناس في الغرب او في الشرق مهما كان لهم من الفكر ما يخالف هذا الاتجاه الحضارى العام او لايدين باتجاهاته في المسائل العامة سياسية كانت ام اجتماعية ام ثقافية الا انهم يخضعون جميعا لاتجاهاتها الغالبة فاذا كان هناك من يتبرم بها أو يقاومها في بعض الاقطار فانهم يرون أنفسهم فى النهاية خاضعين لها ومتأثرين بها حتى فيما تدين به من افكار وأيديولوجيات لا يجدون السبيل الى الفكاك منها .

وعلى قدر ما تعددت الاتجاهات الفلسفية لحضارة العصر بين المفكرين الا انها جميعا تخضع لاتجاه واحد غالب هو انكارها لكل ما يخالف العقل وغدت الحقائق الثابتة والظواهر الطبيعية محور البحث والتساؤل ومجال التصورات الفلسفية ولم يعد ثمة ايمان بمقررات الدين او ايمان بالبعث والنشور وفقد الاتجا الروحى كل ما كان له من كيان ولكن بقى الاحساس الغالب بقوة عالية خالقة ومسيطرة قائما في الاحساس العام مهما أدى فى النهاية الى تلك النزعة التى راح ينشدها لورد لوتشيان وبرناردشو ولم ينكرها البرت اينشتين « فان العلم - كما يقول - يتناول ما هو كائن لا ما ينبغى أن يكون فلا تدخل القيم في نطاقه كما لا يدخل البحث في الحقائق وما بينها من علاقات في نطاق الدين » .

وقد يبدو التوفيق بين ما هو مادى وما هو معنوى يسيرا الا أن التناقض بينهما لا يسفر عن نفسه في حياة المجتمع فمازالت المساجد والكنائس والمعابد والبيع عامرة بمن يؤمونها ومازالت القيم الدينية وأن تحررت من العقيدة قائمة فى نفوس الناس وانما يسفر عن نفسه في التناقض القابع في نفس الانسان وفي ادراكه لذاته ومكانه في هذا الكون الهائل فحيث تغيم الحقيقة في عقله وفي ادراكه لوجوده تتمزق روحه ويعجم عليه التوفيق بين المادى والروحى مما يقوده الى الضلال ويدفع به الى الهاوية حين يرى ذاته محورا لآماله وطموحه فتعصف به الأنانية ويمزقه الطمع(١) .

إلا أنه لا يستطيع أن يتحرر من هذا الاحساس الطاغى بقوة كبرى مهيمنة هى مصدر وجوده وقوامه في عالم لا يستطيع أن يدرك ما ينطوى عليه من اسرار تعجم عليه وان كان لأى باحث من القدرة على التأمل ما يستطيع أن يدرك ما يعجم على غيره كما نراه فيما كشف عنه - اروين شرودنجر - في قوانين المادة من اختلاف الذرات في الطبيعة عنها في الخلية الحية ومن ثبات صورتها واختلاف ذاتيتها فبينما تبدو صورة الذرة ثابتة في كل حالة من الحالات اذ بذاتيتها تتغير في كل حالة عن الأخرى وادرك من خلالها ان الوعى ظاهرة مفردة لا تتماثل مع غيرها وأن الشخصية لا تتكرر وانها قوام مستقل بذاته وذلك في مجال المقارنة بين قوانين المادة وقوانين الفكر وأدى هذا التقارب بين قوانين المادة وعالم الفكر الى عبور الحاجز التقليدى بين ما هو طبيعى وما هو من خوارق الطبيعية

وإذا كان لنا ان ندرك من خلال المعرفة العلمية أن هذه الشمس التى تنتمى اليها ارضنا لا تزيد على ذرة في محيط هذا الكون الهائل وان مجموعتنا الشمسية ليست غير واحدة من بلايين المجموعات الشمسية التى تسبح في نهر المجرة وأن هذه المجرة واحدة من بلايين

١ - انظر الاسلام وروح العصر للمؤلف: سلسلة كتابك رقم ٩٠ دار المعارف

المجرات في هذا الكون الفسيح الذى يغيب عنا مداه فاذا عرفنا ان هذه الهبة الدقيقة التى لا تدركها العين من تراب أرضنا تكشف لرجل العلم المتخصص عن عوالم لا تقل إثارة أو اعجازا عما تثيره شمسنا المشرقة .

أفيعجم علينا بعد ذلك ان ندرك من جلال هذا الكون وسعته وامتداده واعجازه الذى نراه في نظرتنا الى سمائه عظمة خالقه ووحدانيته وتفرده فهو - الفرد الصمد (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) .

وقد ادى عبور الحاجز التقليدى بين ما هو طبيعى وما هو من خوارق الطبيعة الى تفسير ما حفلت بين الاديان السماوية من معجزات - يفسرها المفكر الهندى المعاصر - هيمايون كبير - « بأنها ظاهرة جزئية تؤدى مع غيرها الى تكوين القانون الكلى الذى يحكم طبيعة الأشياء وهو القانون الثابت الذى يجرى على ما نعرف وما نعرف » (١) فالقانون الكلى الذى يتكون من استقرائنا للجزئيات والعلل القانونية التى تبدو في أعمال الطبيعة لا ينقض العلة الأولى التى تنتهى اليها جميع العلل .

ولهذا يرى الدكتور ماثيو - مطران كنيسة القديس بولس في كتابه -مقالات في البناء - ان بعث المسيح لا يعد على هذا الاساس من خوارق الطبيعة او مناقضا لها » ولا نرى بدورنا في هذا العالم الفسيح ولا في وجودنا او وجود تلك المخلوقات العديدة على سطح الأرض الا صورا ضئيلة لجلال الخالق وعظمة خلقه ما نراه وما غاب عنا لا يقاس عليها ادراك ما بعد الحياة من بعث ونشور - فما نحن في حياتنا ومماتنا وبعثنا الا ذرات ضئيلة من قدرة خالق اعظم لا تدركه الابصار وهو جل جلاله على كل شىء قدير .
وهو ما اقترب بالانسان مرة أخرى من الدين ولكن على هدى العقل والبصيرة .

المسلمون وحضارة العصر

واذا قلت المسلمون ولم أقل الإسلام فلان الامر جد مختلف فإن اكثر مفكرى الغرب - كما قلنا- قد نوهوا بالتعاليم الإسلامية وأكبروها بل وكانوا اقرب الى روح الاسلام منهم الى المسيحية فان لم يعلنوا اسلامهم فلان الدين قد غدا لديهم مسالة شخصية ولئن فقد الدين بهذا جانبه الاجتماعى فقد ظفر بالنظرة الواعية المتحررة التى لا تجد للانسان غناء عن الدين ولكنها تركت له عقيدته يصوغها كيفما يشاء وايمانه يكفيه وفق ما يريد بعد أن فقدت المسيحية الغربية قدرتها على مواجهة أزمة العصر فانه مما لا شك فيه ان العالم يمر بأزمة طاحنة لم تعد النظرة اليها كما كانت نظرة مفكرى القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين بل غدت نظرة جديدة بعد التغير الهائل الذى شهده العالم في اعقاب الحرب العالمية الثانية وهى نظرة مازالت غائمة بتاثير الافكار القديمة للقرن التاسع عشر والتى أصابها البلى بعد الحرب أو خلال السنوات الثلاثين التى تلتها فلم تعد القومية ولا الحماس القومى وما يجره من تعصب عنصرى واستعلاء قومى وما أديا اليه من مساوىء الاستعمار هى نغمة العصر المحببة ولم تعد الدولة ولا التشريع ولا النظام نفسه من القداسة ما يحمل المرء على الطاعة العمياء وغدا الانسان وتوقيره والاعلاء من شأن الحياة بديلا

---

١ - هيمايون كبير وترجمة عثمان نويه : العلم والديمقراطية والاسلام : ف ١ وايضا : الاسلام وروح العصر للمؤلف . المصدر السابق

لاهدار الحياة في حروب قومية او تعصب عنصرى او استعمار مدمر وغدا الانسان وطموحه وتحقيق ذاتيته وتحريره من كل وقر او استعباد او عوز مطلبا للمجموع في علاقته بالدولة فالتشريع والنظام لخدمة الانسان واعلام ذاته وليس اداة لتحقيق ارادة الدولة على حساب المجموع .

الا أن النظام القديم ما زال باقيا وأن اخذ يتسم بتلك القيم الجديدة للانسان (١) فالديمقراطية وهى القيمة الوحيدة الباقية من تراث الماضى قد أخذت أشكالا متعددة تتسم جميعا بالقيم الجديدة للإنسان ويرى كل منها أنه الوحيد القادر على توفير الحياة واعلاء كرامة الانسان ولكنها مازالت بتأثير النظام القديم تحمل الناس على التعصب الذى يهدد الفكر ويحمل الشعوب على الشحناء ويكاد يعصف بحضارة العصر هذه الحضارة التى غدت ملكا للغرب المسيحى وصاغها وفقا لتعاليمه وفلسفته فاذا كانت الفرقة قد ناشته وعصفت به الحروب والصراعات الدينية التى بدت نأمتها منذ خرج مارتن لوثر على تعاليم الكاثوليكية وذهب الغرب فرقا دينية متناحرة .

وكان الاستعمار الأوربى للعالم الاسلامى ذا شقين : استعمار عسكرى وسياسى من جانب وفكرى وثقافى من جانب آخر وشغل العالم الاسلامى بالجانب السياسى اكثر مما شغل بالجانب الفكرى والثقافى بينما ذهب الاستعمار الغربى بعد أن دانت له شعوب العالم الاسلامى يوطد سلطانه الفكرى والفلسفى عليها وأخذت بألبابها التقدم العلمى والمادى الذى حققه الغرب المستعمر وقد عمل على غرس الاحساس بالضالة والتخلف بين ابنائه حتى راحوا دون وعى او تفكير يتمسحون بالقيم والتقاليد الاوربية ويمارسونها ويوحى اليهم ان علة تأخرهم في دينهم الذى يقف حائلا بينهم وبين التقدم المنشود وكان الاستعمار الفكرى اشد وقرا من الاستعمار السياسى فأخذ يزرى برجال الدين وشيوخه ومعاهده العلمية فعصف ببعضهم مركب النقص دون التحدى الا ان الصحوة الاسلامية كانت أقوى من أن تعصف بها تلك النزعة الأوربية الطاغية .

ولا أدل على جلال الاسلام واصالته وقدرته على البقاء والاستمرار والتوافق مع روح العصر من أن اليقظة الاسلامية في العصر الحديث قد بدأت وهى تستوحى عاملين قائمين ومحسوسين وملموسين فعلا : اولهما الضعف والانهيار اللذين الما بالعالم الاسلامى وما تركه الانهيار في القوى الاسلامية من اثار مريرة في نفوس بعد الأذكياء من المسلمين حملتهم على العمل لاحياء تراث الاسلام وقواه الباهرة الماضية وثانيهما : ما كان للإسلام والمسلمين من قوة عارمة سادت في الماضى وكانت لها من التنوة والغلب والتفوق على غيرها ما دفع هؤلاء الأذكياء الى تقدير العوامل التى أدت الى انهيار المسلمين وتخلفهم عن ركب الحضارة ومن ثم السعى الى احياء مجد الاسلام القديم .

وكانت اليقظة الاسلامية الجديدة نوعا من رد الفعل لما حل بالعالم الاسلامى من تمزق وقيام أنظمة للحكم جردت المسلمين من حقوقهم المشروعة وغذتهم - كما قلنا - بثقافات ومذاهب فكرية غريبة على الاسلام والمسلمين للقضاء على ثقافتهم وتراثهم ولتحول بينهم وبين بعث جديد .

---

١ - الاسلام وروح العصر للمؤلف

وبدت حاجة الغرب الى تعاليم الاسلام بعد أن اورثته أنظمته الراسمالية والشيوعية الفشل والبوار والتمزق والعنصرية والصراعات الحادة التى توشك ان تودى بالحضارة الانسانية وتوردها موارد التهلكة وتقضى عليها بالفناء وقد رأت المسيحية الغربية في الاسلام وتعاليمه ردفا لها من طغيان الالحاد الشيوعي وماديته الجائرة فاثرت التقرب الى المسلمين والوقوف صفا واحدا أمام هذا الخطر الكاسح وكانت دعوة جماعة اصدقاء الشرق الأوسط بأمريكا التى فصلها كراندال الى هذا الوفاق ولم تتح لها الصهيونية العالمية والتسلل الشيوعى الى العالم العربى ان تمضى في خطتها الى تحقيق ما تنشده مما سبقت الاشارة اليه ٠

وآفة العقل الغربى أنه في اعتقاده بقدرة العقل الانسانى ظن أنه قد وصل بهذه القدرة الى اخضاع كل شيء وهو وهم باطل فالعقل الانسانى من القدرة حقا بما لا يقف عن حد الا انه لم يستوف كل طاقات قدرته النافذة ولن يستوفيها ما دامت ابعاد الصوت والضوء في كون لامتناه تقف بينه وبين ادراك اللامرئى واللا مسموع من هذا الكون الذى لا تدركه الأبصار ولا الأسماع ٠

وبهذا الاعتقاد نزع الغرب عن نفسه كل ما هو روحى وجعل من الوجود المادى أساسا لتفكيره ومن العلاقات التى تحكمه اساسا لسلوكه فأقام حياته على المنفعة في واقعها الاجتماعى والاقتصادى فكانت اساسا للاخلاق وأساسا للعلاقات الاقتصادية مما يجعل حضارته نقيض الحضارة الاسلامية التى توائم العلم والدين وتزاوج بين المادة والروح بما يدعو الانسان الى ادراك صلته بالوجود ومكانه منه ليكون العقل قوام ايمانه فاذا بلغ الايمان مبلغ اليقين العقلى فغذاه بالمثل السامية في الأخلاق والسلوك لتكون اساس حياته اتسق فكره مع بنائه الاجتماعى واعلاء الكرامة الانسانية وهما جوهر الحضارة الاسلامية وهو كل حضارة تدعو الى حسن ادراك صلة الإنسان بالوجود ومكانه منه (١)

الإسلام ومستقبل الحضارة

ولعل الأمر الذى يراود الإنسانية في التوفيق بين الدين وروح العصر بعد انحسار ظله عن العالم المعاصر وما ينشده العالم من وحدة تؤلف بين شعوبه في ظل حكومة عالمية وديانة واحدة سمحة رسم إطارها - ارنولد توينبى - وهاك فلسفتها - شفيتسر - ونوه بها غيره من فلاسفة العصر قد وضع قواعدها الاسلام منذ إلمبعث في تفصيل شامل غاضت معالمه منذ انحرف المسلمون عن شريعتهم مما نوه به داوسون كما أشرنا ووضع اطاره - برتراند رسل - بقوله : « على العالم أن يتعلم الادراك الاقتصادى السليم وعلى الأجناس المختلفة أن تعامل بعضها البعض كأنداد ويجب ان يعم التسامح فيما يتعلق بالاختلافات المذهبية وقد تعمل الميول الطبيعية على تحقيق هذه الاشياء اذا لم تقع حرب كبرى واذا أمكن في اخر الأيام قيام حكومة عالمية مستقرة فان الجنس البشرى قد يقبل على فترة من الرخاء والرفاه ليس لها في تاريخ الانسانية ما يضاهيها » (٢)

---

١ - الاسلام والسياسة للمؤلف - الطبعة الثانية ص ٢٩٤ دار المعارف انظر ايضا : الاسلام والدولة العصرية : ص ٨٧ سلسلة قضايا اسلامية هيئة الكتاب ١٩٨٧

٢ - امال جديدة في عالم متطور ترجمة عبد الكريم احمد ص ١٩٠

واول ما قامت عليه الدعوة الاسلامية - عالميتها - فقد جاءت للناس كافة لا فرق بين عربي وعجمي أو ابيض وأسود وهو ما دعاه - توماس ارنولد دعوى عموم الرسالة فارادة الله تشمل كل خلقه وعلى البشر جميعا ان يخضعوا لطاعته.

وفي قوله تعالى :
« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » :
ما يؤكد دعوى عموم الرسالة .

وقد جاء البشر - كم تجمع الأديان السماوية من صلب واحد فاختلفوا ورد اليهود اختلافهم الى ما نزعت اليه أنفسهم من اثرة وتميز - وأغفلوا الجانب الانساني حين ميزوا أنفسهم على كافة البشر « فقد كان اليهود - كمـا يقـول هـ ج ويلز - يؤمنون بأن الله الواحد هو رب الناس أجمعين وبقدر ما هو رب بر وصلاح فهو رب تاجر عقد صفقة رابحة لصالحهم مع ابيهم ابراهيم يعدهم فيها بأن يسمو بهم في النهاية الى سيادة العالم ولم يكن غريبا أن ينتابهم الفزع وهم يستمعون الى يسوع وقد راح يحطم امالهم المنشودة ويعلمهم أن الله ليس رب صفقات وليس هناك شعب مختار ولا أناس أولى بالخطوة في مملكة السموات وان الله هو الأب المحب للناس أجمعين ونبذ ادعاء اليهود أن لهم على الله حقا دون غيرهم من البشر فالله لا يميز بين عباده وأصبح المجتمع اليهودي تحت وقر الدين مجتمعا مغلقا على ذاته لا يستطيع التحرر مما ادعو من تميز ..

واذا كانت المسيحية لم تبدع تشريعا فقد ابدعت المحبة ونادت بالبر والتعاطف واعلاء الفضائل الانسانية وكانت دعوة - كما يقول ويلز الى تغيير الحياة الاجتماعية باسرها وصهر الانسان وتحريره من جديد .

ويرى - سيد أمير على « أن المسيح عليه السلام لو امتد به الأجل في هذه الحياة الدنيا لارسى دينه على قواعد منهجية مقررة وقد ادى هذا النقص من بعد الى عقد المجالس والمجامع السكونية لتقرير قواعد الدين واصوله وبقيت رسالته دون ان تتم وكان لابد من ظهور نبي اخر ليكمل رسالة السماء ويتمها .

وقد بعث الاسلام في وقت تهرأت فيه علاقة الفرد بالفرد وعلاقة الفرد بالدولة والمجتمع وكانت « حالة الجماعات الانسانية في الشرق والغرب-كما يقول سيد أميرعلى-تدعو الى الرثاء بدرجة يقصر دونها الوصف فالكثرة ضعيفة مستعبدة لا تتمتع بأية حقوق اجتماعية او سياسية ففى الشرق كان الكهنة وكبار الملاك في فارس هم وحدهم أصحاب السلطة والنفوذ يستمتعون بالثروة ولا يتركون منها سوى فضلة تقيم اود المستعبدين من الرعية وفى الغرب كان رجال الدين والصفوة من ذوى السلطان والشعب يتمرغ فى حمأة التعاسة والبؤس ويعانى الفقر والعوز ، وفى بقية المجتمعات الإقطاعية كان السواد الأعظم من الناس إما أقنانا أو أرقاء ، حتى جاء نبى الإسلام العظيم فنفخ فى بوق الحرية وأعلن المساواة التامة بين البشر وحرر الكادحين من ظلم المستغلين وقضى على الفروق الطبقية والتمايز العنصرى والدينى وجعل الناس سواء أمام القانون وأمام شريعة على درجة عظيمة من المرونة والبساطة والقدرة على التطور تبعا لتطور الحياة وتقدمها .

واذا كان للاسلام ان يستعيد صفاءه فهو الامل الباقي للوحدة العالمية التى ينشدها العصر ونوه بها فلاسفة الغرب فالدعوة الاسلامية دعوة للناس كافة وهو ما ندعوه ويجمع

عليه غيرنا دعوى عموم الرسالة ـ وان انكرها البعض ـ كمرجليوث و ـ وليم ميور و كيتانى ـ وان كان اجتراؤهم على الانكار لا يقوم على دليل ويجفوه واقع التاريخ فيدعون ان محمدا لم يخط في سبيل ذلك خطوة في حياته وينكرون لذلك كتبه الى الملوك والأفيال يدعوهم الى الاسلام بدعوى انهم لم يعثروا على ما يؤيد ذلك او يدل عليه من تلك الرسائل وهم أعلم بأنه لم يكن هناك نظام لحفظ مثل هذه الرسائل ولكن الأحداث تدل عليه وان تجاهلوها فحين جاء كسرى كتاب رسول الله « صلى الله عليه وسلم » مزقه وكتب الى بازان عامله على اليمن ان يأتيه براس هذا الرجل بالحجاز ولكن بازان يسلم ويرضى أن يكون عامل محمد على اليمن اما المقوقس عظيم القبط في مصر فرد ردا جميلا وبعث بهدايا الى النبى وجاريتين هما ـ مارية القبطية ـ أم ولده ابراهيم و سيرين ـ التى أهديت الى حسان بن ثابت وكل ذلك من الثوابت التاريخية ٠

ويجمع مؤرخو العرب كابن هشام واليعقوبى والطبرى على صحة دعوى عموم الرسالة حين يذكرون أن الرسول خرج يوما على اصحابه فقال :« ان الله بعثنى رحمة للناس كافة فلا تختلفوا على كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم ٠٠) ٠ قال أصحابه : « وكيف اختلف الحواريون يارسول الله ؟ ، قال : « دعاهم الى الذى دعوتكم اليه فأما من بعثه مبعثا قريبا فرضى وسلم وأما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وجهه وتثاقل » ثم ذكر لهم أنه مرسل الى هرقل وكسرى والمقوقس والحارث الغسانى .ملك الحيرة والحارث الحميرى ملك اليمن والى نجاشى الحبشة يدعوهم الى الاسلام » ٠

وما كان رسول الاسلام العظيم ـ كما يحلو للسيد أمير على ـ ان يصفه الا متبعا رسالة ربه أنه رسول الى الناس كافة بدعوة الاسلام

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ٠٠

«قل ياأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » الاعراف : ١٥٨

« ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » ال عمران ٨٥

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ٠٠ الفرقان :

والاسلام دين الله منذ كانت رسالة السماء الى الأرض :

« ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا »

« انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان واتينا داود زبورا ٠ » النساء : ١٦٣

« وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس » الحج ٧٨

« إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بايات الله فان الله سريع الحساب » ال عمران : ـ ١٩

فالاسلام دين الناس كافة ملة ابراهيم حنيفا وهى الحقيقة التى تقوم عليها دعوى عموم الرسالة اى أن الدعوى الى الاسلام قائمة حتى يعم الاسلام الأرض جميعا هدى وبصيرة للناس أجمعين وما كانت كتب النبى صلى الله عليه وسلم ـ الى الملوك والأفيال الا دلالة

صريحة على ما ذكر القران من دعوة الناس جميعا الى اعتناق الاسلام وانه دين الناس كافة بل انه ليزداد وضوحا في قول نبى الاسلام متنبأ أن بلالا أول ثمار الحبشة وان صهيبا - اول ثمار الروم - اما سلمان وهو اول من اسلم من الفرس فقد كان عبدا نصرانيا بالمدينة اعتنق الاسلام في السنة الاولى من الهجرة وهكذا صرح الرسول بكل جلاء ووضوح ان الاسلام ليس مقصورا على الجنس العربى وذلك قبل ان يدور بخلد العرب اى شىء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل (١) ويرى توماس. ارنولد ان الدعوة الى الاسلام باقية حتى اليوم كما كانت من قبل حتى يعم الاسلام العالم وهو ما راه سببا لوضع كتابه « الدعوة الى الاسلام »

وتقوم الدعوة الى الاسلام على التسليم بما سبق من دعوة الانبياء والرسل والدلالة صريحة فى القران على انه دين ابراهيم وموسى وعيسى ومن جاء قبلهم :

« ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ... » غافر : ٧٨

« سنة من قدر ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا » الاسراء : ٧٧

« ولقد ارسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون . ثم قفينا على اثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم واتيناه الانجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين امنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون » الحديد : ٢٦ - ٢٧

« ولقد اتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين » الأنبياء ٤٨

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادى الصالحون » الأنبياء : ١٠٥

فالاسلام رسالة الله الى عباده وهو دين الله منذ بعث الله برسله الى الأرض الا ان رسالة محمد وحدها هى التى جاءت للناس كافة فرسالة نوح كانت الى قومه

« لقد ارسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره » الأعراف : ٥٩

وكانت رسالة موسى الى بنى اسرائيل ثم كانت رسالة عيسى اليهم ليصلح ما أفسد اليهود من ديانة موسى وليردهم الى سواء السبيل .

« واذ قال عيسى ابن مريم يابنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » الصف : ٦

أما محمد فهو خاتم الانبياء والمرسلين اكتملت في دعوته رسالة السماء وهو « أول رسول بعثه الله للناس كافة ولم يبعثه - كما يقول الدكتور هيكل - الى قومه وحدهم ليبين لهم « وها قد » انقضت كما يقول - اربعة عشر قرنا ولم يقل احد خلافه انه نبى او انه رسول رب العالمين فصدقه الناس قام في العالم اثناء هذه القرون رجال تسنموا ذروة العظمة في غير ناحية من نواحى الحياة فلم يوهب أحدهم هبة النبوة والرسالة ومن قبل محمد كانت النبوات تترى والرسل يتتابعون فينذر كل قومه انهم ضلوا ويردهم الى الدين الحق ولا يقول احدهم انه ارسل للناس كافة او انه خاتم الأنبياء والمرسلين اما محمد فيقولها فتصدق

---

١ - توماس ارنولد وترجمة د . حسن ابراهيم حسن واخرين : الدعوة الى الاسلام ص ٢٤ - ٢٥

القرون كلامه ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وهدى ورحمة للعالمين (١) وقد اكتملت في شريعة الاسلام كل ما تهفو اليه الطبيعة البشرية من معانى الحق والخير والجمال فالحق أن يؤمن الناس باله واحد لا شريك له ولا كفاء وهذا هو جوهر العقيدة الاسلامية .

الإسلام والدولة العالمية

واذا كان الاسلام قد بعث للناس كافة واعلن المساواة بين الناس من حيث الواجب ومن حيث الجزاء لا فرق بين غنى وفقير وحاكم ومحكوم او بين مسلم وذمى وقرر حرية التصوف وحرية الدعوة ليكون الايمان نبع اليقين والمعرفة الحقة والادراك الواعى وان يكون الرباط بين الناس على اساس من الاخاء وهو اخاء يصل الى اعلى مراتب السمو الانسانى اذ يرقى بالانسان الى غاية البر والرحمة من غير ضعف ويجرد الفرد من شهوات السلطان والمال ونزوات الجسد وتستقيم معه المساواة على الواجب والضمير اكثر مما تستقيم على وازع القانون (٢) وقد جاءت الشريعة الإسلامية في المعاملات والحدود وفي غيرها بما يكفل هذه المساواة ويصونها فيما حفلت به تعاليم الاسلام من قواعد السلوك ومعايير الأخلاق من الصدق والتواضع والرحمة والبر والايثار والعفو والاحسان وكبح جماح الشهوات ونقاء الضمير وسلامة الوجدان وكانت العبادات في الاسلام وفاء للحق والخير والجمال وصلاحا للبدن ونظافته وجاءت شريعته هديا للنفس البشرية من انواع الضلال والشرك تأتلف مع الطبيعة البشرية ولا تشذ عنها مصداقا للعقل والعلم حاثا على كشف اسرار الكون والسيطرة عليها وشرع من الدين ما شمل الدنيا فارسى قواعد الأخلاق على اساس من توقير الحياة واعلاء الكرامة الانسانية واقام قوانين الوجود على اساس من التأمل والعقل ونظم العلاقات الاجتماعية والواجبات الانسانية على اساس من الواجب والمسئولية وحدد المثوبة والجزاء وربط بين الدين والحياة برباط من الوحدة والانساق لا يشد فيهما الواحد عن الاخر ولا يتنكب الانسان في احدهما سبيل الخير فكان دين الفطرة وختام رسالات السماء (٣)

وقد امتدت الدولة الاسلامية في ظل المبادىء الجديدة الى ابعد مما وصلت اليه دولة في العالم وأقام المسلمون في مدى ثلاثين عاما دولة سارت على هدى النبوة فسعد الناس في ظلها بالاخاء والمساواة والحرية لا يستعلى فيها الحاكم على المحكومين ولا يستأثر دونهم بما لا يؤثره على غيره وكانت هذه المبادىء الجديدة التى قررها الاسلام وجاءت بها شريعته السمحاء هى التى حملها المسلمون ظافرين الى العالم أجمع وكانت مكمن انتصارهم وانسياح دولتهم وهو ما يقرره - جوستاف لوبون في كتابه عن الحضارة الاسلامية بقوله : وقد استطاع العرب ان يفتحوا العالم يوم خضعوا لقانون مقرر ثقفوه من الدين الجديد الذى جاءهم به محمد فعرفوا كيف يوفقون بين الشريعة وحاجة الشعوب التى دانت بها

---

١ - الدكتور هيكل - محمد حسين : حياة محمد . الخاتمة

٢ - الاسلام والسياسة للمؤلف ط ٢ ص ٧٤ - ٩٥

٣ - الدولة والحكم في الاسلام للمؤلف : ص ٦٠ كتاب الحرية العدد الرابع انظر ايضا الاسلام دين الفطرة للشيخ عبد العزيز جاويش

حتى اذا حادوا عنها ركبهم الهوان فانحلت دولتهم ولم تعش اكثر من ثلاثة قرون بينما بقيت حضارتهم عالية الذرى تضىء سماء العصور الوسطى لألف عام تالية .

وكان قيامها ـ كما يجمع المؤرخون حادثا فذا من احداث التاريخ مازال يذهل الغرب الاوربى ويخيفه حتى وقتنا هذا ـ من ان يجتمع المسلمون مرة اخرى حول عقيدة سمت بهم الى ارقى مراتب السمو وخلقت منهم امة وحضارة ازدهرت بهل العصور الوسطى فكان العلم كما يقول ويلز ـ يشب مفزا السير في كل صقع انساحت اليه قدم الفاتح العربى من بلاد الاندلس حتى حدود الصين ومنحوا العالم ثقافة جديدة وعقيدة مازالت حتى يومنا هذا كما يقول الدكتور هيكل (١) من اعظم القوى الحيوية في العلم حتى اذا قدر لهذه الامبراطورية الاسلامية ان تنحل بقيت هذه الحضارة تناضل عن نفسها وهى اليوم تبعث من جديد

فاذا كان الاسلام ختام رسالات السماء مصدقا بها وامتدادا لها وكانت للعالم اجمع لا لقبيل من دون قبيل ولا لشعب دون الاخر واذا كان العالم يمضى سراعا نحو اقامة حكومة عالمية لدولة عالمية تشيع السلام وتحقق الرخاء والرفاه والامن للعالم في ظل ديانة عالمية لدولة عالمية وتحقق الرخاء والرفاه والامن للعالم في ظل ديانة واحدة وان تركت للناس حريتهم في اعتناق ما تهفو اليه قلوبهم فهل ينشدها في تعاليم الاسلام التى قامت على وحدة الجنس البشرى في ظل اخوة شاملة تشمل الناس اجمعين ؟

هذا هو ما ينشده الفكر العالمى ويسعى اليه ويعمل على تحقيقه فيما كان من قيام الامم المتحدة ومنظماتها العديدة وان غلب عليها الصراع السياسى والتنافس الاقتصادى الجائر وهو ما يوشك ان يقود العالم الى الدمار .

وقد جب الاسلام (الشعوبية) وهى قرين القومية في الفكر المعاصر وجمع بين اهل الكتاب وهم اصحاب الديانات السماوية فيما دعاه (الأمة)

« من أهل الكتاب امة قائمة يتلون الكتاب ايات الله (ال عمران ١١٣)

« كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ال عمران : ١١٠

« وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون » المؤمنون : ٥٢

« ان هذه امتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون » الأنبياء : ٩٢

وقد خلت اللغات الاوربية من كلمة الأمة وكانت كلمة الشعب ـ هى الكلمة السائدة فاذا كانت الاشارة إلى الأصول الجنسية لهذه الشعوب قيل الشعوب اللاتينية او الشعوب الجرمانية أو الشعوب السلافية ولا يقال الامة اللاتينية .. الخ بينما تناولت اللغة العربية التعريف الدقيق لكل من الامة والشعب والقوم فقيل قوم عاد وقوم ثمود وفى القران الكريم (وجعلناكم شعوبا وقبائل) اما لفظ أمة فقد جاء ذكره فى القرآن كثيرا وبدلالات متباينة جل ما كان منها للدلالة على أمة الاسلام وهى امة تجمع بين كافة الديانات السماوية من أهل الكتاب كما قلنا فالجامعة الدينية تطوى في غمارها كل من دان بالاسلام .

---

١ ـ الامبراطورية الاسلامية والاماكن المقدسة : ص ٨٠

وفي الماثور من اقوال العرب ما يفرق بين الامة والشعب فاذا تفرقت امة الاسلام شعوبا فهى (الشعوبية) التى تفرق ، المسلمين من اهل الكتاب شعوبا عدة وهو ما جبه الاسلام ونهى عنه والامة لغة الجماعة او الجيل من الناس والشعب القبيلة العظيمة والجيل من الناس

ومنه الشعوبية والشعوبيون هم القوم يصغرون شأن العرب بعد أن أخذ العرب يتعالون على العجم مما أدى فى النهاية الى انفصال الفرس عن العرب وارتدادهم الى قوميتهم، - أو شعوبيتهم - والواحد من الشعوبيين (شعوبى) أما القوم فهم الجماعة من الناس تربطهم الصلات القرابية فقوم الرجل اقرباؤه يجتمعون معه فى جد واحد .

فالقوم - ومنه القومية - اكثر التصاقا بالعنصر والجنس من الامة والشعب وبقدر ما ورد لفظ (أمة) فى القرآن الكريم بقدر ما ورد لفظ القوم حيث تعنى الأمة الكثرة من الناس ويعنى بالقوم قلة تنفرد بصفة أو خصائص معينة فالدعوة الى العالمية واعتبار أهل الكتاب امة واحدة صاغ لها الاسلام شريعتها التى تقوم على الاخاء والمساواة وتوقير الحياة واعلاء الكرامة الانسانية هى ما ينشده العالم في حاضره التعس مما نوه به فلاسفة الغرب ومفكروه انقاذا للعالم من هاوية يتردى فيها وتوشك ان تطيح بالحضارة القائمة وبالناس معا . وقد لا نجد ختاما لهذا البحث عن الاسلام وفلسفة الحضارة خيرا من تلك الكلمة التى ساقها المغفور له عبد الرحمن عزام وختم بها بحثه القيم (الرسالة الخالدة) بقوله .

« وبعد فهل يكتب لسكان الشرق من المسلمين والمسيحيين الذين تتعلق نفوسهم دائما برحمة الله وتترقب هداه اذا اشتدت الكروب والظلمات ان ينهضوا مرة اخرى بميراثهم السامى الذى يقوم من عوج النزاع الفكرى والاقتصادى والعنصرى ويلطف من حدة المزاج الغربى حتى يؤمن بالأخوة الانسانية ويعمل لخدمة السلام العام باخلاص نية وحسن توجه بما مكن الله له في الارض ؟

ذلك ما نسأل الله رب العالمين ان يعجل بتهيئة اسبابه ان الله بالناس لرءوف رحيم » .

واذا كنت قد أوفيت فى بحثى هذا على ما انشد وأريد الى جانب ما صدر لى من كتب في الدراسات الاسلامية والعربية ارجو ان اكون قد اسهمت في حركة الاستنارة الاسلامية والعربية لخير ما انشد داعيا الله ان يوفق امة الاسلام والشعوب العربية الى خير ما جاءت به رسالة نبى الاسلام العظيم لعالم موحد تسوده شريعة هى اكمل ما جاءت به شرائع الأرض والسماء داعيا الله ان يسدد خطانا ويمنحنا اليقين والرشاد .

« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به وأعف عنا وأغفر لنا وأرحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » البقرة ٢٨٦

صدق الله العظيم

تعريـــف بالمؤلـــف

• د . حسين فوزى النجار •

• ولد في ١٦ نوفمبر ١٩١٨ بأكراش مركز ديرب محافظة الشرقية
• حصل على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى في تاريخ الصحافة من جامعة القاهرة ١٩٥٧ .

• درجة الزمالة في العلوم السياسية من جامعة هارفارد
• زميل المركز الدولى بواشنطن
• عمل ضابطا احتياطيا (١٩٤١) وشارك في احداث الحرب العالمية الأخيرة

• عمل مدرسا بوزارة المعارف ثم أستاذا للتاريخ القومى بالكلية الحربية واستاذا للاستراتيجية بكلية اركان الحرب

• رئيس ادارة الاعلام بالجامعة العربية (١٩٥٤) واشرف على انشاء مكاتبها بالخارج

• نشر له خمسة وعشرون كتابا اولها ـ السياسة والاستراتيجية في الشرق الاوسط (١٩٥١) بخلاف العديد من البحوث التى نشرت في المجلات الأجنبية والعربية .

فهـــــرست

الموضــــــــوع | الصفحة

مشروعات وإنجازات

هيئة كهرباء مصر

كلمة تقدير للسيد رئيس الجمهورية عن مشروع محطة كهرباء شبرا الخيمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن المشروعات العظيمة لابد وأن يقوم بها رجال أكفاء مخلصين منظمين.

إن هذا المشروع المشرف مدعاة للفخر والإعجاب لكل مصري من أبناء هذا الوطن. وليطمئن كل منا جميعاً أن بلدنا كانت تستحق كل التقدير ليس منا فقط، وإنما تقدير الجهات الأجنبية أيضاً.

شكري وامتناني وتقديري لكل من شارك بعمل وتنفيذ وعمل في تشغيل هذه المحطة العظيمة.

مع أسعد تمنياتي

حسني مبارك

١٣/٢/١٩٨٥

قصة الكهرباء فى مصر هى قصة تطورها الحضارى لامراء . . وهى قصة مثيرة حافلة بالجهد والعرق والسباق مع الزمن ، تحققت خلالها صنوف مختلفة من الانجاز الضخم القياسى بكل المعايير لجعل التقدم حقيقة واقعة يعيشها المجتمع ، والحداثة أمر يتقدم باطراد فى كل اشكال حياته ومناشطه .

والحقيقة الأساسية التى تأكدت بقوة خلال ذلك . . هى ان الكهرباء أساس التنمية المعاصرة فى سائر جوانبها الاقتصادية والاجتماعية . . وهى بوصفها من أهم هياكل البنية الاساسية والدعامة الرئيسية التى تقوم عليها مشروعات خطط التنمية الصناعية والزراعية وفى مجالات الاسكان والخدمات وسائر جوانب الحياة فى المجتمع .

وفى لقاء مع المهندس محمد السعيد عيسى رئيس هيئة كهرباء مصر تحدث قائلا :

تعتبر مصر من أوائل دول العالم التى بدأت فى استخدام الطاقة الكهربائية منذ أواخر القرن الماضى (١٨٩٣) وكانت بدايتها قاصرة على استخدامها فى الانارة فقط . . ثم تطورت خاصة فى ثلث القرن الاخير . . تطورا كبيرا . . وتعددت أشكال استخدامها مع تطور البلاد ونموها .

وتعنى هيئة كهرباء مصر فى المقام الأول . . بتوفير الطاقة الكهربائية لمختلف عناصر الإنتاج والخدمات . . بالقدرات اللازمة والمواصفات الفنية الملائمة . . كما تتخذ كافة الضمانات لاستقرار واستمرار التغذية الكهربية دون انقطاع فى كافة الاحوال . . فى حدود الامكانيات المتاحة والتى تسعى إلى تطويرها على الدوام .

وقد حققت مصر منذ تولى الرئيس محمد حسنى مبارك قيادة مصر إنجازات عديدة فى مجال الكهرباء . . فلقد قامت الوزارة بإنشاء العديد من محطات التوليد العملاقة خلال الفترة من عام ١٩٨٠ حتى عام ١٩٩٠ ومن أهم هذه المشروعات محطة توليد كهرباء شبرا الخيمة بقدرة ١٣٤٠ ميجاوات وهى تأتى فى مقدمة المشروعات العملاقة خلال هذه الفترة وعددها ١١٠ مشروعا .

وتأتى هذه المشروعات لتواجه تصاعد الطلب على الطاقة الكهربائية فى مصر حيث ارتفع الحمل الأقصى من ١٢٥ ميجاوات عام ١٩٥٢ الى ٣٢٣٩ ميجاوات عام ١٩٨١ ليصل الى ٧٠٠٠ ميجاوات عام ١٩٩٠ ومن المتوقع ان يرتفع الحمل الاقصى للجمهورية الى ٨٤٠٠ ميجاوات بنهاية عام ١٩٩٢ .

ولمواجهة الزيادة المطردة فى الطلب على الطاقة وضعت وزارة الكهرباء إستراتيجيتها فى عام ١٩٨١ وحتى عام ٢٠٠٠ والتى سارت عليها الخطط سواء ماتم انجازه خلال

الخطة الخمسية الاولى والثانية او مايجرى تنفيذه حاليا وحتى هذا العام لإنشاء العديد من محطات توليد الطاقة لمواجهة زيادة الأحمال المتوقعة . . واضعة فى اعتبارها تنويع مصادر الطاقة لتحقيق الاستغلال الأمثل لها مع إعطاء أولوية للمصادر المحلية وخاصة المصادر المائية والغاز الطبيعى .

ومن الإنجازات الضخمة التى حققتها هيئة كهرباء مصر إقامة الشبكة الكهربائية الموحدة التى تضم وحدات ومحطات توليد الكهرباء فى مصر وكذلك محطات المحولات بمختلف الجهود وآلاف الكيلو مترات لخطوط نقل الطاقة سواء كان الجهد الفائق او الجهد العالى والجهد ٦٦ ونعتبره جهدا عاليا أيضا . . ولكن اقل منه بقليل وتقوم هذه الشبكة بتغطية الجمهورية من اول أسوان وحتى الإسكندرية شمالا . والهيئة تحاول ان تنشر الشبكة الموحدة فى مناطق التنمية الجديدة داخل سيناء نفسها والساحل الشمالى أيضا حتى نهاية الحدود الى السلوم .

هذا الى جانب مشروعات الربط الكهربائى مع الدول العربية عن طريق الجهد الفائق والجهد العالى من خلال سيناء حتى طابا . . ومن خلال الساحل الشمالى حتى السلوم للربط مع ليبيا وبالنسبة للمناطق الاخرى كالوادى الجديد او ساحل البحر الاحمر فاننا نجتهد ايضا لتوصيل الشبكة الموحدة لهم وقد نجحنا بالفعل فى ان تصل الشبكة الموحدة الى الوادى الجديد (فى مدينة الخارجة) وهذه ستكون ربطا جيدا للوادى الجديد بالشبكة الموحدة .

والشبكة الموحدة هى شبكة متشعبة من الخطوط والكابلات ومحطات (التوليد والمحولات) متصلة ومترابطة بصورة معينة من الناحية الفنية بحيث إذا ما انقطعت التغذية من أى جهة نتيجة أى عطل كهربائى أو أى عطل آخر ، يمكن ألا تنقطع التغذية من هذه البقعة (فهى مؤمنة بالتغذية من جهة أخرى) من هنا جاءت تسميتها بالشبكة الموحدة لأنها مترابطة .

والشبكة الموحدة موجودة من زمن ليس بالبعيد ولكنها فى تطوير دائم واتساع بإضافة محطات توليد ومحطات محولات وخطوط جديدة وانتشار حسب تطور الأحمال . . عموما فإن الشبكة الموحدة فى الوجه البحرى تتميز بأن الغالب فيها جهد ٢٢٠ ك . ف . وشبكة الوجه القبلى تتميز بأن الغالب فيها ٥٠٠ ك . ف .

ولكننا بدأنا ننشر ٥٠٠ ك . ف حول القاهرة وسنخرج منه فى الوجه البحرى كشبكة رئيسية لـ ٥٠٠ ك . ف مع نشر شبكة ٢٢٠ ك . ف فى الوجه القبلى لتدعيم شبكته بـ ٢٢٠ك . ف

ومن الانجازات ايضا المركز القومى للتحكم بغرب القاهرة المسئول عن الشبكة الرئيسية والتى هى ٥٠٠ ك . ف و٢٢٠ ك . ف ومسئول مسئولية مباشرة عن أى مناورة أو أى إجراءات تتم فى هذا المستوى .

وأضاف المهندس محمد السعيد عيسى قائلا إن المشروعات التى قامت الهيئة بإنجازها هى :

●● التوليد : المحطات المرتبطة بالشبكة .

التوسع الأول لمحطة كهرباء أسيوط (٣٠٠ ميجاوات) - احلال وتجديد محطة كهرباء السويس الحرارية (١٠٠ ميجاوات) - تطوير تربينات السد العالى .

- إحلال وتجديد غلايات طلخا (٩٠ ميجاوات) - إحلال وتجديد كفر الدوار (١١٠ ميجاوات) - إحلال وتجديد غلايات دمنور (٣٠ ميجاوات) .

● المحطات غير المرتبطة بالشبكة :

الوحدة الثانية بالغردقة (٢٥م . و) - الوحدة الأولى بالداخلة (٢,٣م . و) - الوحدة الأولى بتوسيع العريش (٥,٥م . و) - الوحدة الثالثة بالغردقة (٢٥م . و) - الوحدة الثانية بطابا (٢,٣م . و) - الوحدة الثانية بتوسيع العريش (٥,٥م . و) الوحدة الثالثة بطابا (٢,٣م . و) .

●● الشبكات : محطات المحولات :

محطة محولات جرجا - محطة محولات ميناء ابو قير - محطة محولات سموحه - محطة محولات طما - محطة محولات ربط الخزان - مشروع تطوير الوقاية لشبكة ٥٠٠ك . ف - محطة محولات سلوة بإجمالى سعة المحطات ٩٧٥ (م . ف . أ) .

● الخطوط :

بهتيم / الزقازيق - ابو زعبل / التبين - اسيوط ٥٠٠ توليد أسيوط (الربط الأول) العميد / برج العرب (جزء أول) - مصنع ١٠٠ / ٢٠٠ الحربى - اولاد حمام / الجمالية - دمياط / المحلة - أسيوط ٥٠٠ / أسمنت أسيوط - القاهرة ٥٠٠ / ٦ أكتوبر بإجمالى أطوال الخطوط ٣٧٣ كم .

● الكابلات :

أبيس / جميلة بو حريد ـ سموحة / النزهة / الحراريات ـ العامرية / المكس ـ البساتين / قطامية ـ السبتية / المترو ـ شبرا الخيمة / المترو ـ أبيس / محرم بك ـ العجمى / المنطقة الحرة بإجمالى أطوال الكابلات ٦٠,٠٥ كم .

● ● التدريب فى الهيئة :

فى إطار سياسة الدولة لتحقيق مبدأ الاعتماد على الذات . . كان التدريب من الأمور التى أولتها الهيئة إهتماماتها . . حيث تم تطوير النظم الإدارية لتواكب التطور العلمى باستخدام نظم المعلومات المدعمة بالهيئة والمعروف أن مركز معلومات الكهرباء والطاقة يشتمل على نظام للمعلومات يمكنه إدارة عدد هائل ومتنوع من البيانات اللازمة لتدعيم عملية اتخاذ القرار فى مستوى الإدارة العليا حيث يعمل فى هذا المركز مجموعة من المهندسين المدربين .

وقد شهدت الخطة الخمسية الثانية إستمرارا لتطوير إمكانيات إعداد وتدريب القوى العاملة بهيئة كهرباء مصر ، وذلك بتطوير ورش أجهزة القياس والتحكم الألكترونى فى مركز تدريب شمال القاهرة للمساعدة فى تدريب المهندسين والفنيين فى الهيئة على إصلاح أجهزة القياس الألكترونية التى تشتمل عليها التكنولوجيا فى محطات التوليد الكهربائى .

تطوير ورش اللحام ولحام الكابلات وهما من أشد التخصصات احتياجا فى هيئة كهرباء مصر خصوصا لحام الضغط العالى لمواسير الغلايات البخارية للمحطات .

وقد قامت الهيئة بافتتاح مراكز تدريب عديدة منها مركز التدريب المالى والادارى بشمال القاهرة ـ وتطوير معهد تدريب جنوب القاهرة ـ وانشاء مركز تدريب أبو قير فى منطقة كهرباء الاسكندرية وحاليا يتم إعداد مركز طلخا وأيضا مركز تدريب المحطات المائية بأسوان . كذا مركز تدريب فايد بالاسماعيلية .

ويضتند التخطيط الشامل فى مجال الكهرباء والطاقة على التنبؤ بالاحتياجات الفعلية من الطاقة الكهربية ، للاستخدامات المختلفة وتوفيرها من مصادر الطاقة المتاحة لمواجهة الطلب المتزايد عليها ، باعتبارها شريان الحياة لكل نواحى التطوير والتنمية والتقدم الاقتصادى والاجتماعى للوطن .

ولقد حرصت هيئة كهرباء مصر على وضع استراتيجية شاملةلاستخدامات وتنميةمصادر الطاقة المختلفة فى مصر . لتحقيق الاستخدام الأمثل لها . . وهى تمضى قدما فى تنفيذ الخطط التفصيلية لهذه الاستراتيجية الشاملة ، والتى تكفل لكل من المصادر المائية والحرارية للطاقة الكهربية أقصى عطاء ممكن على المدى المستقبلى مع الأخذ فى الاعتبار ماتشير إليه النظرة المستقبلية المبنية على الاستقراء العلمى ومنهجيات التخطيط السليم من ضرورة التوجه إلى مصادر جديدة للطاقة يمكنها الوفاء بمتطلبات الحياة المتطورة مع الزيادة السكانية المستمرة .

ولقد ثبت وجود علاقة وطيدة بين معدل زيادة الدخل القومى ومعدل زيادة استهلاك الكهرباء بحيث صار استهلاك الفرد سنويا من الكهرباء معيارا تحدد به درجة تقدم الأمم ومدى نهضتها الاقتصادية والاجتماعية ومؤشرا لرخائها .

ومن إنجازات الهيئة أنه تم اضافة قدرات توليد حرارية مقدارها٢٠٠٠ ميجاوات (عام ١٩٨٩) تم إنشاؤها فى ١٤ شهرا وهى تعادل محطة توليد كهرباء السد العالى . وهذا ما أطلق عليه الخطة الإسعافية والتى خطط لها على إثر انخفاض إيرادات مياه النيل وقتئذ .

وهذا يعكس مدى الجهود التى تبذلها وزارة الكهرباء والطاقة لترتفع بنصيب الفرد من الطاق الكهربائية من ٥٠ كيلووات ساعة عام ١٩٥٢ إلى حوالى ٨٠٠ كيلووات ساعة عام ١٩٩٠ لتصل إلى ١٠٠٠ كيلووات ساعة بنهاية عام ١٩٩٢ .

وماتم إنجازه خلال الخطة الخمسية الأولى أوالثانية من إنشاء العديد من محطات توليد الطاقة لمواجهة زيادة الأحمال المتوقعة واضعة فى إعتبارها تنويع مصادر الطاقة لتحقيق الاستغلال الأمثل لها مع إعطاء أولوية للمصادر المحلية وخاصة المصادر المائية والغاز الطبيعى وعلى سبيل المثال لا الحصر تم إنشاء العديد من محطات التوليد العملاقة خلال الفترة من عام ١٩٨٠ حتى العام الحالى مثل .

- محطةتوليد خزان أسوان الثانية قدرة ٣٠٠ ميجاوات .
- محطة توليد شبرا الخيمة قدرة ١٣٤٠ ميجاوات .
- محطة توليد كهرباء أبوسلطان قدرة ٦٠٠ميجاوات .
- محطة توليد عتقاقة قدرة ١٠٠٠ميجاوات .

● محطة توليد كهرباء أبوقير قدرة ١٠٠٠ ميجاوات .

● محطة توليد المحمودية الغازية قدرة ٣٠٠ ميجاوات .

● محطة توليد كفر الدوار قدرة ٤٤٠ ميجاوات .

● محطة توليد دمنهور الغازية قدرة ١٠٠ ميجاوات .

● محطةتوليد كهرباء دمياط قدرة ١٢٠٠ ميجاوات .

● توسيع محطة توليد دمنهور قدره ٣٢٥ ميجاوات .

● توسيع محطة السويس الحرارية قدرة ١٠٠ ميجاوات .

وقد أدى إنشاء هذه المشروعات العملاقة وتنفيذالتوسعات فى محطات التوليد القائمة إلى ارتفاع قدرات التوليد المركبة بالشبكة الكهربائية الموحدة من (٤٧٠٠ م . و) عام ٨١ إلى ١١٥٠٠ ميجاوات عام ١٩٩٠ ومن المتوقع أن تصل قدرات التوليد إلى ١٤٠٠٠ ميجاوات عام ٩٢ .

وقد صاحب ذلك بالتالى إرتفاع الطاقةالكهربائية المولدة أو الممكن توليدها بالشبكة الكهربائية الموحدة من ١٨ مليار كيلووات ساعة عام ٨١ إلى ٦٠ مليار كيلووات ساعة عام ١٩٩٠ ومن المتوقع أن تصل إلى ٧٠ كيلووات ساعة بنهاية عام ١٩٩٢ .

وقد صاحب التطور فى محطات التوليد تطور مماثل فى محطات المحولات والخطوط والكابلات لنقل الطاقة لجميع أنحاء الجمهورية على الجهود المختلفة . . وذلك باستخدام الجهود الفائقة (جهد ٥٠٠ ك . ف) ويعتبر هذا الجهد هو أعلى الجهود المستخدمة فى الدول المتقدمة .

●○●○●○●

الآراء والأفكار الواردة فى هذا المطبوع مسئولية المؤلف

مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

الطبعة الاولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

رقم الايداع ٩٣/٤٦٤٣

الترقيم الدولى ٣ ـ ٠٢٤ ـ ٢٢٩ ـ ٩٧٧